علي يحيى معمّر

# الأباضيّة في موكب التاريخ

## الحلقة الثانية

## الإباضيّة في ليبيا

## القسم الثاني

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
تليفون - ٩١٤٢٢٣

الطبعة الأولى { ربيع الأول ١٣٨٤ هـ
أغسطس ١٩٦٤ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

« من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » .

إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين .

وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين . وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون . »

صدق الله العظيم

[ سورة النمل : ٨٩ — ٩٣ ]

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

هذا القسم الثانى من الحلقة الثانية أيها القارى الكريم ، وبه تتم الصورة التى أردت أن أضعها بين يديك عن الإباضية خلال عشرة قرون تقريباً ، وذلك منذ دخول المذهب الإباضى إلى ليبيا فى أوائل القرن الثانى الهجرى إلى دخول ليبيا تحت الخلافة العثمانية(١) . وقد علمت أيها القارىء الكريم أننى لم أسلك فى هذا الكتاب مسلك المؤرخ الذى يتتبع دورة الزمن ، وترابط الأحداث ، وإنما حاولت أن أصور الفرد والمجتمع الإباضى فى هذه القرون الطويلة ، فهذا الكتاب نواة لدراسة اجتماعية ، كما أنه بداية لمحاولة تاريخية ، ورغم أننى بذلت فى جمع هذه الصور وتنسيقها جهوداً ، واستنفدت وقتا ، إلا أننى غير راض عن عملى هذا ، وكلما رجعت إليه شعرت بنقص فى جوانب كثيرة منه ، بعضها لا أملك إتمامه فى الوقت الحاضر ، وبعضها قد يتيسر لى إتمامه بعد عناء وجهد ، ولكننى لا أملك الوقت الذى أبذل فيه هذا العناء ، واستفرغ ذلك الجهد .

وقد عنيت بصفة خاصة فى هذا الكتاب أن أضع لك صورة جغرافية

---

(١) أما حياة الإباضية فى فترة الحكم التركى ، ثم مواقفهم البطوليه المشرفة فى دفاع العدوان الإيطالى فى أيام الحرب والسلم ، ومواقفهم من كيد الانجليز وجهودهم المتواصلة للحصول على الاستقلال ، أما صورة حياة الفرد الإباضى والمجتمع الإباضى فى هذه الفترة التاريخية المليئة بالأحداث فإنى بسبيل جمع المادة التاريخية لها ، ولهذا يسر الله لى السبيل وفتح لى الأبواب فسوف يخرج هذا القسم من هذه الحلقة مع بعض الحلقات الباقية من الكتاب فى زمن قد لايطول .

للمنطقة التى عمرها الإباضية من قديم ، ولا يزالون يعمرونها أو يعمرون بعضها . حتى يتم لك فهم الرباط الذى يمسك هذا المجتمع المتماسك ، الذى استعصى على قوى جميع الجيوش المخربة ، والدول الساعية وراء التوسع والملك . فمرت تلك الدول واحدة إثر أخرى تملك كل ما يجاور ذلك الجبل ، ويستعصى هو عليها ، فلا تنال منه منالا ، اللهم إلا غارات تصيب فيها دماء أو أموالا ! . وإلا عدوانا تحرق فيه أشجاراً وأغلالا ، كما فعل الميورقى وابراهيم بن الأغلب ، ومن سلك مسلكهم ، وبقى هذا الجبل المنيع يعيش على النظام الذى اختاره لنفسه حتى دخلت الخلافة العثمانية إلى ليبيا ، فدخل تحت جناحها ، وأوى إلى ركنها ، ورضى أن يخضع لسلطانها وحمايتها .

والآن أرجو منك أيها القارىء الكريم أن تقرأ هذا الكتاب بذهن متفتح ، يرتفع عن العصبية فى أى لون ، وما تراه مشعراً بذلك فى هذا الكتاب فقد دعا إليه التخصص الموضوعى للكتاب . فإن رأيت أنه تجاوز ذلك إلى أن يكون دعوة إلى عصبية ضيقة فانبذه على طول ذراعك . والله يعلم أننى أحرص كل الحرص أن أكون داعى ألفة ومحبة بين المسلمين ، وأن أرى أبناء هذه الأمة العظيمة التى اختارها الله لقيادة البشرية ، وهم ينبذون أسباب الخلاف الذى ما تنفك تثيره الأيدى الأثيمة ، والأفهام السقيمة ، ويتجهون جميعا إلى الله بقلوبهم وأعمالهم ، ويندفعون فى إيمان وإخلاص لحمل الرسالة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم عهد بها إليهم لإيصالها إلى الناس أجمعين .

القاهرة : ٢٣ ربيع الأول ١٣٨٤ هـ
(أول اغسطس ١٩٦٤م)

**على يحيى معمر**

# الكفاح العلمي

انحرف السياسيون والعسكريون فى الأمة الإسلامية بعد الخلافة الرشيدة عن الاتجاه الذى يدعو إليه الإسلام . وبدلا من أن يبقى الفكر ، وأن تبقى السيوف خدما للرسالة العظمى ، التى تصون الإنسانية من الانزلاق مرة أخرى؛ بدلا من ذلك ، استخدمت فى توفير المتعة والثروة لعدد ضئيل من الناس ، واتجه الملوك الظالمون وأتباعهم إلى اقتباس حياة بعيدة عن روح الإسلام ، فجلبوها من بلاط الروم أو الفرس ، وكونوا فى الأمة المسلمة التى كانت وحدة متكاملة يستوى فيها جميع الأفراد . . .

كونوا فى هذه الأمة الكريمة التى وحدتها العقيدة ، وأعزها الإسلام ، وساوى بين جميع عناصرها ـ العبودية لله وحده ـ نظاما طبقيا بغيضا ؛ تنقسم فيها الأخوة إلى طبقه حاكمة ، وطبقة محكومة ، وعملوا على أن تكون الطبقة الحاكمة صاحبة الحق فى كل شىء ، وأن تكون الطبقة المحكومة ليس لها حق فى شىء . . .

بل يجب عليها أن تكد وتعمل لتوفر للطبقة الحاكمة أسباب المتعة والراحة والرغد ...

وهكذا ارتكست الإنسانية من جديد ، ورجعت إلى المجتمع بعض الأمراض التى جاء الإسلام لمحاربتها والقضاء عليها . ومنذ بدأ هذا الاتجاه الخاطىء فى الأمة الإسلامية ، قام المؤمنون المستمسكون بدين الله يحاربون هذا الانحراف ، ويقوّمون هذا الخطأ فى الاتجاه ، ونجحوا مرات ، وأخفقوا مراراً ، إلا أن هذا الكفاح استمر طويلا ، ولا زال مستمرا إلى اليوم ، وإلى أن يسود الحق والعدل والحكم بشرع الله ...

وفى الفصول السابقة التى تحدثت فيها عن بعض الأبطال الذين كافحوا هذا الباطل الذى استعلن ، والظلم الذى انتشر ، صور من هذا الكفاح الطويل ، وليس هذا الكفاح مقصوراً على ليبيا ، أو على الإباضية ، ولكنه لم يخل بلد من بلاد الإسلام ، ولا فرقة من فرق المسلمين من رجال أو هيئات أخذوا على أعناقهم ألا يهادنوا الظلم ، وأن لا يخضعوا للطغيان ، وأن لا يستنيموا على الذل ، وأن لا يسكتوا عن الانحراف .

ومع هذا الانحراف السياسى فى الاتجاه الخاطىء ، والبعد عن روح الإسلام ، وقعت انحرافات من الاتجاه الدينى ، والعلمى ، والخلقى ، وكما اقتبس رجال الحكم نظم الحياة من ملوك سابقين ، أخذ ناس من أصحاب الفكر يقتبسون الآراء والعقائد من ديانات باطلة ، وفلسفات خاطئة ، يدخلونها فى دين الله ، ومن الناس من يعمل هذا العمل عن حسن نية ، ومنهم من حملهم الحقد على الإسلام والكره له ، على إدخال بدع لإفساد العقيدة ، أو لإيقاع الخلاف بين علماء الأمة وعبّادها .

ومن جهة أخرى قام علماء الدنيا الذين يسيرون فى مواكب الملوك الظالمين، يحدون لهم ويصفقون ، قام أولئك العلماء يزينون للسلاطين أعمالهم ، ويضفون عليها صبغة شرعية ، ويخففون عليهم ضغط النقد العنيف الذى يوجهه إليهم العلماء المؤمنون ..

وعندما بدأ هذا الانحراف فى التيار الدينى ، والعلمى ، والفكرى ، وقف علماء الإسلام المخلصون ، يقاومون هذا التيار المنحرف ، الذى يرد عليهم فى صور مختلفة ، ودافعوا فى عزم وإصرار، ليحافظوا على صفاء الإسلام فى أحكام الشريعة وأحكام الدين على السواء ، وقد اتخذ هذا الدفاع موقفين متساندين ، أحدهما علاجى ، والثانى وقائى :

● أما الموقف العلاجى : فقد كان هؤلاء العلماء الذين وقفوا أنفسهم للدفاع عن صفاء الإسلام ، فى دينه ، وشريعته ، يتصدون للأباطيل التى يروجها أعداء الإسلام فيهدمونها ، ثم يبينون الحق الذى يجب أن تسير عليه القافلة المؤمنة فى ركب الحياة ، وهى تحذر الوقوع فى شراك يبثها الحاسدون من أرباب ديانات سابقة أبطلها الإسلام ، وبدع ينشرها منحرفون عن القصد يتصيدون بها الزعامة ، وأضاليل ينعق بها علماء دنيا غلبتهم أنفسهم، واستولى عليهم الشيطان ؛ وزيغٌ عن مناهج الإسلام يحبذه الاستعمار وأعوانه ، ليشغلوا به شباب هذه الأمة بالمتعة المحرمة ، عن الشهامة والشجاعة والمروءة ، والعزة ، تلك الأخلاق التى تربأ بالرجل أن ينحدر عن دينه أو مبدئه مهما كانت الأسباب والدوافع .

ولقد استمرت هذه المعركة حامية الوطيس منذ بدأت — ولا تزال مستمرة ، فإن أعوان الشيطان من عمال صهيونية كائدة ، وصليبية حاقدة ، واستعمار نهم لا يشبع ، ثم من مسلمين مفتونين ، غرَّهم سراب براق فى الحياة المادية التى يحيا عليها الغرب اليوم ، وقد تجرد من جميع المثل ليعيش للمتعة كما يعيش الحيوان ..

هذه القوى وغيرها لا تزال متضافرة الجهود ، تحارب الإسلام فى عدله ونزاهته وسموه ، ولا يزال علماء الإسلام يواصلون دفاعهم لهذه الجهود الكافرة المتضافرة التى تحاول أن تحطم الإنسانية فى الإنسان ، لتترك منه حيواناً فاقد الحياء ، يعيش بغريزته ، ويتعامل على أساسها فى قيم الحياة الأولى ، وإلى أن يأذن الله بنصر الحق ، ويقضى بنهاية هذا التمرد على حكمة الخالق وحكمه ؛ سوف تستمر هذه المعركة دائبة حادة .

● وأما الموقف الثانى وهو الموقف الوقائى ، فقد تضافرت عليه جهود العلماء الأعلام من الأمة ، وذاك بالتربية الصحيحة ، والتعليم الحق ، والكشف عن

مزايا الإسلام ، وفى هذا الموقف كان المخلصون من الأمة يعملون جاهدين ، وبما لديهم من قوى فى إنشاء المدارس ، وبث الوعى الدينى فى الأمة ، ونشر الثقافة الصحيحة بين جميع الطبقات ، وإرساخ قواعد الإسلام وحُكمه وأخلاقه ونظمه للحياة والمجتمع ، فى قلوب الناس ، وفى أعمالهم ومعاملاتهم ، فهم كانوا حراصا على أن يغرسوا الفضيلة بمعانيها الواسعة . فضيلة الخلق، وفضيلة الدين، فى قلوب الناس، قبل أن تحتل القلوب آراء أخرى بعيدة عن الإسلام ، أو بعيدة عن الخلق . وفى غرس الفضيلة فى القلوب الغضة الطرية — حتى تصبح عقيدة أو خلقا — وقاية للنفس من أن تتسرب إليها أمراض أخرى والقيام بهذا العمل فى الشباب الذى يقبل على التعليم قد يكون أمراً ميسوراً ، أما أولئك الذين حرموا نعمة التعليم ، وأجبرتهم ظروف الحياة والعمل على أن يرودوا معاهد المعرفة ، كان هؤلاء الطبقة من الناس تكون مشكلة بالنظر إلى العلماء والمصلحين ، ولذلك فقد جعلوا من همهم أن يقوموا بدروس الوعظ والإرشاد فى مستوى هذه الطبقة ، حتى يثقفوا عقولها بالمعرفة ، ويملأوا قلوبها بالإيمان ، ويشغلوا أوقاتها بالعمل .

وكانت وقاية للشباب من أن يلقنوا الخطأ ، ووقاية للناس من أن يستغفلهم المستغفلون .

كان القيام بهذه المهمة فيه عسر وفيه مشقة ، وقد تتطلب معالجة هذه الحالة من العالم المصلح أن يكون متحركا ، لا يقيم فى مكان ، وقد كانوا يحاربون عدوان البدعة أو الضلالة أو الجهل ، كما يحاربون العدو الذى يحمل آلات الخراب والتدمير ، فيركزون دروسهم فى محل ما ، حتى يطمئنوا إلى أنهم قد حقنوا تلك النواحى بالمصل الواقى ، وأصبحوا لا يخافون عليها ، فينتقلون إلى مكان آخر ، يقومون فيه بنفس العمل ، ويواصلون كفاحهم من

أجل سلامة العقائد والعقول ، كما كان يفعل أبو موسى عيسى الطرميسى ، وأبوساكن الشماخى ، وآلاف غيرهم من علماء الإسلام المخلصين فى كل فرقة ، وفى كل بلد من الوطن الإسلامى الفسيح .

وفى هذا القسم من الوطن الإسلامى الكبير ، وعند هذا الجزء الصغير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقف علماء الإباضية كما وقف غيرهم من العلماء والأعلام منذ انتشر الإسلام فى هذه البقاع ، يدافعون عن صفاء الإسلام ، منهم من يتصدى للدفاع فى الموقف العلاجى فيدافع البدعة ، ويرد الضلالة ، ويحطم الباطل ، ويبطل كيد الكائدين ؛ ثم يدعو الناس إلى الاغتراف من النبع الصافى ، الذى جاء به دين الله . ومنهم من يتصدى للدفاع فى الموقف الوقائى ، فينشىء المدارس ويضع لها المناهج حسب وصايا الإسلام ، ويتولى الإشراف عليها ، وتربية الأجيال المتخرجة منها . ثم يواصل هذا الكفاح الوقائى ، فيلقى دروس التوجيه العام ، فينير سبيل الله للسالكين ، ويملأ قلوبهم بالفضائل التى دعا إليها خاتم النبيين وسيد المرسلين . وفى الفصول الآتية سوف أعرض صوراً من هذا الكفاح الطويل . . . الكفاح العلمى ، ضد الجهل وضد البدعة ، وضد الضلالة وضد الخرافة ، وضد الدسيسة التى جاءت قديما عن طريق الديانات التى أبطلها الإسلام ، وتجىء اليوم عن طريق الاستعمار والصهيونية ، يقوم بهذا الكفاح أبطال وهبوا أنفسهم بما تملك من قوى لخدمة الأمة وإعلاء كلمة الله .

وأنا فى هذه الصور التى سوف أعرضها على القارىء الكريم فى سير أبطال من أعلام الإسلام لا أزعم أن هذا الشرف مقصور على هؤلاء الناس الذين تحدثت عنهم ، أو ذكرت أسماءهم ، ولا أزعم أنه مقصور على هذه

الفرقة من فرق المسلمين الكثيرة التى تجهد كل واحدة منها أن تنال رضا الله ، وتظفر بمحبته ومغفرته .

وإنما ضربت بهؤلاء المثل ، وأنا أعلم أن الأمة الإسلامية ، وأن الوطن الإسلامى ، غنى بأمثال هؤلاء العمالقة ، الذين يكافحون بصمت أو بإعلان ، ولن يضير جهادهم استعلان الباطل فى بعض الأمكنة أو بعض الأزمنة ، ورجحان كفة الشيطان فى بعض فترات التاريخ ، فإنهم ونحن معهم على يقين بأن كلمة الله سوف تكون هى العليا وأنه سوف يذوب كل ما يرجف به المبطلون ، ويزعمه المغرورون . . . .

# أبو الزاجر (١)
# إسماعيل بن درار الغدامسي

اجتمع عند أبي عبيدة في البصرة خمسة من أنجب الطلاب : أربعة منهم جاءوا من أماكن متفرقة في شمال أفريقيا ؛ أما الخامس فكان عربيًّا من اليمن ؛ أما السبب الذي جمع هؤلاء الطلاب عند أبي عبيدة فهو طلب العلم عند إمام من أئمة المسلمين ، يملك إلى غزارة العلم روحاً قوية تقاوم الظلم والطغيان والانحراف ، وتوثقت الصلة بينهم ، وتمتنت الصداقة ، وأمضوا في ذلك المعهد العامر خمس سنوات من الدراسة والتحصيل ، فلما أتموا دراستهم ، فكروا في السفر إلى المغرب كتلة واحدة . واستشاروا شيخهم في رأيهم هذا فوافقهم عليه ، ونسي أولئك الأعلام مساقط رءوسهم ، وملاعب صباهم ، ومواطن أقربائهم ، ولم يذكروا إلا أنهم مسلمون ، وأينما كانوا في بلاد الإسلام فهم في وطنهم ، وبين إخوانهم وعشيرتهم ، وهكذا آخى الإسلام في معهد أبي عبيدة بين بربر وعرب وفرس ، كما آخى الإسلام من قبل في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين روم وفرس وحبش وعرب ، والإسلام لا يعرف الأجناس ولا العناصر ، إنه يصهر كل ذلك في بوتقة واحدة ، يخرج منها أمة لا فرق بين أفرادها إلا في مدى ما يقدمه كل واحد منهم من بر وخير ...

سمى هؤلاء الطلاب الذين أصبحوا علماء أجلاء : « حملة العلم إلى المغرب » وقدموا إلى ليبيا ، واتخذوا طرابلس مقراً لهم ، واشتغل بعضهم بالكفاح

---

(١) عده أبو زكرياء في الطبقة الرابعة : فهو من علماء النصف الثاني للقرن الثاني على هذا الاعتبار . وقد علمنا أنه أخذ العلم عن أبي عبيدة في العشرة الرابعة من القرن الثاني

السياسى فى محاربة الطغيان والظلم، واشتغل البعض الآخر بالكفاح العلمى فى قسميه : الوقائى والعلاجى ، وقد تحدثنا فى فصول سابقة عن الإمام أبى الخطاب ، وسوف يأتى الحديث عن أبى عاصم السدراتى ، وأبى داود القبلى، فى إحدى حلقات هذا الكتاب تحت عنوان الإباضية فى تونس ، وسيأتى الحديث عن عبد الرحمن ابن رستم فى حلقة أخرى من هـذا الكتاب عنوانها : الإباضية فى الجزائر .

بقى لنا من حملة العلم الخمسة : القاضى العادل العالم . أبو الزاجر اسماعيل بن درار الغدامسى .

قمة شامخة من قمم العلم والفهم والذكاء . ومثل سام من أمثلة الإخلاص والنزاهة والصفاء ، وحجة من حجج الله على البشرية ، يدعو إلى الحق ، لايبالى رضى الناس أم سخطوا ، ويقيم العدل بين الناس ، أحبوا ذلك أم كرهوا ، ويسير على ما سار عليه علماء الإسلام المهتدون ...

كان عضواً بارزاً فى البعثة التى ذهبت إلى البصرة ، ودرس على الإمام أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة . وتحمل مع أستاذه وزملائه كثيراً من الأذى والاضطهاد الذى لاقاه الأئمة المرشدون ، والعلماء المصلحون ؛ من الولاة والظلمة والملوك البغاة .

ولما بلغ حملة العلم غايتهم من العلم ، وقرروا السفر إلى المغرب ، خرج الإمام أبو عبيدة لوداعهم . ولم يرد الطالب النجيب أن تمضى هذه الفترة القصيرة التى سايرهم فيها أستاذهم فى حديث عادى دون جدوى ، وأراد أن يستغل حتى هذه الدقائق الأخيرة قبل فراقهم لذلك البحر الذى لا ينضب ، فكان يوجه إليه فى لباقة أسئلة ، وكان الإمام العالم يجيب ، ولم يقطع المسافة التى قرر أن يرجع منها حتى كان ابن درار قد وجه إلى أستاذه ثلاثمائة سؤال ، فى مشاكل الأحكام .

وعجب الإمام الكبير من طالبه الذكى، ومن حرصه على الاستفادة أو على الاستيثاق من معلوماته ، ومن استحضاره لهذه المشاكل فى لحظات الفراق التى تتغلب فيها المشاعر الحساسة ، والعواطف الجياشة على التفكير العقلى المتزن ، ولما أتم الطالب النجيب أسئلته ، وهم الإمام بالرجوع ، رفع عينيه إلى تلميذه وهو يبتسم ابتسامة الوالد الحنون ، وقد سر من ولده وقال : كأنك تريد أن تكون قاضيا يا ابن درار ؟ . فأجاب الطالب : أرأيت أن ابتليت بذلك ياشيخ . ؟

إن هذه الحادثة البسيطة كافية للدلالة على علم الرجل، وعلى خلقه ، وعلى دينه .

ما رأيك أيها القارىء الكريم فى رجل يتكبد الرحلة من الجنوب الليبى إلى البصرة فى العراق . ويقضى خمسة أعوام تحت عذاب الغربة والحاجة والاضطهاد ، ليطلب العلم و ينال الأمنية الغالية، بعد أن استنزف ماء شبابه وأذبل زهرة حياته ، ويعزم على الرجوع إلى بلده ومفارقة معهد دراسته ، ليحيا الحياة العادية التى يحياها الناس ، فيسأله استاذه ممازحا : هل يريد أن يكون قاضيا ؟ ويجيب الفتى : أنه يعد العدة ، فقد تنزل عليه هذه البلية .

إنها مصيبة يجدر بالمرء الكريم أن يفر منها ، ولكنه فى نفس الوقت يجب أن يكون مستعدا لتحملها، والقيام بأعبائها ، حتى إذا قدر وأصيب بها، استطاع أن ينهض بهذا الحمل الثقيل ... إنه لا يرى فى منصب القضاء أو فى أى منصب آخر من مناصب الحكم ، ذلك الوجه البراق الذى يسعى إليه عبيد الدنيا ، وطلاب الجاه الزائل ، والسلطان الخادع ، ولكنه يرى فيه ذلك الوجه المعتم الذى يجب أن يتحمله المسلم ؛ خدمة لدينه وأمته ، وهو عليم أنه لن يجد منه مكسبا دنيويا ، أو مغنما ماديا ، فاذا قدر فى نفسه أو فى عمله أنه سوف يغنم منه لدنياه ، فقد حاد عن طريق الصواب ، وتغلغل فى الضلال . . .

ولذلك لم يفزع إلى شيخه يطلب منه الدعاء لتحقيق هذا الأمل. و إنما أجابه فى خوف ورهبة : أنه يعد نفسه لتحمل المكاره ، حتى لا ينوء تحت ثقلها .

وقد كان من إرادة الله ، أن تحققت نبوءة الإمام ، ونزلت عليه هذه البلية ، التى أعد العدة لتحملها ؛ فتولى القضاء للإمام أبى الخطاب عبد الأعلى ، وقام بهذه الوظيفة كما يقوم بها مؤمن يعرف دين الله ، ويفهم أسرار الشريعة ، ويخاف الله فى مال الله وعباده ، فيتحرى الحق ، ويجرى العدل ، ويتبع السير القويم الذى خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

كان العلامة ابن درار يعلم أن عمله الحقيقى ، ليس هو تولى أى منصب فى الحكومة ، إن الرسالة المقدسة التى ذهب من أجلها إلى البصرة ، وبقى فى ديار الغربة خمس سنوات ، لاقى فيها من شظف العيش ، وظلم الجبابرة الشىء الكثير ؛ هذه الرسالة تستدعى منه أن يتخذ من إمامه أبى عبيدة قدوة ومثالا : إن عمله الحقيقى الذى يجب أن يتولاه ، وأن يسهر من أجله ، وأن يبذل فيه كل ما لديه من طاقة وجهد ، إنما هو التعليم ، هو تبليغ رسالة الله إلى الناس ، كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، وتنوير قلوبهم وعقولهم بنور الإسلام ، ولذلك فقد كون مدرسته العتيدة : مدرسة الفكرة ، ومدرسة الحلقة ، وأعطى لأمته من نفسه ومن وقته الشىء الكثير .

فكان منبعاً صافياً ، يرده العطاش من كل جهة من بلاد الإسلام ، وأدى هذه الرسالة ، رسالة التعليم ، والثقافة فى إيمان وإخلاص ، وحرص وصدق ، كما أداها شيخه وأستاذه أبو عبيدة . . .

وحسبه شرفاً أنه كون عقلية مثل عقلية محمد بن يانس وزملائه ، الذين يندر أن يجود الزمان بمثلهم ؛ اتساع ثقافة ، ومتانة خلق ، وصحة عقيدة ، واتصال كفاح لله ، وفى الله .

إنه أحد أولئك الأعلام الذين كافحوا الانحراف عن دين الله بالطريقة الوقائية والعلاجية ، وإن كانت آثاره فى الميدان الأول أكثر وأظهر . . .

# أبو المنيب (١)
# محمد بن يانس

هو أبو المنيب محمد بن يانس الدَّرْكلي : قال فيه صاحب السير : « المجاهد لنفسه ، المطيع لربه ، ذو المناقب الشهيرة ، والمآثر الكريمة . » ولكن هل تكفى هذه الجمل القصيرة للدلالة على هذه الشخصية الفريدة ؟ . .

إنها شهادة من أبى العباس ، لها قيمتها ؛ فأبو العباس من أولئك الثقاة الذين يزنون كلامهم بالميزان الدقيق ، ويحملون الجمل القصيرة من المعانى ما يحتاج إلى صفحات كثيرة من غيرهم .

ولكن ما أثر ابن يانس فى المجتمع وفى الحياة ؟ وما مبلغ دينه وأمانته وخلقه وعلمه ؟ . . .

طلب الإمام عبد الوهاب فى تاهِرْت ، من جبل نفوسة مائة عالم من علماء التفسير لمناظرة المعتزلة .

والمعتزلة قوم ولعوا بالمناظرة والجدل ، فهم لا ينفكون عن تحدى غيرهم من الفرق الإسلامية . وكان الإباضية على عكس هؤلاء ، ولعوا بالعمل بما جاء به الدين الحنيف ، ولا يلجأون إلى الجدل إلا إذا اقتضت الحال ذلك ، أو وقع عليهم التحدى .

وعندما طلب من أهل الجبل هذا العدد الوفير من علماء التفسير ، كان

---

(١) ذكره أبو زكرياء فى الطبقة الرابعة فهو من علماء النصف الثانى للقرن الثانى .

الجبل غاصاً بالعلماء ، ولكن المشائخ تشاوروا فى الموضوع ! لماذا يرسلون هذا العدد الوفير ؟ ألا يجدون هذا العملاق الذى يقوم مقام مائة بين هؤلاء الأعلام ؟

وقرروا أن يختاروا من بينهم واحداً يقوم مقام مائة . واستعرضوا الأسماء ، فاجتمع رأيهم على اختيار أبى المنيب ، للقيام بهذه المهمة . . . ولما أبلغوه اختيارهم لم يرهب الموقف ، وهو يعلم ما للمعتزلة من صولة فى الجدال .

ولم يتهيب التعب وبعد المسافة بين ليبيا وغرب الجزائر . ولم يطلب من القوم أن يجعلوا له مساعداً يذكره إذا نسى ، وينبهه إذا غفل . لقد قبل المهمة دون نقاش ، واستعد للسفر فى هدوء واطمئنان ، كأنما يسافر للتجارة إلى سوق حرة فى بلد مفتوح .

إن القارىء وهو يدرس التاريخ ، ويستعرض هذه الحوادث ، لتأخذه الحيرة فى أيهما أعظم ؟

هذا الشعب الذى يجمع على الثقة الكاملة فى شخص واحد ، ويتفق على اختياره ليقوم مقام مائة من المناضلين ؛ ومن سوف يناضل هذا الرجل الوحيد الذى تضع الأمة ثقتها فيـه ، ثم ترسله آلاف الأميـال ليقف أمام التحدى ؟ . . .

إنه سوف يناضل المعتزلة ، أبطال المناظرة ، وفرسان الجدال فى الأمة الإسلامية كلها .

أم هذا الرجل الذى يتقبل ثقة الأمة فيه ، ويستعد لخوض هذه المعركة التى يجهل فيها إمكانيات الخصم كل الجهل . وإنما يعرف نفسه وما أعده لهذا

النزال ، لا فى هذه الفترة القصيرة التى طلب منه فيها أن يمثل أمة ، وإنما منذ كان يغدو ويروح على ابن درار يغترف من ذلك النبع الفياض ؟

ويتأهب المفسر العظيم للكتاب الكريم للسفر ، ويجتمع برفاقه الثلاثة الذين اختيروا بمثل هذه الطريقة لمثل هذه المهام ، وليس مع هذا الوفد لجنة لنشر الدعاية ، ولا آلة لتصوير المناظر ، ولا خدم لتوفير الراحة ، ولا حاشية لإظهار العظمة والهيبة .

ولم يزوَّدوا بأموال للنفقة ، ولم تحسب لهم علاوة للمبيت ، ولم تفتح بين أيديهم خزائن الدولة .

لقد طلب إليهم أن يقوموا بمهمتهم ، وليس لهم إلا ما تفيض به رحمة الله . . .

وودعهم إخوانهم الذين وثقوا بهم ، واختاروهم من بين آلاف العلماء يزخر بهم الوطن الليبى فى ذلك الحين ، ولم يزودوهم بشىء غير دعوات صالحة من قلوب مؤمنة . . .

وعندما انفصل الموكب عن المدعوين ، طلب إليهم أبو المنيب أن يسمحوا له بخدمتهم أثناء هذه الرحلة الطويلة — ولم يكن أبوا المنيب أصغرهم سناً — فسمح له الرفاق الثلاثة بذلك . فأضاف إلى عمله مهمة أخرى شاقة فى سفر طويل . . .

عندما ينزل الرفاق للمبيت ، يبادر أبو المنيب فيعلف الخيل ، ثم يجمع الحطب ، ويهيىء العشاء ، فإذا اطمأن إلى راحة رفاقه ، وانتهوا من صلاة العشاء ، وأوى الزملاء إلى مضاجعهم ، قام هو فاستقبل القبلة ، وبدأ الصلاة مستفتحاً بالبقرة ، فلا يقبل الفجر حتى يكون قد ختم القرآن الكريم ،

فيصلى مع رفاقه صلاة الفجر ويعد لهم ما تيسر من فطور ، ثم يواصلون الرحلة .

وبعد أيام كان أبو المنيب يشتغل بإحدى المهام ، وكان الرفاق الثلاثة يتناقشون فيما بينهم عن زميلهم هذا ، ولما رجع إليهم قالوا له : إما أن تترك خدمتنا وإما أن تترك هذه الصلاة فى الليل ، فقال : أما خدمتكم فلا سبيل لتركها ، وأما الصلاة : فأرجو أن تسمحوا لى بصلاة ركعتين فقط ، ونظر القوم بعضهم إلى بعض وظنوا أن صلاة ركعتين أمر يسير لا بأس به ، فوافقوه على هذا الالتماس . وعندما جاء موعد صلاته قام فاستقبل القبلة واستفتح للصلاة بسورة البقرة ، واستمر يتلو كتاب الله حتى ختم سورة الكهف ، فأهوى للركعة الأولى ، واستفتح للركعة الثانية بسورة مريم وركع لها عندما ختم سورة الناس ، فما سلم حتى انبثق الفجر ، وقام مع زملائه لصلاة الفجر . وعند المساء وهم يتناولون العشاء الطيب البسيط الذى أعده لهم ، قالوا : ارجع إلى عادتك الأولى من الصلاة ، فإن فى الركوع والسجود بعض الراحة(١) .

نظر إليه أحد الزملاء فى ظلام الليل — والرياح الجنوبية الهوج فى الصحراء تعبث بثيابه وهو قائم يناجى ربه فى صلاة خاشعة — فقال : إن كان لا يدخل الجنة إلا من كان مثلك يا ابن يانس فستصيبك فيها الوحشة .

وكان رحمه الله إلى هذا العلم الواسع ، والورع الذى بلغ النهاية ، حازماً قوياً فى دين الله ، لا يخشى صاحب سلطان ، ولا يسكت عن منكر يرتكب أمام عينيه ، مهما كان صاحبه ، ولا يدع الأمر بالمعروف .

---

(١) راجع الأزهار الرياضية : الجزء الثانى ص : ١١٩ .

كان بمصر فى تجارة له يبيع فيها زيتا ، ومر به أعوان السلطان يحملون شخصا وهو يستغيث . مربه وهو يقول : أنا بالله وبالسلطان ، فلم يشتغل به ، ثم سمعه يقول: أنا بالله و بأهل المروءة ، فلم يشتغل به . ثم سمعه يقول: أنا بالله و بالمسلمين ، فترك الزيت ووثب إلى الأعوان ، فخلص منهم الرجل ، ولما نجا الرجل ذهب مع الشرطة إلى السلطان ، فقال له السلطان : ما حملك على مافعلت قال العالم الورع القائم بدين الله : لم يسعنى فى دينى أن أتركه حين استغاث بالمسلمين . فالتفت السلطان إلى أعوانه وقال لهم : أبمثل هـذا تأتوننى ؟ . . لولا هذا ومن كان مثله لم تطلع علينا الشمس ، فبهم أمهلنا الله(١) ! . . ومر بإحدى القرى التونسية و كانت تحت حكم الأغالبة فى ذلك الحين، فوجد الشرطة يجرون أمرأة وهى تستغيث بالله و بالمسلمين،فطلب منهم أن يتركوها ، فلم يستجيبوا له . فجرد سيفه وخلص منهم المرأة ، وذهب معهم إلى صاحب السلطة ، فقال له ما حملك على مافعلت ؟ قال : لما سمعتها تستغيث بالله و بالمسلمين لم أتمالك نفسى ، ورأيت أننى لا أوفى بدينى إذا أنا لم أخلصها، فنظر إليه صاحب السلطة فى إمعان وتفرس ، ثم قال : تركناها لله وإيجابا لحقك(٢) .

كان بتاهرت عاصمة الإمامة ، فمر بمنزل الإمام عبدالوهاب — وكان على الباب متظلم ، والباب مغلق ، و المتظلم ينتظر، وقد بدا عليه السأم ، فأخذ الشيخ يضرب الباب بالحجارة ، ويشتم المدينة ومن فيها حتى خرج الإمام ولحيته تقطر ماء ، فاعتذر للشيخ بأنه كان فى الحمام ، ولما سكن الغضب عن الشيخ قال الإمام : لماذا هذا الغضب كله حتى شتمت أهل المدينة وأنا وأنت منهم ، فقال الشيخ الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر : إن لم نعمل بموجب الشرع فلا محيـــد لنا

(١) راجع السير: ص ١٦٧
(٢) راجع السير: ص ١٦٧

عنها(١) .. إنه لايحل لمن يتولى أمر المسلمين أن يتغافل عن شئونهم ، فاذ غفل ، وجب على المسلمين أن ينبهوه إلى ذلك ، فاذا لم يفعلوا ، استووا فى المعصية.

تأمل أيها القارىء الكريم هذه السيرة العطرة : سيرة الرعاة وسيرة الرعية وقدر عظمة هذا الإمام الذى يدين له بالطاعة ثلاثة أقطار كبرى ، تنبسط اليوم عليها ثلاث دول ، فيقف ببابه مؤمن من سائر المؤمنين يقذفه بالحجارة والشتائم لأنه تأخر فلم يفتح بابه دقائق معدودة ليسمع شكوى متظلم ، قد تكون صادقة وقد تكون كاذبة ، فلا يزيد هذا الإمام العظيم على أن يعتذر بأنه مشغول بعمل شرعى لا يجوز تأخيره لحظة .

وقدر عظمة هذا المؤمن ، الذى يرى رجلا يريد أن يرفع شكوى ، فلم يفتح له باب الأمير فيتضاءل أمام عينه هـذا الإمام الذى يمتد سلطانه من مصر إلى مراكش بما له من قوة ومركز لأنه لم يبادر إلى إنصاف المظلوم ، وإعطاء الحق لصاحبه ، واشتغل عنه بأمر خاص له ، ثم يهجم على الباب يكاد يحطمه ، وعلى الإمام يسمعه قوارص العذل واللوم .

وقارن أيها القارىء الكريم هـذه الحالة بصور مؤلمة تجد فيها الآلاف من الناس تضيع حقوقهم ، وهم يتزاحمون على أبواب المصالح ، ومداخل الإدارات ، ودور القضاء .

لأن هذه الحقوق وضعت فى أيدى أقزام مهازيل ، ليس لهم من الخلق أو الدين أو الشهامة ما يحملهم على فصل تلك المشاكل ، وإراحة الناس من هـذا النصب المتواصل .

---

(١) راجع السير : ص ١٦٨ .

وعندما يجد المسلمون رجالا من الشعب لايخافون فى الله لومة لائم ، ولايرهبون فى الحق سطوة حاكم، وعندما يجد المسلمون حكاما يقدرون المسئولية التى تحملوها للأمة ، ويخضعون لسلطان الحق ، ، ولو تعلق هذا الحق بذواتهم ، ويسارعون إلى تصريف الأعمال التى انيطت بهم فى أسرع وقت . . . عندما يجد المسلمون هذا الفرد من الشعب ، وهـذا الفرد من ولاة الأمر ؛ حينئذ يعود إلى الأمة المسلمة مافقدته من عزة ، ويحقق الله لهم ماوعدهم به ، فيـكونون خير أمة أخرجت للناس ؛ لأنهم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنـكر، ويؤمنون بالله ؛ فلايحسبون لغيره حسابا .

وإلى هذه القوة فى دين الله ، والشدة فى حقوق الناس ، كان رحمه الله جم التواضع ، سمح النفس ، كريم الخلق ؛ ولعل قيامه بخدمة زملائه أثناء رحلته الطويلة إحدى الشواهد على التواضع وكرم النفس ، وسماحة الخلق .

أدَّب يوماً ثلاثة من الجناة ، فغضبوا من إقامة الحق عليهم ، فدخلوا عليه منزله ليلا ، وضربوه ضربا مبرحاً حتى أضعفوه ، فلم يطق إتيان المسجد. وتخلف العالم المؤمن لأول مرة عن صلاة الجماعة وهو حاضر فى البلد ، وعرف المسلمون الذين يعرفون الشيخ أنه لم يحبسه عن المسجد إلا أمر كبير ، فزاروه فى بيته ، وسألوه عن أمره ، فأخبرهم بما فعل به ، وعندما تحدثوا فى وجوب معاقبة الجناة عن هذا الجرم الفظيع ، منعهم من ذلك ، وتنازل عن حقه خوفا من أن يكون انتصف لنفسه ، فترك القوم الذين اعتدوا عليه فى عقر داره فذهبوا طلقاء — ولو أن عدل الله لم يمهلهم — فنالوا جزاءهم على غير يد هذا المسلم القوى فى أمر الله ، الضعيف فى أمر نفسه .

وكان إلى هـذا الدين القويم والخلق الـكريم كثير العبادة ، ولعل صلاته فى رحلته الطويلة تـكون إحدى الشواهد على حبه للعبادة ، والاتصال بربه .

يذهب إلى « الجزيرة » وهى قرية على قمة شامخة فى الجبل ، ضاربة فى الهواء معزولة عن بقية الجبل بخندق عميق، فيعتزل هنالك للعبادة أياماً طويلة ، ومكث مرة بهذه الجزيرة أربعين يوما ، وكان لم يأخذ معه زاداً ولا طعاما ، فذهبت إليه زوجته لتتفقده ، وترى حاله، فوجدته مشرق الوجه ، يترقرق الدم فى وجنتيه ، وتبدو العافية على مخايله ، وعندما وصل وقت الأكل ، مال إلى أعشاب الأرض يأكل منها حتى اكتفى، فقالت له الزوجة المحبة : أبهذا عشت طول هذه المدة ؟ فأجاب الشيخ الزاهد العابد قائلا :

« نقى قلبك . وافتحى يديك، وأغلقى فاك يجعل لك الله كل عود طعاما! » (١)

إنه أحد أولئك الناس الذين يندر وجودهم فى التاريخ ، لقد عاش حياة حافلة بالعمل الصالح ! العمل الصالح لنفسه ، والعمل الصالح لأمته ، والعمل الصالح لدولته ، وحسبك أن تعرف أنه قسم حياته أربعة أقسام: سنة يقوم فيها بالتجارة ليكسب ماينفقه من الرزق الحلال فى مدى ثلاث سنوات ، ويزور فيها الإخوان المنتشرين مابين المغرب ومصر ، فقد يذهب بتجارته إلى مصر ، وقد يذهب منها إلى الجزائر ، وفى هذه الزيارات يغشى المجامع العلمية ، ويؤم المساجد ، يلقى دروس الوعظ والإرشاد ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحارب البدع التى يبثها أدعياء العلم والظلم الذى يرتكبه أصحاب الحكم .. ويَقْبَس ويقتبس الهدى والصلاح : ويرتحل فى السنة الأخرى إلى غدامس ، فيقيم عند أستاذه العلامة ابن درار الغدامسى ؛ يزداد علما ويواصل دراسته بعزيمة لاتعرف الخور أو الضعف ، ويقيم سنة فى مشاهد الجبل ، منقطعا لعبادة ربه ، خالصاً لمحاسبة نفسه ، مبتعداً عن شئون الدنيا والناس : أما فى السنة الرابعة ، فيستعد فيها لزيارة البقاع المقدسة ، والاقتباس من روح الإيمان والطهر التى خلفها محمد صلى الله

(١) راجع السير : ١٦٩

عليه وسلم فى منازل الوحى ، ومنشأ الإسلام .. ولم يخرق هذا النظام الذى وضعه لنفسه منذ وضعه حتى لحق بربه .

لم يبق لنا من حديث على هذا الرجل العظيم إلا إشارة عابرة إلى كفاحه فى الميدان العلمى . ورغم هـذا الترتيب الذى وضعه لحياته ، والذى كان يكثر فيه من الغياب ؛ استطاع أن يكون طبقة ممتازة من الطلاب حملوا مشعل الثقافة والمعرفة من بعده ، وكان يشرف الواحد منهم أن يقال فيه : أخذ العلم عن ابن يانس ، أما النقطة الثانيـة ، وهى مفهومة من سياق الحديث فكفاحه القوى العنيف للانحرافات التى ترد على أيدى المبتـــــدعين كما فعل مع المعتزلة ، أو الانحرافات العملية التى تأتى عن طريق الحكام كما فعل فى مصر وتونس والجزائر : فهو أحد أولئك العلماء الأعلام ، الذين كافحوا الانحراف عن دين الله بالطريقتين الوقائية والعلاجية ، وإن كانت آثاره فى الميدان العلاجى أوفر وأظهر .

# مهدي النفوسي الويغوي (1)

بطل من الأبطال الأربعة ، الذين وثقت بهم الأمة ، فاختارتهم للقيام بمهام طلب لها أربعمائة .

وأسند إلى هذا البطل العملاق مهمة مائة عالم من علماء الكلام ، ثم طلب إليه أن يرتحل من « ويغـو » — هذه القرية التى لا تزال أطلالها شاهدة على عظمتها فى ظاهر الحرابة — إلى تاهرت للمناظرة والجدال ... جدال المعتزلة : أتباع واصل بن عطاء ، أولئك الناس الذين حذقوا فن الجدال و برعوا فيه ، و بزوا فيه الأقران ، ولا سيا حين يكون موضوع المناظرة والجدال متعلقاً بعلم الكلام والفلسفة الإلهية .

حتى كان علماء غيرهم من الفرق يتحاشون التصادم معهم ، ويخشون الاشتباك بهم .

ولما اتفق رأى المشائخ على إسناد هذه المهمة . . مهمة مناظرة المعتزلة فى قضايا التوحيد وعلم الكلام إلى الشيخ مهدى الويغوى ، وأخبروه بما اتفقوا عليه ، تقبله برضاً واستبشار ، واستعد للقيام بالمهمة الملقاة على عاتقه ، وأخذ زاده وفرسه واتجـه مع الرفاق الثلاثة إلى تاهرت ، إلى حيث ينتظر فرسان الكلام . . .

و بلغ الشيخ العالم المتكلم عاصمة الإمامة فى الجزائر . وعرف الإمام أنه

(1) من علماء النصف الثانى للقرن الثانى : قتل على شاطىء البحر سنة ١٩٦ ، راجع الأزهار — ص ١٢٣ و ص ١٤٤

الرجل الذى اختارته أمته ليقوم مقام مائة من علماء الـكلام ، ليرد على أصحاب البدع والأهواء بدعهم وضلالاتهم .

وكان الإمام عبد الوهاب من أفذاذ العلماء فى كل فروع الثقافة لذلك العصر ، وكثيراً ما يتعرض لتحدى المعتزلة ولددهم فى الخصومة ، فيناقشهم ويناقشونه ، وقد يضيق الخناق على أحدهم بحجة باهرة ، وقد يضيق عليه أحدهم الخناق بشبهة خفية . . فلما اجتمع مع العلامة النفوسى ، طرح عليه مواضيع النقاش ، وعرض عليه الأسئلة والأجوبة التى كان يتلقاها من المعتزلة أو يرد بها عليهم ، وكان العلامة النفوسى الويغوى لا يلبث أن يقول للإمام : هنا سفسط المعتزلى وهنا زاغ منك ، وهكذا كان يضع يده على نقط الضعف عند الإمام ، أو عند المعتزلى .

وبعد هذا العرض ، اطمأن الإمام ووثق بصاحبه ، وضمن لنفسه النصر فى هذه المعركة الـكلامية الحامية الوطيس .

خرج العلامة الويغوى يوماً ، ولم يرجع إلا بعد هون من الليل ، فسأله الإمام وأصحابه عن سبب هذا التأخر ، فقال لهم : لقد اجتمعت اليوم بتسعين عالماً من علماء المعتزلة ، وفتحوا معى أبواب الجدال ، فأفحمهم الله جميعاً ، وأوضح الحق ونصره . وأخبروه أن عشاءه موضوع فى حجرة مجاورة ، ودخل الحجرة التى وضع فيها العشاء ، ووجد إناء مغطى ، فنزع عنه الغطاء ، ووضع يده باسم الله ، فوجد طعاماً أكل منه حتى اكتفى ، ثم قال لهم : يظهر أن عشاءكم لم ينضج . فضحك القوم لأن ما حسبه الشيخ الويغوى عشاء غير ناضج لم يكن فى الواقع غير عجين أعد ليتخذ منه الخبز لفطور الصباح ، أما عشاء الشيخ فقد بقى فى زاوية أخرى من البيت لم يهتد إليها . ورد على ضحكهم قائلا :

إنى أحمد الله تعالى على ثلاث : أقضى بقليل من النوم غرضى،وأى طعام أسد به جوعتى ، ولا أخشى مخالفاً يدحض حجتى (١)

وإنه لمن نافلة القول أن أقص حكاية التاريخ ، وأصف للقارىء الكريم موقف هذا الشيخ مع مشاغبى المعتزلة ، وطريقته فى إلزامهم الحجة ، وإبطال ما لبسوا به من الشبه ، فإن الباطل لا يصمد للحق إلا قليلا ، على أن مظهر الانتصار أو عدم الانتصار فى الجدل لا قيمة له فى نظر المؤمن المخلص ، إن الانتصار فى الجدال مظهر من المظاهر التى يفرح لها طلاب الزهو والفخفخة ، أما أصحاب الحقيقة ، أصحاب الإيمان والعلم ، فإنما يسرهم منها نتائجها إذا اهتدى بها قوم فرجعوا إلى الصواب بعد أن تخطفتهم مهاوى الضلال .

أما القيمة الشخصية للرجل فهى فى ذلك الثوب الفضفاض من العلم والإيمان والتقوى ، الذى يلازم المرء فى جميع أحواله .

وأنا كما قلت فى بعض الفصول السابقة : إنما يهمنى فى هذه الحلقات أن أكشف عن الصور الرائعة من سيرة أبطال هذا المذهب الذى حورب من ناس لم يفهموا الإسلام ، ولم يعملوا به ، من ناس يسهل لديهم أن يصفوا أهل هذا المذهب بأنهم خوارج ، كما يسهل لديهم أن يعملوا عمل الخوارج ، وفى الحين الذى يعف فيه الإباضية العفة الكاملة يستحل أولئك الناس أموال المسلمين ودماءهم بالطريقة العملية ، فما سنحت لهم فرصة لابتزاز الأموال أو قتل الرجال إلا ارتكبوها ، وسواء كانت هذه الدماء أو الأموال لمخالفيهم فى المذهب ، أو فى الرأى، أو كانت لموافقيهم فيها .

---

(١) الازهار الرياضيه : ص ١٢٢

وإنك لتجد آلاف المواقف من هذا النوع، وإن شئت فارجع إلى التاريخ، فسوف تجد إخوة وأبناء إخوة يقتتلون من أجل المال أو السلطان، بل إنك لتجد أبناء يسرقون خزائن آبائهم، أو يقتلونهم، لأنهم يتعجلون الوصول إلى كراسى الحكم، إلى ما هنالك من أعمال يبرأ منها الإسلام، الإسلام الذى يحرم الدماء والأموال: [ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ] .

كنت أتحدث عن مهدى النَّفوسى لوِيغَوى: هذا الرجل الذى اختير ليقوم مقام مائة عالم لجدال المعتزلة. إنه إلى هذه الثقة التى حصل عليها من الأمة، وإلى هذا المقام الذى تبوأه فى قلب إمامه بعد ما عرف علمه وذكاءه وعبقريته، وإلى انتصاره المشهود فى مناظرة تكاد تكون حدثاً عالمياً فى ذلك الحين، إنه إلى كل ذلك متواضع كريم، سأله الإمام بعد أن امتلأ إعجاباً برجال الوفد فى علمهم وخلقهم وشجاعتهم حتى ظن أنه لا يوجد لهؤلاء الرجال مثال: هل تركتم فى الجبل من هو مثلكم، فأجاب العلامة المهدى: تركنا من هو خير منا، تركنا أبا عبيدة عبد الحميد الجناونى(١) . . .

وقد لمس الإمام صدق هذا الرجل وصراحته فيما بعد، حين زار جبل نفوسة، وأهمل بعض رفاقه دوابهم فأكلت من زرع الناس، فجاءه أبو عبيدة، الشيخ العالم الذى ليس له يد فى الحكم، وقابله بقوة الرجل الذى رأى منكراً فصمم على تغييره بقوة المؤمن المعتز بإيمانه، إنه لا يرى فى الإمام إلا إنساناً بشراً بسيطاً . . . ارتكب خطأ وجب عليه أن يرجع عنه . . . أما مهابة الإمام وعظمة السلطان، وحق الضيف، أما تلك الأشياء كلها، فلا قيمة لها فى نظر المؤمن القوى فى دين الله . . إن الحق أحق أن يتبع . . . وما الإمام

---

(١) راجع السير: ص ١٧١ .

إلا فرد من أفراد الأمة ، له مالها وعليه فوق ما عليها ، عليه عبء المسؤولية الملقاة على عاتقه ، ورعاية أمورها ، وتفقد شؤونها ، والسهر على مصالحها . . .

وتذكر الإمام العظيم بهذه المناسبة جواب الوفد فقال : صدقوا . لقد تركوا من هو مثلهم أو خير منهم . . .

عاش هذا العالم المؤمن فى كفاح مستمر ، يحارب البدع التى أخذت تنتشر بحقائق الإيمان ، ويناضل السفسطة الكلامية بقوة البرهان ، ويكافح الجهل بالتعليم الصحيح ، والتربية التى وضع أسسها الإسلام . . .

وعندما كان الإمام عبد الوهاب يحاصر طرابلس العاصمة وهى تحت حكم الأغالبة بسبب الفواحش التى ارتكبها جندهم ، كان مهدى النفوسى الويغوى من خيرة حملة السلاح للدفاع عن الحق . . . وذات يوم كان هذا العالم مستغرقاً فى مناجاة ربه ، منفرداً على ساحل البحر ، فعبر إليه جند الأغالبة وقتلوه واحتزوا رأسه ، ثم وضعوه على السور وهم يتضاحكون ويعبثون !! . . . رحم الله تلك النفس المؤمنة .

# أبو الحسن الأبدلاني [1]

أبو الحسن هو العضو الرابع من أعضاء الوفد الذى بعث إلى تاهرت . . . وثقت فيه الأمة فاختارته ليقوم مقام مائة فقيه لجدال المعتزلة فيما يتعلق بأصول الفقه ، وعلم الحلال والحرام . وإنها لمرتبة سامقة ، أن يحصل الإنسان على ثقة أمة كاملة ، وأن تختاره هـذه الأمة نفسها كى يقوم مقـام مائة من الأعلام ، الذين يُـدفعون إلى الميدان ، فيرفعون راية الحق ، ويذودون عن دين الله عدوان المبتدعين ، وعناد الباغين ، وقد حقق للأمة ثقتها فيه ، وقام بالعبء الذى ألقى عليه .

قال أبو العباس حين تحدث عن هذا العلامة العملاق . « كان واسطة العقد ، وإنسان العين : ، تعلم العلوم ، وعمل بموجبها ، وتحصن من الشيطان بزهد الدنيا ورفضها [2] » .

لقد تعلم أبو الحسن العلم ، كما شهد أبو العباس ، وتعلُّم العلم أمر ميسور لـكل طالب . ولـكن العمل بموجب العـلم هو الميـدان الذى تتفاوت فيه الأبطال ، وتقاس به معايير الرجال .

كان هذا العالم العامل — إلى ما يملك من غزارة المعرفة ، وانفساح الثقافة ، والعزوف عن أمر الدنيا ، ومجاهدة النفس . . بطلا من أبطال الميدان ، يثبت فى المعارك ثبات الطود ، ويناضل العدو نضال من يرى باب الجنة مفتوحاً أمامه ليس بينه وبين ولوجه إلا الاستشهاد فى حومة الوغى من تلك الموقعة .

---

(١) ذكره أبو زكرياء من علماء الطبقة الرابعة : فهو من علماء النصف الثانى للقرن الثانى

(٢) السير : ص ١٧٢ .

لما التقت جنود العباس بن أيوب — وكان أبو الحسن أحد الأبطال فيه — بجنود خلف فى « فاغيس » بين « تَغَرْمِين وجادو » . وكان جيش خلف كثيفا ، كثير العدد وافر العدة ، فجاء رجل من جيش العباس إلى أبي مرداس وقال له : إنى أخشى على جندنا من كثرة جند عدونا . فأجاب أبو مرداس العالم البطل : لا أخاف على عسكر فيه أبو الحسن الأبدلانى .

أى والله ! إنها شهادة من رجل يعرف قيم الرجال الصادقين ، ومواقفهم الثابتة عندما تزل الأقدام ، وتخف الأحلام . . ولكن الرجل لم يقنع بهذا الجواب ؛ إنه يرى بعينيه كثرة جيش العدو وضآلة جيشهم بالنسبة إليه .

وماذا عساها تغنى البطولة مع الكثرة ، وذهب إلى أبي الحسن الأبدلانى يعرض عليه مخاوفه ، ويقص عليه ما قصه على زميله أبي مرداس ، فإذا بجواب أبي الحسن يبعث على الدهشة والاستغراب ، قال أبو الحسن : لا أخاف على جيش فيه أبو مرداس ! !

وعجب الرجل من توافق الخواطر ، واتحاد المشاعر ، وأيقن أن جيشاً ضم بين صفوفه أبا الحسن الأبدلانى وأبا مرداس السدرانى لا يمكن أن ينهزم .

نعم إنه يكفى أن يكون فى الجيش بطل مثل أبي الحسن ، أو أبي مرداس فى ثقتهما بنصر الله ، وإيمانهما بالحق فيضمن النصر .

والتاريخ الإسلامى منذ بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم غزواته أمثلة رائعة للصورة التى ترسمها هذه القصة القصيرة . إن كثرة العدد لا تغنى فى الحرب ، وليست الأعداد ولا السواعد هى التى تفاضل إذا جد الجد ، ولكنه الإيمان

بعمق الرسالة ، والرغبة فى الحصول على الشهادة ، والحزم فى محاربة الظلم ، والصمود أمام جبروت العدوان ، هذه العقائد والمثل هى التى تقاتل الأعداء ، وتقهر .

ولن يصاب المسلمون من قلة ، ولـكنهم يصابون من ضعف العقيدة وسوء النية ، والثقة بغير الله ، وتفرق الـكلمة ، وابتغاء عرض الدنيا من حياة منعمة ليست حافلة بالخير ، ومال كثير لا يعرفون مصدره ، ولا يهتمون له ؛ ورغبة ملحة فى عمر طويل لا يزينه عمل صالح .

# أبو مرداس (١)
# معاصر السدراتي

بطل آخر من أولئك الأبطال الذين بلغوا من العلم درجة تتقاصر دونها مدارك الأقران ، على أن بلوغ درجة سامقة من العلم غاية يسيرة يستطيع أن يدركها كثير من الناس ، بشيء من الجد والمثابرة ؛ ولكن العسير أن يعرف الإنسان حقيقة هذا العلم ، وأن يعمل بما تدعو إليه تلك الحقيقة ، وأن يكون مخلصاً فى ذلك ، العمل وفى هذا الميدان تتعثر خطا أغلب الفرسان ، ولا يصمد إلا القليل ممن ملك زمام نفسه ، وغلب دواعى شهوته ، وأدرك أنه ما خلق إلا ليجتاز هذه المرحلة — مرحلة الحياة — فى سلام ، ولن يكون السلام إلا لمؤمن يستجيب لداعى الله ، ويحرص كل الحرص أن يكون سائراً على المخطط الذى وضعه خالق الإنسان ليمر معه الإنسان فى سلامة ، فإذا انحرف عنه إلى يمين أو يسار وقع فى مهاوٍ ليس لها قرار .

كان أبو مرداس من العلماء الذين فهموا أسرار شريعة الله ، واتضح لهم هذا التخطيط الذى وضعته إرادة الله لسلامة البشر ، فألزم نفسه السلوك فيه . وقصر أعماله على ما يدعو إليه دين الله ، فبه يعمل ، وبه يترك ؛ ثم هو لا يحسب لغير الله حساباً . . .

جند نفسه للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان يلطّف من عنف ذوى السلطان فى استخراج الحق ، ويقف لهم دون أن يصدر منهم باطل .

---

(١) ذكره أبو زكرياء فى الطبقة الرابعة : فهو من علماء النصف الثانى للقرن الثانى .

لا يبتعد عن مجالس الحكم خوفاً من أن يقع ظلم ، وكان أصحاب السلطان يعرفون منه هذا ، فكانوا لا يصدرون إلا عن رضاه .

لزم الإمام عبد الوهاب مدة بقائه فى ليبيا ، وضيق عليه ، وكان يحاسبه حساب المؤمن الحريص على دماء المسلمين وأموالهم ، ومع ما اشتهر به الإمام عبد الوهاب من العلم والعدل ، فقد كان يجد من أبى مرداس ناقداً لا يسكت ولا يلين حتى قال الإمام : « أحفظ أربعة وعشرين وجهاً تحل بها الدماء ، ولم يحفظ أبو مرداس إلا أربعة وشدد على فيها(١) » .

وهذه القصة على قصرها تبين لنا أن سلطان المؤمن العالم أقوى من سلطان المؤمن الحاكم ، فقد عرف الإمام الحاكم أربعة وعشرين وجهاً تحل بها الدماء ، ولكن أبا مرداس لايعترف بها ولا يقرها ، ولا يسمح للإمام بإجراء الأحكام على مقتضاها . ويستسلم الحاكم للعالم ، وكثيراً ما يجد منه معارضة عنيفة ، حتى فى هذه الوجوه التى يعرفها أبو مرداس .

قيل له : إن سبعين وجهاً تحل بها دماء الموحدين فسأل فى تحد : ما هى ، فعدوا له : أولا ، وثانياً ، وثالثاً ، فقال فى استنكار : من أين ؟! من أين ؟! ولم يتركهم يتجاوزون الوجه الثالث . . .

إن وظيفة العالم المؤمن فى المجتمع المسلم أن يقف بجانب الحاكم ليسدد خطاه ، ويوضح له طريق السير ، ولا يدع مباحث الفقهاء الفسيحة فى وجوه الأحكام تنفلت بسلطة الحاكم إلى سهولة التنفيذ . وهكذا كان أبو مرداس رحمه الله ، كان يقف موقف القوى الذى يكبح أوامر الحكام خوفاً من أن تجمح بها السلطة ، أو يجمح بها العلم ، ولعل قارئاً من القراء الكرام يقول : هذه السلطة قد تجمح بصاحبها فتخرج به عن الحق ، فكيف يجمح العلم ؟

---

(١) السير : ص ١٧٣

والجواب على هذا التساؤل واضح فى القصة الماضية لهذين الرجلين ، فإن معرفة الإمام لأربعة وعشرين وجهاً من الوجوه التى تحل بها دماء أهل القبلة ، يدل على اتساع فى العلم ؛ وإجراء الأحكام على هذه الأربعة والعشرين وجهاً قد يكون جموحاً من العلم ، ولذلك فقد كان أبو مرداس يكبح إرادة الإمام أن يجرى أحكامه على جميع الوجوه التى يعرفها . وأبو مرداس نفسه لا يجهل ما يعرفه الإمام من هذه الوجوه ، ولكنه لا يريد أن تراق دماء المسلمين على التماس الأوجه التى تحل بها الدماء خوفاً من طغيان السلطان . على أن هناك فروقاً دقيقة يلحظها المدققون من العلماء ، ولذلك فهم يعتبرون تلك الملاحظات كل اعتبار . وأبو مرداس حين يعترف بأن بعض الأوجه التى تحل بها الدماء فهو يعنى أن إراقة الدماء لإقامة الحدود التى أمر الله بها ، يجب على الإمام أن ينفذها ، ولكنه يجب أن لا يلتفت إلى تلك الوجوه التى تحل بها الدماء ، وليس فيها إقامة لحدود الله ، وليس فى تركها إخلال بدين الله .

وفى هذا المقام زلت الأقلام ، وجمح العلم بالحكام ، فكانوا يجدون من ضعاف العلماء فتاوى باستحلال الدم ، واستغلوا تلك الفتاوى أبشع استغلال ، فأضروا بالأمة ، وزرعوا فيها الفتنة ، وأشعلوا بين أفرادها وطوائفها نار البغضاء...

وإنه ليحق لك أيها القارىء الكريم أن تعجب بخلق الرجلين العظيمين ، هذا الرجل الذى يشمل سلطانه ربع قارة ثم لا يصدر أمراً إلا برأى العلماء الصالحين ، ولا ينفذ حكما إلا إذا ارتضاه خيار المسلمين .

وهذا الرجل العالم الذى يقف فى عزة المؤمن ليحمل إمام المسلمين أن يجرى أحكامه على ما يختاره علماء الأمة من أقوال الفقه ، وقوانين الشريعة ، وأن يترك جانبا تلك المباحث الفسيحة فى علم قانون الشريعة ، التى قد تؤدى به إلى إراقة دم لا تجب إراقته — وأنا حين أسوق كلمة الوجوب فى هذا السياق أعنى معناها

الحرفى — فإن أبا مرداس وأضرابه يريدون من حاكم المسلمين أن يريق الدماء حين تكون إراقة هذه الدماء واجبا شرعيا لا يجوز التهاون فيه .

ولكنهم لا يسمحون له بإراقة الدماء حين لا تكون إراقتها إقامة لحد الله، وواجبا من واجبات الشرع ، ولو كانت إراقة هذه الدماء مباحة بما ارتكب صاحبها .

صحب أبو مرداس الإمام عبد الوهاب سبع سنوات حين إقامته « بميرى » فى جبل نفوسه ، ولما رجع الإمام إلى مركز حكمه فى تاهرت، لزم عماله من بعده ، فصحب أيوب بن العباس ، وأبا عبيدة عبد الحميد ، والعباس بن أيوب ، وهو فى جميع ذلك يقف كصمام الأمان من صاحب السلطة ، يأمره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر ، ويسدد خطاه ، ويزوده بالنصيحة الصادقة ، والحكم الراجح ، من قوانين الشريعة .

وكانت كلمته دائما أقوى من كلمة الحاكم وحكمه ، وأنفذ من حكمهم .

ولم يكن هؤلاء الذين ذكرتهم بالضعاف ، ولا المهازيل ، فتطغى عليهم شخصيات أخرى ؛ إنهم قمم شامخة من العلم والعمل والقوة فى الحق، فظهور شخصية هذا الرجل معهم دليل على العبقرية والنبوغ ...

صحب فى أواخر أيامه العامل الحازم القوى العباس بن أيوب ، وقد شاخ حينئذ أبو مرداس وهرم ، ولكنه لا يفارق الجيش حتى فى هذه السن المتأخرة ، ولا يتردد فى عمل الخير وإظهار الحق ، ومراعاة المصلحة العامة ، وكان الكبر قد أحنى هامته على قصره ، فكان يسير أمام جيوش العباس بن أيوب ، وهو يجر سيفه لينطلق إلى الكفاح ، كفاح المعتدين البغاة من الفكار ، وعندما ينهزم أولئك المعتدون ويرتفع لواء الحق ، يصيح أبو مرداس الذى لا ينسى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى أى ظرف من ظروف الحياة كأنه هو قائد الجيش !

قفوا أيها الأبطال ! .. لاتتبعوا مدبراً ، ولاتجهزوا على جريح .. ولاتستحلوا مال موحد ! . . .

ولكن أحد الجند يجيبه: بل لانتركهم حتى نخرجهم من حوزتنا ، و يعرف أبو مرداس أن فى رأى الجندى حقا وحزما، فيذعن للحق، و يستجيب للحزم(١)

لقد كان العباس فى سن أولاد أبى مرداس — لو رزق أولاداً — فكان يجله كثيرا ، ويحترمه ، ويقف عند رأيه ، ولا يقدم على عمل إلا بمشورته ورضاه .

كان أبو مرداس عالما عاملا ، ومؤمنا عميق الإيمان ، وقويا فى دين الله ، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، وكان كريما كرم المؤمنين الذين يعرفون حقيقة الدنيا ، و يعرفون أن المال إنما هو مال الله ، يأخذ منه صاحبه بقدر الحاجة لينفق باقيه فى الوجوه التى بينها الشارع الحكيم .

ولذلك فهو لايتأثل مالا ، ولايحتفظ به ، ولكنه ينفقه على الفقراء والمساكين ، ولاسيما فى سنوات الجدب والجفاف .

وقد يبلغ به الحال إلى أن ينفذ منه المال ، فلا يستكبر أن ينفق مما يقتات به ، سواء كان ذلك من بعض الثمار المجففة كالتين ، أو بما يأخذه من أعشاب من الأرض ... وهو إلى هذا الكرم المطبوع ، يعيش فى عصره ، و يعرف أحوال الناس فى وطنه ، فكان يبعث بعطاياه وصدقاته إلى من يستحقها من الفقراء ، الذين يسترون ماهم عليه من خصاصه ، حتى يحسبهم الناس أغنياء من التعفف ، كما كان يعرف ما يتعرض له العمال والخدم من جوع وإهمال ، فكان يعترض طرقهم فى غدوهم أورواحهم ، فيعطيهم ما أعده لهم من طعام ، وكثيراً

(١) راجع السير : ترجمة العباس بن أيوب : صفحة ١٩٦

ما يكون هذا الطعام سويقا،أو « بَسيِسة»(١) أوما أشبه ذلك من الطعام الجاهز المستعجل ، الذى يسهل إعداده !...

وكان أبو مرداس رغم كل ذلك ، ورغم ملازمته لولاة أمور المسلمين — يأمرهم وينهاهم — كثير العبادة ، موصول القلب بالله ؛ وكان يقول : « لولا أمور الإسلام ما أجاوِز هذا الشعب إلى هذا »(٢) .

ومع هذه الحركة الدائبة ، والكفاح المتواصل فى ميادين القتال ، أو مواطن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند مجالس الحكام ، ومع تفقد المسلمين ومعرفة أحوالهم ، ومعالجة مشاكلهم ، ووصلهم بما تقدر عليه يداه ، مع كل ذلك ، فقد قال المشائخ الذين زاروا الجبل من المشرق : « أبو مرداس يقول : نفسى نفسى كالغزالة ، والعباس نعم الفتى . وأبو زكرياء هو الجبل ، والجبل هو أبو زكرياء »(٣) .

فقد عاش ما عاش غاضّ البصر ، ليّن العريكة ، سهل الخلق ، خفيض الصوت ، ما لم تنتهك حرمة من حرم الله فيثور ، ويدل لهذا ما قصه المؤرخون: أنه فى أواخر أيامه وقد خرج الناس لاستقبال الربيع ، ولم يبق أحد بمدينته « تبرست » فرفع بصره يتأمل المدينة ويرى الشوارع الممتدة إلى جميع النواحى، والأبنية المرتفعة الضاربة فى الهواء ، فقال متعجباً : متى حدثت هذه المبانى ؟ . . كأنما غاب عن المدينة سنوات طوالا ، والواقع أن العالم الكبير ، قد غاب عن المدينة سنوات طوالا ، غياباً جسمياً لا معنوياً ، فهو يعرف كل دقيق وجليل من أحوال المدينة وأحوال أهلها ، ولكنه فى نفس الوقت لا يعرف من شوارعها

---

(١) سويق ملتوث بزيت .
(٢) السير : ص ١٧٢ .
(٣) السير : ص ١٧٤ .

إلا الشارع الذى يربط بين بيته والمسجد ، أو الشارع الذى يربط بيته بميدان الكفاح ، أى كفاح ومن أى نوع كان . . .

ولقد كان دقيقاً فى محاسبة نفسه على جميع أعماله ، فلا يصدر إلا عما يريده منه حكم الله ، ولا يسمح لنفسه بتجاوز الحق حتى فى بسائط الأمور ... استعار يوماً أتانا يركب عليها لبعض شأنه إلى إحدى القرى المجاورة ، فمد إليه أحد جيرانه صرة دراهم يطلب منه إيصالها إلى أحد الناس فى القرية التى يقصدها ، فاعتذر الشيخ عن القيام بهذه المهمة : بأنه حين استعار الأتان لم يستأذن صاحبها فى حمل شىء آخر عليها ، فصاح صاحب الدراهم متعجباً من امتناع الشيخ واعتذاره ، فقال الشيخ : « صار العلم عجباً » .

وقال له يوماً رجل من أبديلان : يا كافر ، فقال له الشيخ : « سميتنى باسم هربت منه زماناً » . وذهب مرة يحرث على بقرة له فمر بقرية « إكراين » والناس مسنتون[1] ، قد أحاط بهم القحط ، وذهب الجفاف بما ادخروه ، وأضر بهم الجوع ، فلما رأى ما بهم من الحاجة تصدق عليهم بالبذر ، وذبح البقرة ففرقها عليهم ، وفرق الجلد أيضاً ، لكنه احتفظ بقطعة منه ، فلما رجع إلى قريته ، بادرت إليه الزوجة الصالحة زرزرت[2] تسأله : أين البقرة ؟ وأين حرثت ؟ . . . فقال لها : حرثت حرثاً استغنى عن المطر ، ولا تصيبه آفة ؛ ثم أخبرها بما فعل ، فقالت له : لم لم تردد علينا من بقرتنا إلا هذا ؟ فقال لها : لنا بقرتنا إلا هذا ؟

وذهب مرة ليحرث فداناً من فدادينه ، فجاز عليه رجل ممن يعرف أخلاق الشيخ ، وتغلب عليه الدعابة ، فقال للشيخ : إن الفدان لى فاخرج منه ، فخرج

---

(١) أصيبوا بقحط وشدة (٢) كلمة بربرية معناها الغزالة .

الشيخ وترك الفدان ، فأدركه الرجل ببعض الطريق ، وقال له : إن البقرة التى تقودها بقرتى فاتركها لى ، فتركها ورجع إلى البيت دون حرث أو بقرة ، فلما كان عند مدخل البيت أدركه الرجل وقال له : أين تريد أيها الشيخ ؟ إن هذا المنزل منزلى فصاح الشيخ بزوجته قائلا : ناوليني سلاحى يا زرزرت ! فقال الرجل : إنما أنا أمزح ، وليس لى فى الفدان ولا فى البقرة حق ، فخذ بقرتك ، وارجع إلى فدانك ، فقال الشيخ : ما بعثك الله إلا وقد علم فى الفدان والبقرة شيئاً ، فتركها ورفع يده عنهامنذ ذلك اليوم .

وبمثل هذا الخلق السمح الكريم ، وهـذا الدين العفيف القويم ، وصل أبومرداس وأضرا به إلى ما وصلوا إليه من الرتب العالية ؛ رتب الحقيقة الخالدة . لارتب الدنيا الفانية .

ولعله من المناسب أن أختتم هذا الفصل بما ورد فى السير : « إن مشائخ نفوسة يقبلون على الإمام ، فيجلسون إليه حين كان بالجبل ، فإذا قدم أبو مرداس قام إليه — وكان قصيراً — فقال رجل من أهل المشرق لم يعظم الإمام هذا ؟ فقال حين سمعهم ، كيف لا أجل من تجله الملائكة »(١).

أما أبو الربيع فقد قال حين تحدث عنه : « أبو مرداس رجل حازم ، ممارس للأمور ، ورع نبيه ، وجيه ، حاذق ، عاقل فطن ، مجتهد رحيم بالضعفاء ، شديد على الفجار ، ذليل على المؤمنين ؛ لا تأخذه فى الله لومة لائم ، يؤثر الحق والصدق »(٢) .

---

(١) السير : ص ١٧٥

(٢) السير : ص ١٧٤

# أبو زكريا التوكيتي (١)

شخصية من الشخصيات التي تجمع صفات العظمة ، فتفرض محبتها واحترامها على الجميع .

بلغ مرتبة لم يبلغها صاحب جاه بالسلطة ، أو صاحب معرفة بالعلم، أو صاحب كرم بالإنفاق ، أو صاحب زهد بالعبادة ، أو صاحب شجاعة بالإقدام ، إن هذه الصفات جميعا ولا شك عظيمة ، ولكنها لا تغنى شيئا إذا أعوزتها روح قوية ، ذكية ، عميقة ؛ لتكسو صاحب هذه الصفات ثوب العظيمة ، الذي يحترمه الناس ويحبونه ، مجبرين بقوة الشخصية .

وكان أبو زكرياء التوكيتي يملك هذه الروح القوية فوق هـذه الصفات الكريمة ، فجعل منه ذلك رجلا منفرداً بالعظمة والمهابة ، والحب فى بلد مفعم بالعظماء والأعلام .

طلب الناس إلى الإمام : أن يولى عليهم أبا عبيدة عبد الحميد ، فاعتذر بالضعف ، فبعث الإمام يقطع عذره ، ويسد السبل أمام تهربه ، فقال : إن كان ضعيف البدن فإن الله يقويه إذا تولى أمور المسلمين ، وإن كان ضعيف المال ففى بيت المال ما يسعه ويسع غيره ، وإن كان ضعيفا فى العلم فعليه بأبى زكرياء التوكيتي (٢) .

ووفد من أهل المشرق وفد يزور الإخوان ، ويتفقد أحوال الناس ، فزار

---

(١) ذكره أبو زكرياء البارونى فى الطبقة الخامسة : فهو من علماء النصف الأول للقرن الثالث
(٢) راجع السير ص ١٨٢ والأزهار الرياضية : ص ١٥٣ .

الجبل وزار بقيــة المملــكة الليبيــة ، ومر بالجنوب التونسى ، ثم زار تاهرت مركز الإمامة ، ولمـا سئل عن رأيه فى جبل نفوسة قال : « الجبل هو أبو زكريا وأبو زكرياء هو الجبل (١) ، وأما أبو مرداس فَـكَـالْغَـزَالَةِ : نفسى ، نفسى . وأما العباس ففتى مقرعى . » — أى صاحب نجـدة وشدة . واختار الوفد من تاهرت الإمام ووزيره مزور بن عمران .

لقد كان مقام أبى زكريا أرفع من المنصب ، وأعظم من أى صفة يتصف بها رجل لو عمل بعمله ، ولذلك لم يجد هذا الوفد المتشدد فى اختيار الرجال إلا أن يصفه بأنه هو الجبل ، وأن الجبل هو أبو زكرياء ... إنه مقام لم يبلغه أبو مرداس على ما عرفت من علمه وعمله ، ولم يبلغه أبو العباس على ما عرفت من شدته وقوته ، ولم يبلغه الإمام ولا وزيره على ما اشتهر من علمهما وعدلهما وفضلهما ، لقد اختار الوفد هذه الشخصيات اختياراً عاديا ، أما اختياره لأبى زكرياء فقد كان بأسلوب فريد . لقد جعلوه أمة كاملة ، أو فى مقام أمة كاملة .

ويبدو أن الوفد لو لم يجد فى الجبل غير أبى زكرياء لذهب راضياً ، وذكر للناس أن الجبل عامر آهل بأهل العلم والفضل والدين والصلاح .

ولعله من المناسب أن أختتم هذا الفصل بما قاله البدر الشماخى : « وشهرة أبى زكريا وعلمه وورعه مما لا يخفى على الحفاظ ؛ وكفاك أنه فى زمن امتلأ فيه جبل نفوسه علما وعملا وعدلا ، فأختير من جميعهم حتى قيل : « أبو زكرياء هو الجبل ، والجبل هو أبو زكرياء . » (٢)

---

(١) السير : ١٧٨ .

(٢) السير : ترجمة ابن زكرياء التوكيتى : ص ١٧٨ .

# أبو مهاصر الأفاطماني (١)

فى هذه القرية التى تنبسط فوق جبال الرحيبات الغربية ، نشأ أبو مهاصر موسى بن جعفر ، : شخصية من الشخصيات التى تجمع بين العلم والكرم والزهد والتدبير . يعيش كما يعيش المؤمنون الصالحون ، موزع الوقت بين العلم والعبادة والعمل ، لين العريكة سهل الخلق ، لطيف المعشر ، محباً للمؤمنين عطوفا على الضعاف من جميع المخلوقات ، تغلب عليه الإنسانية فى أنبل معانيها ، فيشفق على صغار الحيوان كما يشفق على بنى الإنسان .

يجمع الطرف من ماله فيوزعها على الصبيان ، فإذا كانت هذه الطرف مما يؤكل وكان عند أحدهم قطة أو جروة ، أعطاها نصيبها ولم يحرمها ، وعندما يعود من الصحراء ومعه طرف الصحراء من لبن وزبد وسمن وجبن وغيرها ، يقسمها على الجيران ، فيعطى ليهودى مثل ما يعطى لغيره من الجيران ، مراعيا فى ذلك جانب الإنسانية ، وممتثلا قوله صلى الله عليه وسلم: « فى كل ذى كبد رطبة أجر »

وقد قيل له فى ذلك فأجاب بما أجاب به صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « إن الله خلق الرأفة وأسكنها قلوب المؤمنين وخلق القسوة والجفوة وأسكنها قلوب الكافرين . »(٢)

مر ذات يوم على أهل قبيلة يعرفون رقة قلبه وعطفه وشفقته على الضعيف، وإحسانه للخلق ، وكان راكبا أتانه التى حج عليها غير مرة، ومن ورائه جحش

---

(١) ذكره أبو زكرياء فى الطبقة الخامسة فهو من علماء النصف الأول للقرن الثالث
(٢) راجع السير ص ١٩٩

لهـا صغير يتبعها ، فقالوا ليتيم بينهم لو طلبت الجحش من الشيخ لأعطاه إياك فتقدم الطفل إلى الشيخ وطلب منه أن يعطيه الجحش الصغير ، ولم يستطع الشيخ أن يرد رجاء الطفل ، فأعطاه الجحش ، ولـكن الأتان جعلت تمتنع عن السير ، وجعل الجحش المفصول ينهق كأنه يصيح مستنـكراً هذا الظلم الذى يفصله فيه إنسان عن أمه ، وحار الشيخ فى الموقف ، وبعـد تفـكير عرف الحـل الصحيح للمشكلة ، فاستدعى إليه وكيل اليتيم واشـترى منه الجحش بدينارين ، وهكذا ظفر اليتيم بدينارين ، وظفر الجحش بأمه .

مر به قوم غرباء واشتكوا إليه بعد المسافة ومشقة المرض وانقطاع الظهر ، فأعطاهم بغلا له يحملون عليه زادهم ، ويركبه مرضاهم ، فقالوا له : أين نرده ؟ فقال لهم : يوم اللقاء ..

وصادف أن أخا للشيخ كان ببعض بلاد الجنوب التونسى ، فالتقى بهؤلاء الركب ، وعرف البغل ، فاستمسك به ، فقالوا له : إن رجلا يقال له أبو مهاصر أعطانا إياه ، فقال لهم : وكيف ذلك ؟ قالوا : شكونا إليه قلة الظهر فأعطاناه ، وقال : آخذه يوم اللقاء ، فقال الأخ الذكى : صدقتم ، هــذا كلام أخى . وتركهم .

ومع هذا اللين ، وهذه الدماثة ، وهـذا الخلق السمح ، كان لا يسكت عن منـكر .

باع وكيل يتيم زيتونة اليتيم بأربعـة دنانير لرجل محاباة له ، فبلغه الخبر ، فأنـكر ذلك وأبطله ، وحفظ غلة اليتيم ، وأنفق عليه كامل السنة .

ومر على بستان تين ، فوجده قد أسقط ثماره لقلة المطر وشدة الحر ، فسأل عن صاحبه ، فلما عرفه قال له لمـاذا لا تجنى ثمار بستانك ؟ فقال الرجل : لاحاجة

لى به ، فقال الشيخ أتأذن لى فى أخذه ؟ فأذن له الرجل، فجناه الشيخ وحفظه فى مكان ، وأسنت (١) الناس بعد ذلك ، فطال الجفاف ، وامتد القحط ، وعظم الجدب ، فكان الناس يلتمسون أى نوع من الطعام فلا يجدونه ، وجاء الرجل إلى الشيخ يلتمس منه شيئا من الطعام ، فقال الشيخ : ليس لى إلا تين ردىء لا يصلح للأكل ، فرضى به الرجل وباع له البستان بذلك التين الردىء ، وتغير الحال ، وهطلت الأمطار ، وأمرع الناس ، ومر الرجل على بستانه متحسرا وقد اخضر واينعت ثماره ، فجاء إلى الشيخ يقول : إن بستانك الذى اشتريته منى نضجت ثماره ، فقال الشيخ له : اجن بستانك فأنا لم أشتره منك لأملكه دونك ، وإنما أعطيتك ما فرطت فيه من ثمارك ، عساك لا تعود إلى إهمال ما رزقك الله من نعمة ، ولا تحتقر الضئيل منها .

كان أبو مهاصر مؤمناً ، يأخذ نفسه بالشدة والعزيمة فى العبادة . خرج مرة فى زمن الربيع إلى البادية ، وكان معه عمروس المساكنى . فلبثوا أياماً على غير ماء ، فكانوا يتيممون للصلاة ، وتكدرت نفس أبى مهاصر من هذه الحال ، فقال يحادث عمروساً : « قلوب يربو عليها الشحم مما سمنت ، ووجوه تعلوها الغبرة ، قلت سلامة الدين مع أهل الوبر ، إنما الدين فى المدر ، والله لا يجمل بنا أن نترك الدين لاتباع شهواتنا ، وإنى لأخاف أن نكون ممن عاب الله عز وجل بقوله : « **أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا** »

ورد عليه عمروس رحمه الله فقال : ليس فى ذلك ما تخافه ، لقد أباح الله التيمم لعدم الماء ، وأباح الضرب فى الأرض لطلب الفضل، وابتغاء الرزق، حيث قال:

« **وابتغوا من فضل الله** » وقال ، « **الا عابرى سبيل** » وقال :

---

(١) أى أصابتهم سنة قحط

« **فان لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا** » ولـكن أبا مهاصر لم يقتنع ورجع إلى منزله (١) .

وليس معنى هذا أن أبا مهاصر لا يرى صحة التيمم لفاقد الماء ، أو أنه يحرم ابتغاء الرزق المباح والسعى له ، ليس ذلك ما يراه العالم الزاهد ، ولـكنه يحمل نفسه على أشق أنواع العبادة ، ويروضها على التحمل . ويسوسها بحرمانها من شهواتها وما تنزع إليه ، فهو لا يريد أن يعمل برخصة ما دام يستطيع أن يعمل بالعزيمة ، ولو فوّت على نفسه لذائذ متعة ، ومنعها من الحصول على رغبة .

وكما كان كريما فى نفسه ، فإنه يريد من أصدقائه وأسرته وأقاربه أن يكونوا كرماء أيضاً ، قال يوماً لابن أخته يحي بن موليت: يايحي لا تعاتب (سارة)(٢) إذا أعطت من مالك فإننى لا أعاتب ( تَالُـولاَ ) (٣) ولو أعطت حمل جمل .

(١) السير ص ١٩٨
(٢) زوجة يحى بن موليت
(٣) زوجة أبى مهاصر موسى

# الإباضية في فزان

أقصد بكلمة « فزّان » هذا الشريط الصحراوى الذى يمتد جنوب ليبيا من حدود مصر إلى حدود الجزائر ، وقد كان هذا الشريط ممراً هاماً للجيوش الإسلامية الفاتحة ، ثم صار جزءاً هاماً من الدولة الرستمية . وكان فى كثير من الأوقات يتصل إدارياً بعاصمة الإمامة فى « تاهرت » ، وعندما انقرضت الدولة الرستمية ، أصبح بعضه يتبع إدارياً حاكم جبل نفوسة ، واستقلت بعض جهاته الأخرى عن اتباع الحكومات الأخرى ، على أن هذه الحالة لم تدم طويلا ، وأصبح فيما بعد يتبع الحكومات القائمة فى طرابلس أو برقة . هذا من الناحية السياسية ؛ أما من الناحية الدينية فقد كانت فزان معقلا من معاقل الإباضية زمناً غير قصير .

وقد قاسى سكان فزان من الجيوش المتعاقبة التى تبحث عن الثروة والسلطة شدائد وأهوالا ، وكثيراً ما يتخذ أولئك الحكام الظلمة قضية المذهب ، أو الجنس ، وسيلة للجبروت والطغيان ، وسبباً للفساد والعدوان ، فيقتلون دون رحمة ، ويغنمون دون شريعة ، ويحكمون بلا دين . . .

وكان السكان يكافحون بكل ما أوتوا من قوة عدوان المعتدين ، ويردون بما أوتوا من علم بدع الجاهلين ، وتحريف الضالين ، فنشأ فى أكثر المدن من فزان علماء أعلام ، حرصوا كل الحرص أن يضربوا المثل الحق للمسلم الحق الذى يعرف دين الله ، فيقف عند حدوده ، ويوضح للسالكين المنهج الواضح الذى شرعه الإسلام للفرد والمجتمع والدولة ، ويبينون لأولئك القادة

المنحرفين ، المسلك الصحيح للقائد المسلم ، الذى يحفظ دين الله ، ويذود عن كرامة الأمة .

ولو لم يكن لفزان فى ذلك العصر إلا العلامة الزاهد عبد الخالق الفزانى ، لكفى ذلك القطر الفسيح شرفاً ومجداً . . .

كان أبو مرداس كما أسلفت فى بعض الأحاديث السابقة واسع الاطلاع ، غزير المادة ، موصول العبادة . فكان يتحدث فى مجالسه بنعمة الله فيقول : لا أعرف إلا الإمام ووزيره وهذا الفزانى ، و إنما أعرفه بكتبه .

إنه لم تتح فرصة اللقاء للعالمين العظيمين ، ولكن الكتابة بينهما كانت كافية ليعرف كل واحد منهما عظمة الثانى . . .

كتب أبو مرداس إلى عبد الخالق يسأله عن دواء مرض ألم به ، ويسأله أن يدعو الله أن يغنى أهل الجبل بغيث عميم ، فأجابه العالم الزاهد الذى يرى الدنيا كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة : «إن مثلك يا أبا مرداس يسأل عن دواء الذنوب » ؟ ! ! وأجابه عن المطلب الثانى بقوله تعالى : « **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض، ولكن ينزل بقدر ما يشاء** » . فقال أبو مرداس لقد جعلنى[1] هذا الفزانى أعض الأصابع ندماً إلى الموت .

هذا الفزانى الذى استطاع أن يبلغ إلى ذروة العلم والتقوى وهو بين الرمال ، مقطوع الصلة بالعمران ، والذى استطاع أن يؤلف مجموعة من الكتب لها قيمتها فى فروع العلم وأصوله ، هذا العالم الفزانى الذى استطاع أن يجعل أبا مرداس

---

(١) راجع السير : ص ١٩٠ .

يعض بنان النـدم طول الحياة ، كتب إلى عمروس بن فتح : أن يبعث إليه بكتابه فى علم الـكلام ، ولما اطلع على الـكتاب ودرسه دراسة العالم الفاهم ، قال فى اعتراف المؤمن الصادق الصريح مع نفسه ومع الناس : « النفوسى أقوى منى » .

وهكذا يعترف أبو مرداس بما للفزانى من علم ، ويعترف الفزانى بما لعمروس من العلم ، وعندما يضم المجلس عمروساً وأبا مرداس فى مجلس القضاء أو الفتوى يتشدد أبو مرداس خوف الترخيص ، وينتهر عمروساً حين يعتقد أنه يتساهل فى بعض الأحكام .

إنها سيرة عطرة لمؤمنين صرحاء مع أنفسهم ، ومع الناس .

كان فى مختلف بلدان فزان عدد من العلماء الأعلام ، كالعلامة عبد القهار ابن خلف ، وإدريس الفزانى ، وأبى الحسن جناو بن فتى ، وعبد الحميد الفزانى وغيرهم ، وقد كافح هؤلاء العلمـاء وأضرابهم الجهل والبدعة والانحراف ، وحافظوا على دين الله نقياً ، كما جاء عن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، لم يتخونه التضييع ولم تزد عليه الخرافة والبدعة .

ولعل مما يحسن إيراده فى هذا المقام ، ماورد عن أبى نصر زار التفستنى[١]: « الـكلام كله لغو إلا مسألة فى الخير ، واسـتعاذة من الشر ، وقراءة القرآن ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »[٢] .

---

(١) تفست : بئر تقع شمال درج بحوالى عشرين ميلا : كانت قرية عامرة .

(٢) السير : ص ٢٩٩ .

وطبيعى أن أبا نصر لا يقصد الحصر الحقيقى ، وإنما يقصد أن الكلام الذى يلتحق بالعبادة ، ويكون عليه أجر ، لا يخرج عن هذه الوجوه ، فهو إما تلاوة لكتاب الله ، أو ذكر لله ، أو أمر بالمعروف ، أو نهى عن المنكر ، وما بقى من أحاديث الناس لمصالحهم الدنيوية فهى أحاديث لا أجر عليها ، ولذلك فهى فى مكان اللغو ، أى كأنها لم تصدر عن صاحبها ، هذا إذا لم تكن عكس الأغراض السابقة ، وإلا أصبحت سبباً للإثم . . .

وأبو نصر على رحابة علمه وسعة خلقه ، كثير العبادة ، موصول العمل ، ورد عليه أبو سهل البشر بن محمد يطلب العلم ، ولما حضر المجلس سمع أبا نصر يقول فى درس من دروس الوعظ : « لن ينجو من علماء آخر الزمان إلا قدر ما يسلم من المصابيح التى رفعت من بيت إلى بيت فى يوم ريح » . فلما أصبح أتى أبو سهل إلى الشيخ للوداع ، فسأله الشيخ عن السبب . فقال : سمعتك وما ذكرت من قلة من ينجو من العلماء . . قال أبو نصر إذا كان هذا شأن العلماء فكيف بنجاة غيرهم(١) ؟

وأقنع طالبه بضرورة الجد فى طلب العلم ، والحرص على العمل بمقتضى ذلك العلم ، فكان عند رغبة أستاذه ، وأصبح من فطاحل العلماء ، وعندما حضرت الوفاة أبا نصر أخذ يبكى . . . قيل : ما يبكيك ؟ قال : خوفاً من الفتيا ، قلت : دار من دور نفوسه لم تدخلها فتواى . . .

---

(١) العبر : ص ٢٩٩ .

وكان أبو الحسن المديونى يستخبر عن الطلاب الأذكياء النجباء ، فيستدعيهم إليه ليدرسوا عنه ، ويغترفوا من نبعه الصافى ، وفى أواخر أيامه رحمه الله ، بعث إلى العلامة عبد القهار بن خلف يستقدمه ليتلقى عنه علماً ربما لا يحسن غيره فهمه ، ومما قاله فى رسالته إليه : « وأحب تعجيل ذلك ، لأنى على آخر أيامى ، واقتراب أجلى » .

وهكذا يحرص رحمه الله أن لا يأخذ علمه معه ، إنه يريد أن يترك هذا القبس ، حتى تستضىء به الأجيال . . .

# المدارس

أشرت فى حديث سابق إلى أن الحركة الثقافية الإسلامية بدأت مع الفتح الإسلامى ، وأن الرواد الأول لنشر هذه الحركة الثقافية هم بعض الأبطال ، الذين ملكوا إرادة تقهر الصعاب ، وتُذلِّلُ العقاب ، وكان من هؤلاء ابن مَغْطير الجَنَّاوُنى الذى سافر إلى العراق ، وتلقى العلم عن أبى عبيدة . مُسْلم فى البصرة ، وتلقى أبو عبيدة عن جابر بن زيد ، وأخذ جابر عن جمع من الصحابة رضوان الله عليهم ، فابن مَغْطِير من هذه الناحية يعتبر فى الدرجة الثانية من تابعى التابعين ، إذ ليس بينه وبين الصحابة إلا رجلان .

ولكن ابن مَغْطِير عندما رجع إلى ليبيا واستقر ببلدة جَنَّاوَن وجد رجلا آخر قد اعتمد على نفسه ، وبلغ من العلم مرتبة مرموقة ، ولكنه فى دراسته لم يعتمد على معهد معين ، ولم يدرس على شخص معروف ، إنه كان يحفظ القرآن الكريم من السابلة ، و يتلقى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من المارة ، حتى أنس فى نفسه المقدرة على الإفادة ، فذهب إلى بلده وأسس هنالك أول مدرسة لتعليم كتاب الله ، وتفقيه الناس فى دين الله ؛ ذلك الرجل هو عمرو بن يَمْكِتَنْ من أفاطْمَان : «هذه القرية التى أصبحت اليوم أطلالا فى بلاد الرَّحيبات الفسيحة . ولو كان يحق للبلدان أن تفخر بما يتولد فيها من مجد وعظمة إذن لحق للرحيبات أن ترتفع شامخة فى البلاد الليبية ، وأن تقول : إنها أول بلد أنشأ مدرسة إسلامية كاملة فى « أفاطْمَان » دون أن تعتمد فى ذلك على دولة ، أو يوعز إليها بذلك أمير ، أو أن يأتيها الأمر من سلطان مشغول بمد نفوذه ، وتوسيع مدى سلطته ، وليس هذا فحسب، ولكنها تستطيع

أن ترفع صوتها لا بالنسبة إلى ليبيا ولكن بالنسبة إلى العالم أجمع ، وتقول : إنها البلاد الأولى التى فكرت فى قضية تعليم البنت على أساس من التربية وعلم النفس ، الذى وصل إليه العلم اليوم ، فكونت مدرسة خاصة بتعليم البنت فى « أمْسِينْ » بها قسم داخلى، تأوى إليه الفتيات تحت إشراف مربية قديرة : هى أم يحيي زوجة أبى ميمون ، فيجدن فيها المأوى الأمين ، والغذاء الكافى ، والتربية النظيفة ، والعلم الصحيح .

هذا بالنسبة للفتيات البعيدات ، أما الفتيات القريبات : فقد يحضرن لتلقى العلم ، ثم يرجعن إلى أهلهن ، كما كانت تفعل الفتيات الساكنات فى « جِيطَال» «وإيفَرْ » « وتِمْيجَارْ » « وَمَرْسَاوَنْ »(١) .

لما رجع ابن مَغْطِير من البصرة وجد المدرسة الأولى التى أسسها عمرو ابن يِكْتن فى «أفاطمان» قد آتت ثمارها ، وتكونت فيها مجموعات من الطلبة الذين يحفظون كتاب الله أو بعضه ، ويعرفون الكتابة والقراءة العربية ، ويستظهرون كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة ، وهؤلاء الطلبة يصلحون أن يكونوا نواة لتأسيس مدارس تهتم بدراسة فنون العلم المعروفة فى ذلك الحين فى الأوساط الإسلامية .

لقد بدأت هذه الحركة العلمية بسيطة ساذجة فى « أفاطمان » فلما جاء ابن مَغْطِير توج هذه الحركة البسيطة بتوجيهها إلى الدراسة العلمية على الطريقة التى رآها فى البصرة .

ورجع أولئك الطلاب الذين تعلموا القراءة والكتابة وحفظوا القرآن

---

(١) أمسين تسمى اليوم «الحزبة» «وتميجار» تسمى اليوم «بوجديد» « ومرساون» تسمى « الحمران » .

الكريم والحديث الشريف ، وعرضوا شيئاً من سيرة الرسول الكريم إلى بلادهم ، فتكونت منهم مجموعات مستعدة للتلقى ، فلما عاد حملة العلم الخمسة بعد ابن مغطير وتفرقوا فى البلاد ، وجدوا استعداداً فى الناس ، وقابلية ، فافتتح كل واحد منهم مدرسة فى ناحية من البلاد ،كان لها أحسن الآثار ، ولعل أنجح هذه المدارس التى كونها بعض حملة العلم ، هى مدارس ابن درار الغدامسى . وعاصم السدراتى ، وأبى داود القبلى ثم عبد الرحمان بن رستم — بعد زمن طويل — حين انتقل إلى الجزائر ، أما أبو الخطاب فقد شغل بأحداث السياسة ، ولم تطل به الحياة ...

إننى حين أتحدث عن المدارس فى هذا التاريخ الطويل ، الذى يمتد ما بين الفتح الإسلامى ، والاحتلال الإيطالى ، قد أطلق كلمة المدرسة على معنى أوسع مما تدل عليه اليوم فى الاستعمال الجارى بين الناس ، وقد يفهم بعض القراء الكرام من كلمة المدرسة نوعاً معيناً من دور التعليم ، يجرى على نظام خاص لا يتعداه ، إننى بطبيعة الحال لست أقصد من كلمة المدرسة هذا المعنى الضيق فقط ، لأن هذه المدرسة لم تكن موجودة فى ذلك الحين فى أى بلد من بلاد العالم ، وإنما أقصد بكلمة المدرسة : المعنى الواسع الذى يشتق من كلمة الدراسة والتدريس ، وهذا المعنى يمكن أن يشتمل على ثلاثة مدلولات :

الأول : الدور التى أنشئت لتعليم الناشئة وتربيتهم ، وتتدرج بهم من المبادئ الأولية لأنواع العلوم المعروفة فى تلك الأزمنة ، حتى تنتهى بهم أو ببعضهم فى مرحلة يُشهد لهم فيها بأنهم بلغوا درجات معينة من العلم يستحقون من بعدها أن يسموا علماء ، وأن يقوموا بالأعمال التى يقوم بها العلماء ، وهذه المدارس عادة تكون ذات مناهج ومراحل وأنظمة معينة .

الثانى : دروس الوعظ والإرشاد والتوجيه ، التى يقوم بها بعض كبار العلماء فى المساجد والمجتمعات والمناسبات ، و يقصد بهذه الدروس تثقيف العامة وأشباه العامة ، وتنمية معلومات أولئك الطلاب الذين درسوا بعض الدراسة ، لكن ظروف الحياة حالت دون إتمامهم لدراستهم ، ثم توجيه الأمة توجيهاً دينياً واجتماعياً صالحاً ، ونشر الوعى بينهم .

أما المدلول الثالث : فأعنى به الأثر الفكرى ، أو الاجتماعى الذى يتركه أحد أولئك العلماء الكبار ، فيستجيب له الناس ، حتى أولئك الذين لم يجلسوا إلى حلقته ، ولم يستمعوا إلى دروسه ، وإنما وصلتهم إما عن طريق الكتب ، أو الرواية ، أو سريان الأفكار والآراء ، وهذا النوع الأخير شبيه جداً بما نسميه اليوم بالمدارس الأدبية ، أو المدارس الفلسفية ، أو المدارس الفكرية .

على أن هذا التقسيم غالباً ما يكون شكلياً ، لأن أولئك العلماء الأعلام لم يكن تأثيرهم مقصوراً على جانب من الجوانب المتقدمة ، وإنما يكون نشاطهم وأثرهم ظاهراً فى جميع ميادين الحياة .. وإنها لخطوات طبيعية للعالم فى ذلك العصر أن يبدأ عمله بعد أن يتم دراسته بالتدريس للطلبة فى مختلف مراحل الدراسة ، حتى إذا تمكن مركزه ، وثبتت صلاحيته ، زاد خطوة أخرى ، فألقى دروس الوعظ والإرشاد والتوجيه بين الناس فى اجتماعاتهم العامة ، وفى مساجدهم ، وفى مواسمهم .

والواقع أن أولئك العلماء قد وهبوا مقدرة فائقة على توجيه الناس ، توجيهاً روحياً عاماً ، ذا أثر بين فى الحياة ، حياة الناس ، سواء كان هذا التوجيه علمياً صرفاً ، أم كان توجيهاً اجتماعياً ، أم خلقياً ، أم دينياً ، ومن اليسير عليك أن تجد أثر هذا التوجيه ظاهراً فى الشباب الذى تلقى عنهم العلم فى حلقات الدرس ، أو فى الشباب الذى استمع إليهم فى دروس الوعظ والإرشاد ، أو فى

الشباب الذى عاش فى عصر كل واحد منهم ، وتأثر بسلوكهم ورأيهم فى الحياة ، وعملهم للمجتمع ، وفهمهم للدين ، ولست مبالغاً إذا قلت : إن بعض تلك المدارس بمدلولها الأخير ، لا تزال حية الأثر فى بعض جهات الجبل ، رغم تغير الحياة فى العصر التركى ، ورغم قطع الصلة بين حاضر الأمة وماضيها فى العصر الإيطالى ، ورغم فتنة العصر الحديث فى قضايا الدين ، والخلق ، والسلوك ، وانحراف تفكير شباب المسلمين عن الاتجاه الإسلامى .

والحقيقة أن رسالة المدرسة فى تلك العصور ، كانت أعمق وأعظم وأوسع من رسالة المدرسة الحديثة ، فإن أثرها ما كان ليقتصر على الجيل الذى يتعاطى فيها الدراسة ، وإنما كان يمتد إلى الجيل السابق والجيل اللاحق ، إنها مركز الإشعاع ، يضىء للمجتمع الاتجاهات النبيلة ، التى يجب أن تسير فيها القافلة المسلمة فى ظلمة الحياة ، فهى بذلك تكشف عن مزايا الماضى ، وتوضح طريق المستقبل ، ثم تسلح جيل الحاضر بكل الإمكانيات التى يستطيع أن يتغلب بها عما يعترض اندفاعه القوى من صدمات . . .

إننى فى آخر هذا الفصل أريد أن أتحدث حديثاً مقتضباً عن المدارس التعليمية بالمعنى الضيق ، أو بالمدلول الأول ؛ وللقارىء الكريم إذا أراد زيادة اطلاع على المدرسة بمدلولها الثانى أو الثالث أن يرجع إلى فصول هذا الكتاب المختلفة ، فإن أكثرها يعالج هذه الشئون . منذ أسس عمرو بن يمكتن أول مدرسة « بأفاطمان » بدأت المدارس تنتشر بسرعة فى جميع الأنحاء وتؤتى ثمارها فى أسرع وقت ممكن ، ولو أن حركة المد والجزر بين هذه المدارس — وتقوّى بعضها ، وضعف البعض الآخر — أمر طبيعى ، وذلك نتيجة لشخصيات وإمكانيات الرجال الذين يكونون هذه المدارس أو يديرونها .

ويجدر بى وأنا أتحدث عن المدارس التعليمية أن أشير إلى تكون حركتين هامتين ترافقان التعليم فى ذلك العصر .

الأولى : اتخذ أصحاب تلك المدارس نظما شبيهة بنظم الأقسام الداخلية المعروفة اليوم ، يأوى إليها الطلاب الذين يفدون من أمكنة بعيدة ، فيجدون فيها المأوى والغذاء والتعليم ، والإشراف التربوى السليم ، ويقدم الغذاء والمأوى مجاناً للطلاب الفقراء ، أما الأغنياء فيمونون أنفسهم ، والنفقات التى تستلزمها هذه الأقسام الداخلية تجمعها إدارة المدرسة من التبرعات ، و يقوم ذلك على نظام خاص ، رتب له قانون ، يسير حياة المدرسة وحياة الطلبة حسب أساليب التربية الإسلامية النظيفة القويمة ، وقد تغص الأقسام الداخلية بالطلبة ، فيضطر بعض الطلبة الأغنياء إلى السكنى خارج هذه الأقسام ، وقد تنقل إحدى هذه المدارس بعض الطلبة إذا لم تجد لهم أمكنة إلى مدارس أخرى تحتمل أقسامها المزيد من التلاميذ .

الحركة الثانية : القيام بالرحلات الاستطلاعية ، وقد عرف المربون فى ذلك الحين قيمة الرحلات المدرسية ، واطلاع الطلاب على بيئات غير بيئاتهم ، وتعرفهم على غيرهم من الطلاب ، واشتراك المدارس فى دراسة المناهج ، ومناقشاتهم فى مشاكلهم ؛ فأعدوا لهذه الرحلات ، ونظموها ، ويسروا لها الأسباب . وكان يقود هذه الرحلات مربون عرفوا بمقدرتهم وكفاءتهم . فكانوا يتولون تعليم الطلاب ، واستثارة ملاحظاتهم ، وتفتيق أذهانهم لإدراك الفوارق الاجتماعية ، والمقارنة بينها ونقدها ، وهم فى كل ذلك حريصون على ملاحظة آداب طلابهم ، وسلوكهم فى سفرهم و إقامتهم ، فكانت هذه الرحلات تتيح للطلاب مجالا أوسع للاستفادة والتكوين الخلقى والاجتماعى ، وتتيح المربى فرصة أفسح لدراسة نفسية الطلاب ، ومعرفة أخلاقهم وسلوكهم .

من المربين الأفذاذ الذين قاموا بعدد من الرحلات المدرسية ، تارة يأخذون كبار الطلبة ، وتارة يأخذون صغارهم ، وتارة يجمعونهم جميعا : أبو الربيع سليمان ابن هارون اللالوتى : « شيخ العلم والتحقيق ، وقدوة أهل التقى والتوفيق » كما يقول أبو العباس الشماخى ، وقد ذهب هـذا المربى الكبير شهيد هذه الفكرة القيمة .

ففى إحدى هذه الرحلات هجم عليه « بنو تيجن » إحدى القبائل الضاربة على حدود الجبل فقتلوه هو وجميع طلابه ، ظنا منهم أنهم قافلة محملة بالأرزاق . وفى هذه القضية كتب أبو يحيى الفرسطائى إلى أهل جادو يقول : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، بلغنا أن تسعة رهط من بنى تيجن يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قتلوا أبا الربيع . »

ومن هؤلاء المربين الأفذاذ الذين كانوا يقومون بالرحلات المدرسية مع طلابهم ، العلامة أبو هارون الملوشائى ، جد الأسرة البارونية الكريمة .

ومن هؤلاء المربين الأفذاذ الذين يشرفون على هـذه الرحلات المدرسية : أبو النجاة يونس التملوشايتى وعشرات غيرهم ، وليس المهم فى هـذا البحث أن نحصى الأشخاص الذين قاموا بهذه الحركة ، وإنما المهم أن الفكرة كانت موجودة فى ذلك الحين .

لقد كان المربون فى ليبيا ينظمون ويشرفون على هذه الحركات التى يحسب كثير من الناس أنها وليدة العصر . . . . ويعتقد آخرون أنها نظام سبق إليه الغرب ، والواقع أن علماء الإسلام فى كثير من الجهات كانوا كالجندى المجهول ، يسبق إلى عمل من أعمال البطولة والجـد ، لا يدرى به أحد ، فإذا وصل

إلى ذلك الفكرُ الغربيُّ . وجد من وسائل الإعلان والدعاية ما نسب الشرف إليه ، وألحَق الاكتشاف به ، وأصبح من حقه . وإنه لواجب على علماء الإسلام أن يلتفتوا إلى تراثهم المجيد فى الأصقاع النائية البعيدة من وسائل الشهرة ، فإن فى تلك البقاع من المجد والعظمة ، ومن الهداية والنور ، ما يحق أن ينشر بين الشباب المسلم، لكى يربط بين حاضره وماضيه ، ذلك الماضى المجيد المشرق ، الذى لا يخلو جانب من جوانبه ، ولا مكان من أمكنته من ومضات وإشراقات بعثها الإسلام فى قلوب الذين آمنوا وأخلصوا الدين لله ، فتركوا آثاراً من هدى الإسلام قد يكون العالم فى أشد الحاجة إلى الاقتباس منها ، أو الاستناد إليها ، أو الاعتماد عليها .

درس العلامة أبو الربيع سليمان بن هارون اللالُوتى فى مدرسة أبى هارون موسى بن يونس الجلالِى ، تلك المدرسة التى تخرج فيها عدد غير محصور من العلماء الأعلام ، وأبو هارون قل أن يكون ذو علم وبصيرة لم يقتبس من سناه ، ولم يغترف من ينبوعه و فهو من أولئك الأفذاذ الذين كانت لهم مدارس بمدلولاتها الثلاثة ، أما أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتى فقد تخرج عليه أيضاً عدد من الأفذاذ : منهم أبو محمد خصيب بن ابراهيم التمصمصى، ولو امتدت به الحياة لكانت آثاره أعظم، لكن المجرمين من « بنى تَيْجَن» قتلوه فى ربيع العمر ، لقد استشهد وهو يكافح من أجل تخريج جيل واع من الشباب المسلم وعمره سبع وعشرون سنة . .

ولعل أعظم المدارس أثراً فى حياة الأمة ، وأطولها امتداداً مع الزمن مدرستان :

الأولى : مدرسة أبى المنيب محمد بن يانس ، وقد درس هذا العلامة الكبير

على معدن العلم أبى الزاجر إسماعيل بن درار الغدامسى ، ولما أجاز له شيخه القيام بالتدريس ، رجع إلى جبل نفوسة ، وكون مدرسته العظيمة ، التى امتدت أنوارها الساطعة إلى القرن الحادى عشر ، وتكونت لها مجموعة من الفروع فى مختلف القرى والمدن ، تتصل بها اتصالا وثيقاً فى بعض الأحيان ، ورقيقاً فى الأحيان الأخرى . وقد كان للجيل الذى أنشأه أبو المنيب أثر امتد مع الزمن إلى الاحتلال التركى ...

الثانية : مدرسة أبى عثمان سعد بن أبى يونس الطمزينى ، وقد درس هذا العلامة الكبير على الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم « بتاهرت » وقد وقع عليه اختيار الإمام ، فأسند إليه ولاية قنطرارة وما لاها : « تيجى » اليوم ، فكان فيها مثل ما كان أولئك الولاة الذين سبقوه ولحقوه من استقامة ودين ...

بلد هذا العلم الكبير « طمزين » هذه لقرية المعروفة اليوم ، العامرة برجال فيهم علم وفضل .

وفى هذه القرية كون العالم الكبير مدرسته التى لم تزل تشع بالعلم والثقافة والخلق والدين إلى القرن الثامن الهجرى ، ولا يزال بناء المدرسة إلى اليوم قائما يتحدى الزمان ،ويطاول التاريخ ، كما أن الفرع الذى أنشأه فى تيجى لا تزال أطلاله

وبالإضافة إلى هاتين المدرستين اللتين أمتدتا بفروعما قرونا طويلة ، وإلى الحركة العلمية التى أنشأها عمرو بن يَمكتنْ فى أفاطْمانْ وما جاورها ، وإلى الحركة الثقافية التى غذاها ابن مغطير الجنَّاونى . بالإضافة إلى هذه الحركات ، فقد اشتهر فى جبل نفوسة على الأخص عدد من المربين، الذين أدوا رسالة التعليم المقدسة ،على خيرما تؤدى رسالة سامية ؛ حرصوا أن ينشأ طلابهم على الخلق

الحميد ، والفهم العميق لرسالة الإسلام ، والاطلاع الواسع على أساس التشريع ، وعلى أنواع الثقافه الإنسانية فى ذلك الحين ، وعلى مقاصد الدين الحنيف ، وتطبيق النظريات الأخلاقية فى الحياة العملية . هذا فضلا عن اتساع أفق التفكير ومدارك العقل ، وغزارة العلم ، وتنمية المواهب الطبيعية التى أودعها الخالق فى فطرة الإنسان ...

وقد يكون من المفيد ، أن نذكر فى هذا الفصل بعض أولئك العلماء ، الذين كان لهم الأثر الحسن فى نشر العلم وبث المعرفه ، وهداية الناس إلى أقوم السبل، فى المحافظة على دين الله ، والإشراف على مدارس قامت بمهمة التعـــليم طيلة زمن طويل . .

وإليك أيها القارىء الكريم بعض أسماء أولئك العلماء الأعلام :

- أبو خليل الدَّرْكَلِى
- أبو يحي سليمان بن ماطوس
- أبو القاسم البَغْطورِى
- أبو يحيى الدَّرَفى
- أبو محمد خصيب
- أبو الربيع سليمان بن هارون اللاَّلُوتِى
- أبو هارون بن موسى الجلاَلِى
- أبو محمد يَصْلِيتَن الكباوى
- أبو يحيى زكرياء بن يونس الْفَرْسَطَائِى
- أبو سهل البشر بن محمد

- أبو ذر صدوق الْفَرْسَطَائِى
- أبو معروف جواد بن ويَّار
- أبو زكريا يحيى بن الخير الجناونى
- أبو الربيع سليمان بن هارون البارونى
- أبو يوسف وَجْدَلِيشْ الإِمْلِيلى
- داوود بن هارون
- أبو يحيى توفيق الجَنَّاوِنى
- أبو يحيى زكرياء بن ابراهيم
- أبو موسى عيسى بن عيسى الطَّرْمِيسى
- أبو ساكن عامر بن على الشَّماخى
- أبو يوسف يعقوب بن أحمد بن موسى
- أبو زكرياء يحيى بن زكرياء
- نوح بن حازم المرْساوُنى
- أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد الشَّماخى
- عبد الله بن يحيى البارُونى

ولست أقصد بذكر هذه الأسماء الحصر، فلقد قام عدد كبير من علماء آخرين بمثـل ما قام به هؤلاء أو بأكثر، أو بأقل منهم ، وإنما ذكرت هؤلاء على سبيل المثال .

وفى كتب التاريخ التى تعنى بتراجم الرجال ، يجد الباحث المتقصى بغيته .

قام كل واحد من هؤلاء العلماء وأضرابهم بتكوين مدرسة تعليمية ،

تخرج فيها عدد غير قليل من فطاحل العلماء ، كما أن هذه المدارس كانت مراكز إشعاع تستمد منها الأمة الثقافة والهدى والسلوك ، وتقتبس منها النور والحق والمعرفه . ومن الطبيعى أن تكون هذه المدارس مختلفة فى آثارها ، متفاوتة فى مقدار ما أتاحته للناس من فائدة ، ويسرته من سبيل للوصول إلى الغذاء الروحى الممتع الصافى .

وإذا كانت بعض هذه المدارس فى مبدأ الأمر مهتمة بناحية الثقافة وناحية السلوك ، فكانت تيسر سبل المعرفة للناس ، وتتيح لهم فرص التعليم من جهة ، ومن جهة أخرى كانت تقوم بتوجيه السلوك الجماعى والفردى ، فكانت تسهر على المجتمع ، وتقوم فيه بدروس الوعظ والإرشاد ، داعية له إلى المحافظة على السيرة النقية التى انتهجها الإسـلام ، آمرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر . حتى كان بعض المربين فيها يبعثون بطلابهم إلى القرى ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويدعون إلى سبيل الله القويم ، ليتدرب أولئك الطلاب بالطريقة العملية على هذا الواجب الذى يراه الإباضية من أعظم أركان الإسلام التى لا يستقيم حال أمة إذا لم يقم به أفرادها العارفون ، استجابة لقوله صلى الله عليه و سلم : [ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جندان من جنود الله ، من نصرهما نصره الله ، ومن خذلهما خذله الله ] .

إذا كانت بعض المدارس قد اتجهت إلى هذين الاتجاهين ، فإن مدارس أخرى قد أضافت إلى هذين الإتجاهين اتجاهاً ثالثاً ، كان له خير أثر على التراث الإسلامى ، هذا الإتجاه : هو الاشتغال بالتأليف ؛ ولعل أعظم مدرسة قد امتازت بهذه الظاهرة الرائعة ، فوجهت طلابها إلى هذا المنحى ، فتركت لنا ثروة علمية وتشريعية قيمة ، هى مدرسة أبى موسى عيسى بن عيسى الطرميسى . . .

ولست أعنى بهذا أن العلماء السابقين لم يشتغلوا بالتأليف ، فإن هـذا رأى لا يخطر ببال أحد فيما أظن ، وكثير من الكتب التى كانت تدرس فى زمن أبى موسى عيسى كانت من تأليف العلماء الليبيين فى جبل نفوسـة ، أو فى غيرها ؛ وإنما أعنى أن اتجاه المدرسة نفسها إلى التأليف ، واشـتغال كل الطلاب الذين حصلوا على كفاءة علمية بذلك ، إنما كان فى زمن هذه المدرسة ، وقل أن تجـد طالباً من طلابها لم يشتغل بالتأليف .

ومن الطلاب الذين تخرجوا فيها ، واتجهوا هذا الاتجاه : فيلسوف الإسلام ، العلامة أبو طاهر اسماعيل بن موسى الجيطالى ؛ ومن هؤلاء الطلاب : حجة الإسلام ، ومرجع الفتوى ، وسند الإباضية : العلامة أبو ساكن عامر بن على الشماخى ؛ ومن هؤلاء الطلاب : العالم العامل : أبو غالى أبو عزيز بن ابراهيم ابن يحيى ، وهو الذى شغل مركز أستاذه من بعد فى التدريس وإدارة المدارس التى أنشأها ؛ أو أدارها ، فى كل من « طَرْمِيسَه » « وَمَزْ غورَه » « وأَمْسِينْ » « و يَفْرن » ... وغير هؤلاء كثير ، ربما تحدثنا عنهم فى فصل خاص بالتأليف . . .

وقد ترك لنا فيلسوف الإسلام العلامة أبو طاهر : مكتبة عامرة ، لاتقل قيمة عما تركه فيلسوف الإسلام أبو حامد الغزالى ، واشتغل بالتدريس فى بعض الأحيان ، إلا أن عنايته كانت منصبة إلى التأليف ، وإلى إلقاء دروس الوعظ والإرشاد ، والتوجيه ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وذلك لأن العصر الذى يعيش فيه كان يستدعى منه هذا الجانب من الكفاح ، فقد بدأ فى كثير من الجهات الانحلال الدينى ، والتفسخ الخلقى ، والانصراف إلى المادة فى إقبال نهم ، كذلك لجأ إلى كفاح الباطل الذى أراد أن يستعلن ويطغى ،

ويتحول بالأمة المسلمة عن الاتجاه الذى دعاها إليـــه صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ،

أما أبو ساكن الشماخى : فقد اتجه إلى تأليف الرجال ، وقد تخرج عنه عدد غير قليل من فطاحل العلماء ، ولم يشتغل بتأليف الـكتب إلا قليلا ، ومن هذا القليل : كتابه القيم المسمى بالإيضاح ، فى أربعة أجزاء كبيرة ، و يعتبر من أهم المراجع فى التشريع الإسلامى ، يندر أن تجد له مثيلا .

أما أبو زكرياء يحيى بن العز ، فقد اشتغل بالتدريس والتأليف معا ، وقد ترك آثاراً قيمة تضاف إلى المـكتبة الإسلامية العامرة .

استمرت حركة التأليف نشيطة منذ وجه أبو موسى عيسى طلابه إلى ذلك ، فألفت مجموعة من الـكتب القيمة ، من طلاب أبى موسى ، ثم من طلاب أبى ساكن ، ومن غيرهم من الطلاب ، وامتدت هذه الحركة العلمية المباركة فى هذين الاتجاهين ، إلى أن وصلت إلى العلامة المصلح الـكبير عبد الله بن يحيى البارونى ، كما أن الاتجاه الثالث قد سار أيضاً على المنوال الذى وضعه أبو طاهر ، فقد استمرت حركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، والتوجيه الاجتماعى ، نشيطة ، إلى أن بلغت ذلك العصر أيضاً ، وفى كل هذه الفترات المتعاقبة التى يسلم فيها رسالة التعليم عَلمَ إلى عَلمَ فى أمانة وحرص ، كان يقوم إلى جانب ذلك مؤمن شديد فى دين الله ، قوى على آداء أمانة الإسلام ، حريص على المحافظة على حدوده . وفى الزمن الذى كان العلامة عبد الله بن يحيى البارونى يقوم برسالة التعليم ، ويوجه حركة التأليف ، كان العلامة عمرو بن عيسى التَّـنْدّميرتى يقوم بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، والمحافظة على دين الله ، ومحاربة البدع ، والخرافة ، فى صرامة وشدة . ولست أعنى بهذا ، أن كلا الرجلين مستقل عن الثانى ، بعيد عن عمله ، لست أعنى ذلك ؛ و إنما أعنى أن الإمام عبد الله البارونى ، وأسلافه

الذين سار على نهجهم ، كانت مهمتهم بالدرجة الأولى : هى التعليم ؛ ولكنهم مع ذلك لا يسكتون عن منكر يرتكب ، أو حق يضاع ، وأن العلامة التندميرنى وأسلافه الذين سار على طريقتهم ، كانت مهمتهم الأولى هى التوجيه الدينى ، ومحاربة الإعراض عن الحق ، وعن دين الله ، ولكنهم مع ذلك كثيراً ما كانوا يتولون التدريس ، وكل ما فى الأمر أن بعض أولئك العلماء الأعلام يتجهون من أول الأمر إلى تنشئة الأطفال ، وتربية الأجيال ، وتسهيل سبل العلم للشباب . . .

وأن البعض الآخر يتجهون من أول الأمر إلى إصلاح المجتمع ، ونشر الوعى الدينى والخلقى بين الكبار ؛ فى المساجد ، والمجامع ؛ فكانت الحركتان متساندتين متعاونتين ، تكمل كل واحدة منهما الأخرى ؛ على أن العلماء من الفريق الأخير يجدون فراغاً من الوقت أكثر من زملائهم ، ولذلك فقد كان إنتاج أبى طاهر فى التأليف أكثر من إنتاج أبى ساكن ، وكان إنتاج التندميرتى فى هذا الميدان أكثر من إنتاج أستاذه وزميله البارونى .

# أبو خليل الدَّرْكلي (١)

« دَرْكلْ » كانت قرية جميلة تقع على قمة جبل شامخ بين الجزيرة وأم صَفَار ، ترنو فى زهو وإعجاب إلى السفح الفسيح الذى يمتد بين الجبل والبحر، تشقه أودية خضر تتلوى كالأفاعى المسحورة ، وفى هذه القرية الجميلة نشأ أبوخليل صالْ الدَّرْكَلِى ! ...

نشأ طالباً من أنجب الطلاب ، يرافق فتية من أترابه إلى الجزيرة ليغترفوا العلم ويقتبسوا الخلق ، ويأخذوا السيرة العطرة من أبى المنيب محمد بن يانس ، وفى هذه المدرسة العظيمة التى خرجت مجموعة من أعلام الإسلام تخرج أبوخليل .

اقتدى أبو خليل بأستاذه فى علمه وعمله وسيرته فأسس هو الآخر مدرسة كانت خيراً وبركة ، وفى هذه المدرسة التى أسسها الدركلى وتولى التدريس فيها زمناً غيرقصير تخرج العلامة الكبير، نذير زمانه ،أبوذرأبان بن وسيم النفوسى.

كان أبوخليل صالْ من أولئك الأفذاذ الذين يملكون إرادة دونها الحديد ، وعزماً لاينتهى دون الغاية ، وجداً متواصلا فى عمل الخير .

كان يقول للطلبة : احضروا المجالس يا كسالى ، فقد حضرها من حضرها ، ما يعوقه ما بينه وبين قابس وما بينه وبين فزان ، حتى وقع قطاع الطرق عليه فجرحوه سبعة عشر جرحاً ، والتجأ إلى مغارة فمكث فيها حتى شفى من جراحه ، ما أكل ولاشرب إلا مايراه فى الحلم ، ثم خرج من مغارته تلك ،وواصل طلبه للعلم ، حتى بلغ الغاية ، وأصبح مرجعاً ؛ ومع أن أبا خليل لم يذكر اسم وصاحب

---

(١) ذكره أبوزكرياء فى الطبقة الخامسة : فهو من علماء النصف الأول للقرن الثالث .

القصة إلا أن الطلبة كانوا يعرفون أن صاحب القصة إنما هو أستاذهم أبو خليل .

وكان من أكثر الناس عبادة ومحبة للصلاة ، ينطلق فى ظلام الليل إلى المسجد يمكث فيه ما شاء الله ؛ يصلى ويطيل فى ذلك ، وقد يعود من قريب ، فسألته زوجته عن اختلاف أحواله وإطالته الصلاة فى بعض الليالى ، وتقصيرها فى بعض الليالى الأخرى ، فقال لها ، إن للنفس إقبالا وإدباراً ، فإذا وجد المؤمن فى نفسه إقبالا اغتنم واجتهد ، و إذا لم يجد ذلك فى نفسه تمسك بالفرائض وأداها حتى ينشط ، لئلا يمل .

وقد تكلف أنواعا من العبادة لا يقوى عليها غيره فقد يجعل ليلة كاملة فى ركعة واحدة وقد يجعلها فى سجدة واحدة ...

قد يبتسم بعض الناس ساخرين وهم يقرأون هذه الكلمات ، ويقولون فى أنفسهم : ولماذا هذا العذاب ، والله لم يكلف البشر إلا ما يطيقون ؛ والجواب على هذه الابتسامة الساخرة ، تعرفه من أحوال أصحاب الإرادة القوية ، الذين يخضعون قوى أجسامهم لإرادتهم ؛ فهم لا يجدون من المشقة إلا ما نجده نحن من الأحوال العادية ؛ ذلك لأنهم راضوا أجسامهم وأخضعوها لمطالب أرواحهم ، ثم إن فى أخبار هذا الشيخ نفسه الجواب على هذا التساؤل ، فإن الرجل الذى تقوى عنده الإرادة هذه القوة فيتغلب على مطالب الجسد هذا التغلب ، ويرتحل بين ليبيا والقيروان ، وبين ليبيا وفزان عدداً غير قليل من المرات لأجل طلب العلم ، و يقع عليه معتدون آثمون ، فيجرحونه سبعة عشر جرحاً ، يصبر لها فى الصحراء حتى تندمل وتبرأ دون غذاء أو علاج ثم يواصل بعد هذا العناء كفاحه من أجل العلم .. إن رجلا يملك هذه الروح حقيق أن يأتى بالأعاجيب ، ونحن لو تأملنا حديثه مع زوجه الوفية لاستطعنا أن نعرف كيف تربى النفوس ، وكيف يغنم

المؤمن أوقاته كلها فى الصلاح ، فعندما يجد النفس عازفة عن العمل مدبرة عن القيام بأعمال النفل يرجع إلى البيت ليقضى حقوق الأسرة ، فيحادث الزوجة ويداعب الأطفال . إنه يؤدى واجبات الزوج والأب ، وعندما تأذن ساعة الكفاح لنشر العلم بين الطلاب ، وإصدار الفتاوى وفصل المشاكل بين الناس ، ينطلق إلى هذا الميدان وكله قوة وعزم ، إنه يؤدى حقوق المجتمع والأمة ، وعندما تهفو روحه الزكية إلى مناجاة ربه ينطلق إلى المسجد ، فيودى واجبات المؤمن التقى : تلك الواجبات التى درب عليها نفسه ، فكانت فيه ملكة لا يحس معها بالتعب أو السأم ، وهو ساجد لله يسبح بحمده ، ويقدس له . فإذا قضى حق ربه ، واطمأنت نفسه . انطلق الى الكفاح ؛ الكفاح من أجل الأمة ، أو الكفاح من أجل الأسرة ...

# أبو القاسم البَغْطُورى (١)

« بَغطورَة » مدينة منبسطة على مرتفع سهل من أراضى الحرابة اليوم ، بين جَـريجَـنْ وتمنـكرْتْ « بَقيقيله » وفى هذه المدينة التى لم يبق منها إلا أطلال مساجد تشهد للتاريخ بما كان للسلف — نشأ أبو القاسم سَـدراَت بن الحسن البَـغْـطورى فى بيئة مؤمنة ، عالمة بدين الله ، عاملة ، به ، حريصة على الاغتراف من مناهل العلم الصافية .

قال فيه أبو العباس : « بقية الحافظين ، واعتماد أهل الدنيا والدين ، بل كان من الراسخين ».

درس فى مدرسة أبى ذر أبَـانْ بن وَسِـيم فى « وِيغو » ومنه تلقى العلم وفيها تخرج ، ثم كون مدرسته فى هذه المدينة المنبسطة على ذلك المرتفع الفسيح ، الذى تنحدر منه شعاب تزدان بأشجار الزيتون والنخيل .

صار أبو القاسم مرجع الفتوى والتدريس بعد وقعة مانو التى أكلت رجال العلم وأبطال الـكفاح . أما هو فلم يحضر تلك الحرب الضروس لـكبر سـنه ، وكان قد تجاوز المائة حينئذ ، وبارك الله فى عمره فعاش مالا يقل عن مائة وثلاثين سنة ، ضعف فيها جسمه ووهن عظمه ، ولـكن عقله النير كان يزداد استنارة وعلمه الغزيز يزداد غزارة . ولسانه الفصيح يزداد طلاقة . قضى هذا العمر الطويل فى نشر العلم وبث المعرفة وتهذيب النشء ، وتعليمهم سيرة السلف الصالحين .

---

(١) ذكره أبو زكرياء فى الطبقة السادسة : فهو من علماء النصف الثانى للقرن الثالث

كان مرجعا فى جميع فنون العلم ، وقد كافح بعد وقعة مانو كفاح الأبطال لتكوين جيل جديد ،يتحلى بما يتحلى به أسلافه من خلق وعلم ودين ، ولم تمض السنوات الثلاثون الأخيرة من عمره المبارك حتى كان له شباب لا يقلون عمن سبقهم علما وخلقا وشجاعة ، وتبوأوا الأماكن الخالية التى كان يشغلها أبطال أكلتهم حرب مانو المسعورة .

ولحاجة الناس إليه لدروس الوعظ والإرشاد ، كانوا ينقلونه من مسجد إلى مسجد محمولا ، ولاتزال إلى اليوم أخبار تتناقلها ألسنة العوام عن شيخ ينقل من مسجد ،إلى مسجد وإن كانوا لا يعرفون الشيخ ولا العصر الذى عاش فيه .

قال له طلابه يوماً انكتب عنك ما سمعنا ؟ فقال : « اكتبوا ولو بأقلام النحاس : صُمَّتْ أذن نسِيَتْ ما سمِعتْ » .

لقد كان لا يمل من التعليم ، ولا يمل من رواية السير والتاريخ كما كان فى عهد الدراسة لا يعرف للتعب معنى ، ولا يذوق للنوم طعما إلا غراراً فى الأوقات التى يأوى فيها الناس إلى النوم ، ويشبعون تقلبا فى المضاجع .

كان حريصاً أن لا تفوته دروس أستاذه أبان حتى دروس الوعظ والإرشاد التى يلقيها ذلك العلامة الكبير فى المسجد العامر ، فكان يقطع المسافة الطويلة بين بَغطورَة وَويغو كل ليلة ، فيحضر صلاة العشاء الآخرة ، يستمع إلى الدرس العام الذى يلقى فى المسجد بعد الصلاة ، ولم يحدث أن تأخر عن صلاة الجماعة وحضور هذا الدرس العام إلا مرة واحدة ، سبقه فيها شيخه إلى المسجد ، ولم تتكرر تلك الحادثة قط حتى تخرج البَغْطورى واشتغل بالتدريس .

إن المسافة بين بَغطورَة وويغو لا تقل عن ستة أميال ، ومع ذلك فإن

البَغْطورى عندما التحق بهذه المدرسة لم ينقطع عن الدراسة ، ولم يتكاءده تسلق الجبال وهبوط الأودية حتى بلغ الغاية وظفر بالمراد .

وهذه الإرادة القوية والعزيمة الصادقة التى تحمل النفس على ما تكره هى نفس الإرادة التى لا تخاف لومة لائم فى دين الله ، ولا تهادن عدوا من أعداء الله ، مهما كانت الظروف والملابسات . .

دعاه رجل من أهل تِمَنْكَرْتْ ليبيت عنده ، فكان يسير معه حتى لقى يهوديا ، فقال له التِمَنكَرْتى : مرحبا ، مرحبا ، وأظهر له الفرح والبشاشة فغضب البَغْطورى من الترحيب بعدو الله ، وقال لصاحبه : لا رحب الله بك ولا به ، ثم قفل راجعاً . . .

إنه موقف المؤمن الذى لا ينظر إلا إلى الله ، ولا يعمل إلا بكتاب الله .

**« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم »**

كان أبو القاسم قوياً فى إيمانه ، قويا فى أخلاقه ، قويا فى صبره واحتماله »

افتقد الناس العلماء بعد وقعة مانو ، فتواردوا على أبى القاسم من كل مكان وكان شيخا هرما ولكنه صبر لأسئلتهم ، فكان يتململ فى مجلسه وهو يجيب على الأسئلة التى توجه إليه ويقول : الكِبَرَ عيب ، و بلغه نعى ولده فى وقعة مانو فدخل على زوجته وقال لها : إن صدقت الناعى كما صدقته فاعتدّى ، وكان ذلك كل ما أبداه من الحزن والأسف .

وتزوج آخر عمره امرأة كان يأمل أن تحفظ عليه شيخوخته ، ولكنها كانت امرأة سوء ، فاحتملها الله وحفظته ابنة أخيه جانا ، فكانت تقوم له بكل لوازمه من غسيل وطعام وغير ذلك ، حتى لحق بربه . . .

# أبو يحيى الفرسطائي (١)

فرسطاء هى اليوم قرية صغيرة ناتئة فى صدر جبل عال كأنها ثدى عملاق ، وقد كانت — من قبل — مدينة كبيرة تتناثر منازلها على صدر الجبل وجوانبه وقمته ، وفى هذه القرية التى يهدهدها هذا الجبل الشامخ فى حب وحنان نشأ أبو يحيى زكرياء بن أبى القاسم يونس الفرسطائى على ما نشأ عليه زملاؤه من أهل هذه القرية العامرة بالإيمان ، محباً للعلم ، مجتهداً فيه ، ولما أخذ مبادىء العلم عن شيوخ مدينته ورغب أن يتم دراسته ، ذهب إلى عاصمة الجبل شروس ليلتحق بالمدرسة العظيمة مدرسة ابن ماطوس ، ولكن العاصمة الكبرى ضاقت به فقد امتلأت الأقسام الداخلية التابعة للمدرسة ، حتى لم يبق بها مكان ، ورجع إلى أهل المدينة فلم يجد مسكناً فى أكبر مدينة بجبل نفوسة ، لأن جميع المنازل غصت بالطلاب الذين يقبلون على اغتراف العلم من منبعه العذب . وحار الطالب الذكى فى مصيره ، وذهب إلى ابن ماطوس يستشيره فى أمره ، فأسف الشيخ الكبير أن يحرم هذا الطالب النجيب من الدراسة فى مدرسته لأنه لم يجد مسكناً فى مدينة تحتوى على آلاف المنازل ، وقال له ناصحاً : إنى أدلك على من لو عرفه الناس لتزاحموا على بابه كما تزاحموا على باب أبى عبيدة فى البصرة ، عليك بأبى هارون الجلالمى ! ...

والتحق الطالب الذكى بهذه المدرسة التى لم تزل ناشئة لم يكثر عليها الإقبال، ولكنها ما فتئت أن أصبحت من أعظم المدارس التى قدمت للأمة المسلمة

---

(١) ذكره أبو زكريا فى الطبقة السابعة : فهو من علماء النصف الأول للقرن الرابع .

الخير الكثير وصدقت فراسة ابن ماطوس ، فتزاحم الناس على باب أبى هارون الجلالى، كما تزاحموا على أبى عبيده ، وكما تزاحموا على ابن ماطوس ، وكما تزاحموا على منابع العلم فى كل مكان . . .

درس أبو يحيى فى هذه المدرسة ، ومنها تخرج وكون مدرسته فى القرية الجميلة القائمة على صدر الجبل . وفى هذه المدرسة تخرج عدد غير قليل من العلماء الأعلام من بينهم أبو محمد خصيب بن ابراهيم .

كان أبو يحيى قويا فى دينه ، قويا فى علمه ، قويا فى خلقه ، قويا فى بدنه ، لقد أضفى عليه المولى نعمة القوة فى كل أحواله ، وكان دائم الكفاح لا يمل ولا يفتر، يعمل فى حقوله ومزارعه كما يعمل الفلاحون المخلصون لمهنتهم، ويعمل فى مدرسته كما يعمل المدرسون المخلصون لرسالتهم ، ويعمل لربه كما يعمل المخلصون فى عبادتهم .

وكان داعية خير وهدى ، لا يكف ولا يمل عن الدعوة الى الله ، فإن كان بين المسلمين دعاهم الى فهم دين الله والتمسك بهدى محمد صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه ، وسيرة الصالحين من المؤمنين ، وإن كان بين أقوام لا يؤمنون بالله دعاهم إلى الإيمان وحبب إليهم الإسلام .

سافر يوما إلى بعض بلاد السودان — وكانوا وثنيين — فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام حتى بلغ أمره إلى ملكهم، فاستدعاه ، ولما ورد أبو يحيى على الملك ألفاه ناحل الجسم، ضعيف القوة ، فسأله أبو يحيى عما به ؟ فقال الملك : إن هذا من خوف الموت فدعاه أبو يحيى إلى الإيمان بالله ، وأخبره بالجنه والنار، ووصف له أحوال

المؤمنين فى دار الخلود وما أعد الله لهم من خير ، ولـكن الملك أرتاب فى أول الأمر ، وقال له : لوصح عندك ما تقول ما بلغت إلينا فى طلب الدنيا ، فلم يزل أبو يحيى يذكره آلاء الله ونعمه ، ويذكر له أن الله دعا المؤمنين إلى الضرب فى الأرض ، والسير فى الآفاق ، والنيل من طيبات الرزق ، حتى أسلم وحسن إسلامه .

والمؤمن الصادق لا يكف عن الدعوة إلى الله فى أى مجتمع كان ، فلا يفر بنفسه عن الناس ، إنه لا يفر إلا الضعيف الذى يخاف على نفسه ، والضعيف لا يستطيع أن يؤدى رسالة ، أو يبلغ دعوة ...

# أبو محمد التَّمْصَمِصِي

تَمَصْمَص قرية تقع جنوب طَمْزين قريبا منها ، وقدعفى عليها الزمن ومحت أطلالها وأنقاضها ، ولم يخلدها التاريخ إلا بنسبة عدد من الأعلام الذين أنجبتهم ، إليها .

نشأ أبو محمد خصيب بن ابراهيم التمصمصي في هذه القرية التي تقع على منبسط من الأرض ، تحيط بها غابات كثيفة من شجر الزيتون والتين . وفيها تلقى المبادىء الأولى من دراسته ، ثم التحق بمدرسة أبي يحيي الفرسطائي، ولكنه كان يحس في نفسه ظمأ إلى مزيد من المعرفة ، فذهب إلى « لالوت » موضع الأشياخ والعلم ، كما يقول أبو العباس، والتحق بمدرسة أبي الربيع سليمان بن هارون اللالوتي، فأتم هناك دراسته ، وتخرج منها علما من أعلام الإسلام ، ومرجعاً من مراجع الثقافة ، وسنداً قوياً للمؤمنين في الاهتداء والهداية إلى طريق الله القويم .

بعد أن تخرج رجع إلى بلده تمصمص ، وهناك أسس مدرسته الشهيرة التي تخرج منها فطاحل العلماء ، وحسبها أنها المدرسة التي درست فيها العالمة البطلة أم ماطوس ، التي تغلبت على إرادة البيئة من أجل طلب العلم ، والتحقت بهذه المدرسة العظيمة ، فكانت تحضر إليها من « جَارْ إصْرَا » والمسافة بين المحلين ليست قريبة ، ثم أصبحت ممثلة للمرأة في المجالس العلمية التي يعقدها المشائخ للمناقشة والدراسة في مختلف المحال ، فلا تغيب عنها — سواء انعقدت في جناون أو في « تَنْدُوزِيغْ » — أو في غيرها من الأماكن . .

---

(١) ذكره أبو زكرياء في الطبقة السابعة : فهو من علماء النصف الأول للقرن الرابع

كافح أبو محمد من أجل العلم — دارسا ومدرساً — بكل ما أوتى من جهد وقوة وإخلاص، وكان كريما، يبذل ما يصل إلى كفه من مال، فقد كان لايجعل للدنيا حسابا، ولا يعرف للمال قدراً، ومهما دخل يديه من ثروة سواء كانت هـذه الثروة نقوداً أو كانت ماشية أو كانت محاصيل زراعية، فإنها لن تبقى عنده أكثر من سنة، وقد يدخل يده فى بعض السنوات ألف مودى[1] من الحبوب، فما تتم السنة حتى ينفق هذه الثروة الطائلة من الحبوب ولا يبقى عنده شىء من المال، وكثيراً ما عاتبه ولده، وعاتبته زوجه على هذا الانفاق، ولـكنه لم يكن ليستمع إلى كلامهما، فإن من طبع على خلق الـكرم وتعود الانفاق، لا يملك نفسه عن البذل عندما تتهيأ ظروف المعروف. وكم طالبه ولده أن يشترى الأملاك الثابتة حتى يخلفها له كما يخلف الآباء لأبنائهم، ولـكن أبا محمد لم يستجب لهذا الطلب الذى لايوافق طبعه، ولايجرى على خلقه، قال له ولده يوما: إنك لست بكيّـس يا أبتاه!... فأجابه الشيخ: الـكياسة يابنى عدوة الاسلام، ومعروف أن الـكياسة المقصودة فى هـذا الحوار تعنى الشح والتقتير والإدخار وتأثيل الأموال.

عاش أبو محمد فقيراً، لأنه ينفق جميع الأموال التى تصل يده فى وجوه البر وعندما كبر وامتدت به الحياة، وضعف عن الـكسب، احتاج إلى المساعدة.

ولقى رجلٌ من الذين لا يغفلون عن الأمر بالمعروف، لقى هذا الرجل أباعبدالله محمد بن جنون كاتب أبى زكرياء فقص عليه أخبار أبى محمـد التصمصى والحالة المؤسفة التى وصل إليها من الفقر والضعف والشيخوخة. فأسف أبو عبد الله وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون!.. لى مال ومثل هذا الشيخ الذى هو جرثومة

(١) المودى اثنتا عشرة ويبة: والويبة تزن حوالى ( ٦ ) كيلو جرام.

من جرائم الإسلام تصل إليه الضيعة . ثم وضع يده فى جيبه فوجد فيه واحداً وعشرين ديناراً فأعطاها للرجل وطلب منه أن ينفقها على الشيخ ، فإذا نفذت رجع إليه ، ورجاه أن لا يخبر أحداً بحاجة الشيخ ، ولا بمساعدة أبى عبد الله له .

وذهب الرجل بهدية الصديق إلى أبى محمد ، فلم ينس أبو محمد طبعه الذى دأب عليه منذ عرف الخير والشر ، ولذلك فما تسلم المبلغ حتى أخذ منه دينارين أنفقهما فى سبيل الله ، وما أتم الباقى من المبلغ حتى توفاه الله إليه .

وكان أبو عبد الله محمد بن جنون ذا علم وفصاحة وبراعة فى النقاش ، لا يقوى على نقاشه أحد من العلماء ، ولكنه إذا حضر مجلس أبى محمد خصيب التمصمصى وقف منه موقف التلميذ من الأستاذ ، لا يرفع إليه بصره ، ولا يناقشه فى سؤال . وهذا الموقف من أبى عبد الله يدل على مكانة الشيخ الكبرى .

درس على أبى محمد خصيب عدد غير قليل من كبار العلماء ، ومن أنجبهم أبو زكرياء يحيى بن سفيان اللالوتى . أما فتاواه ومواعظه وتوجيهاته وأقواله فى الفقه فقد بلغت كل مكان ، وامتلأت بها بطون الكتب .

# أبو يوسف وَجْدَلِيش [1]

«يوجْـلين» قرية واقعة على زاوية مثلث من جبل شامخ متجه إلى مغرب الشمس . وعلى القدم اليسرى لهـذا الجبل الشامخ الضارب فى الهواء تستلقى جَنَّـاوَنْ الجميلة . والواقف على قمة هذا الجبل فوق الأبراج المتينة التى شادتها هنالك سواعد الأجداد القوية ليحرسوا منها مدخل جناون يشاهد مدينة « مزغورَةْ » رابضة فوق منبسط فسيح من الجبل المقابل ، فإذا انحطت عيناه إلى الشمال قليلا رأى فى السفح قرية «شَـكْـشُـوك» كأنها نجمة يحيط بها هلال أخضر من نخيل ، ومن هنا وهناك حول هذه القرية الجميلة تنحدر أودية خضراء ملتوية ، تتقارب وتتباعد حتى تذوب فى الأرض المنبسطة التى تتـكون منها حقول القمح والشعير .

وفى هذه القرية . وعلى رأس هذا المثلث ، ولد أبو يوسف وَجدَلِيشْ ابن فِى ، وصافحت عيناه النور ، وتمتع منذ صغره بالجمال الذى أضفاه الخالق على طبيعة هذه المنطقة . وهل أجمل من أن يقف الإنسان فى « يوجْـلين » ويستدير ببصره من اليمين إلى اليسار ، ومن اليسار إلى اليمين ؟ يرمى ببصره إلى الشرق فيمتد بين غابة زيتون ونخيل تحجب لون الأرض بخضرة داكنة ، فإذا استدار قليلا طالعته المبانى العالية « للقصير ، وأشبارى ، وجادو » متراكبة كأنها ناطحة سحاب من صنع الخالق ، ومن هناك ينزلق بصره إلى « تموقت » التى تقع فوق سرة هذا العملاق العظيم ، ومنها ينبع النهر الخالد الذى يروى الناس والشجر ، وعلى قدمى هذه القرية الصغيرة ملاءة خضراء من شجر النخيل والأعناب والتين ،

---

(١) ذكره أبو ذكريا فى الطبقة الثامنة : فهو من علماء النصف الثانى للقرن الرابع .

وتحتها تستلقى جناون فى استرخاء كأنها تغط فى حلم لذيذ، يتصاعد أمامها إلى الجنوب وادى جناون الجميل، فيكون شلالا فى «مَاصرْ»، وينعقد بحيرة فى الزرقاء، ومن هذه البحيرة التى لا تزال إلى اليوم مصيفا لسكان الجبل ومقصداً للسواح الذين يزورون ليبيا . من هذه البحيرة ينحدر الوادى وترتفع عينا الناظر مع الجبل المقابل فيجد مدينة «جمارى» التى تسكنها جدة المشائخ «مارن» «وندْ بَاسْ» التى يقبع فيها أبو نصر، ثم «مزغورة» التى ترتفع منها صومعة أبى زيد، كما ترتفع المنارة الحدباء، فإذا استدار إلى الشمال انحطت عيناه على أرض الجفارة الفسيحة التى تشبه أن تكون زربية بسطتها هنالك قدرة الخالق فى أيام الربيع .

على هذه القمة وبين هذه المناظر الفاتنة، نشأ أبو يوسف جميلا، صريحاً، حنوناً، يملأ قلبه الكبير حب للحق يستولى على مشاعره، فكان بذلك مؤمنا من أولئك المؤمنين الذين ينطبق عليهم قوله تعالى : «**أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**» يعرف الحق ويسير معه أنى سار لا تأخذه فى الله لومة لائم . أخذ على نفسه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . فقام بهذه الفريضة كأحسن ما يقوم مؤمن بواجب من واجبات الدين، لا يعرف الغفلة ولا المسايرة ولا المداهنة فى دين الله، حتى إذا قام الحق واستقام الناس على الطريق، وغلب أمر الله، لزم نفسه، فكان ألين الناس خلقا، وأطيبهم نفساً، وأكثرهم حبا وحناناً للمسلمين وعلى المسلمين.

جُعل إليه أمر السوق فى «جادو» خوفا من أن يقصده أولئك الذين دخلت أموالهم الريبة من الأموال المغصوبة التى يبتزها الحكام الظالمون وأتباعهم، أو الأموال المنهوبة التى يسرقها أقوام لم تطمئن قلوبهم بالإسلام، ولم تخضع

جوارحهم لأحكام الله ، فكان لا يستطيع أحدٌ أن يبيع شيئاً فى مدن الجبل إلا بعد أن يعرف مصدر ذلك المال .

وكان أبو يوسف رقيباً فطنا فى سوق جادو فما يستطيع أحد أن يبيع شيئاً إلا إذا أذن له ، ولا يأذن أبو يوسف إلا إذا تحقق من مصدر ما يبيعه الناس ، وعرف أن هذا المال لم تدخله ريبة ، ولم يملكه صاحبه من حرام ، ولم يتعامل مع أصحاب الشبهة .

جاء رجل من «إيَنر» بغنم له ليبيعها فى «جادو» فاستأذن أبا يوسف فى البيع، فسأله أبو يوسف عن نسبه ونسب غنمه ، ولما اطمأن إلى أن صاحب هذه الغنم ممن لا تتطرق إليهم الشبهة سمح له بالبيع، وجاءه من بعده رجل من «أَغلْ» يستأذنه فى بيع غنم ، فسأله عن أبيه ، فلما عرفه وتحقق أنه يتعامل مع المشبوهين غضب عليه وانتهره قائلا : أفى سوق جادو وتبيع حرَامَ أبيك ؟!..

ولم يزل به حتى أخرجه من جادو ولم يتركه حتى أوصله إلى ماطَس(١) .

وقد جمع إلى هذه القوة فى أمر الله ، العلم بدين الله ، والحب فى ازدياد المعرفة حتى وهو كبير ، فكان إذا ذهب للعمل يأخذ معه أداة العلم من كتاب أو لوح ، فيختطف لحظات من الوقت وهو يشتغل ليراجع مسألة ، أو يردد شيئا مما يود استظهاره من فنون العلم .

وقد جلس للتدريس ، وأخذ عنه العلم خلق كثير ، أما هو فقد درس على أبى يحيى يوسف بن زيد الدرفى، وأبى نصر زار بن يوسف التِّفَسْتِى، وغيرهم .

---

(١) اسم موضع إلى الشرق من جادو بنحو نصف ميل .

كان يحضر مجالس العلم فى دار بنى عبد الله فى جادو ، فإذا انتهى المجالس رجع إلى منزله فى «يُـوجْـلين» ، وحقد عليه قوم ممن لم يتركهم يبيعون أموالهم المسترابة فى سوق جادو، فكمنوا له فى الطريق فى إحدى الليالى، ولما أراد منزله ، خرجوا عليه من مكمنهم فجرحوه بضعة عشر جرحاً ، ولما حضر المشائخ إليه فى الصباح وحاولوا أن يعرفوا منه أسماء القوم المعتدين امتنع عن ذلك، ولم يرض أن يداوى فتنه بفتنة ، واحتسبها لله .

ولـكن هذا الموقف الظالم لم يمنع الشيخ من القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر، ولم يمنعه من حضور مجمع العلم فى دار بنى عبدالله، ولا من الصلاة فى «إمَصْـرا تَنْ» الجامع الذى بنته نفوسه كلها ، والذى يعقدون فيه اجتماعاتهم إذا حزبهم أمر أو أهمهم شأن ...

# أبو زكريـا (١)
# يحيى بن الخير الجنَّاوْني

جناون مدينة غناء تستلقى فى دلال على أقدام جبل أشم وتلعب على سرته القرية الظريفة الضاحكة « تَموُقَتْ » وتجثم على صدره من الجانب الأيمن بلدة «القُصَيْرُ» الجميلة ، أما هامته المرتفعة التى تناجى السحب فتتوجها مدينة جادو، العظيمة الحديثة .

أما كتفاه القويتان فقد وقفت على إحداهما « مَزُو» وعلى الأخرى « يوجلين » تصفق الأولى « لِلْجُمَّارِى» وتبتسم الثانية « لِمزْغُورَة» .

وفى هـذه المدينة الحالمة المسترخية على أقدام الجبل متلفعة بغـلالة خضراء نسجتها يد الطبيعة الساحرة ، تخترقها جداول المياه المنحدرة مع شلال القصب «إيفَانِيمَنْ » نابعة من نهر « تَموُقتْ » الثرَّار ، وتحيط بها الأشجار الباسقة الكثيفة من زيتون ونخيل وكروم، وتناجيها الشمس الغاربة على صومعة أبى زيد، فتبعث إليها قبلات المساء مع الأشعة الصفراء الدافئة . . .

فى هذه المدينة الجميلة الفسيحة التى كانت منبعاً من منابع العلم ، ومركزاً من مراكز الإيمان ، وحصنا لإنتاج الرجولة والبطولة والفداء ، فى هذه المدينة التى استعصت على قوى الميُورْقِى حين طاش به الغضب ، وظن أنه أوتى من القوة ما يقضى به على الحياة ، فأضرم النار ليحرق هذه المدينة وما يحيط بها من أجنة وبساتين ، فاحترق مايزيد عن إثنى عشر ألفا من شجر الزيتون ، ولـكن جناون

(١) ذكره أبو زكريا فى الطبقة التاسعة : فهو من علماء النصف الأول للقرن الخامس .

بقيت صامدة له وللتاريخ؛ وقد أحرق التاريخ الميورقى وأضرابه من الظلمة ، بعد أن أحصى عليهم جرائمهم ، و بقيت جناون تبتسم للحياة ...

فى هذه المدينة العظيمة نشأ أبو زكرياء يحيى بن الخير بن أبى الخير الجناونى ، تظهر عليه مخايل النجابة ، وتسطع على جبينه أشعة الصلاح ، وتدل حركاته وكلماته على الذكاء والعبقرية منذ الصغر ، وقد رُبى تحت رعاية جده أبى الخير ، فغذى عقله بالمعرفة ، وملأ قلبه يالإيمان ، وعوده السير على هدى الإسلام ، فبلغ شهرة علمية لم يصل إليها جده .

وقد عكف على تأليف الكتب ، فزود المكتبة الإسلامية بعدد من النفائس تزدان بها رفوفها العامرة ، ولقد أصبح مرجعا يقبس منه العلماء والطلاب ، ويرجع إليه الباحثون والمتطلعون إلى المزيد . .

درس فى المدينة العلمية «إِبَنَّـاينْ» على العلامة أبى الربيع سليمان بن أبى هارون البارونى ، ولما أتم دراسته هناك ورجع إلى بلده جناون ، اسندت إليه الفتوى ، فكان نعم المفتى ، لا يعبأ بجواب ، ولا يقف فى سؤال . ولا يعسر عليه حل مشكلة من مشاكل المعرفة .

وكان سمح الخلق ، لين العريكة ، كريم اليد ، ولكنه مع هذه الصفات اللينة كان شديدا فى الحق لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يؤثر عليه موقف من المواقف ، يقول فيه أبو العباس الشماخى : «كان اعتماد أهل نفوسة على كتبه ، حفظا وفتيا ، لكونه أودع فيها المأخوذ به من الأقوال ، وربما ذكر الخلاف ، وهى كتب مفيدة فى الأحكام . » وإن رجلا يحوز ثقة أمة فتعتمد كتبه فى دينها وأحكامها ، رجل بلغ الغاية .

وهو إلى إلى هـذا الاطلاع الواسع ، والعمل المتواصل فى التأليف ، كان جم النشاط ، موصول الجهد فى نشر العلم وبث المعرفة ، وقد درس عليه كثير من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان ، ويرجع إليهم فى عويص المسائل ، ومعضلات المشاكل .

أما حرصه على التعلم وجده فى الدراسه ، وإقباله على الإطلاع ، فقد كان مضرب الأمثال بين الأقران ويكفى أنه بقى فى إبنائن مدة دراسته على أبى الربيع ، لم يجد من وقته فراغاً يقضيه فى التجول بين أحياء المدينة ، أو الإطلاع على البيئة التى تحيط به ، فلما أتم دراسته وأراد الرجوع إلى بلده ، استأذن من شيخه أن يقوم بجولة يطلع فيها على ما لم يعرفه من البيئة التى قضى فيها زمنا غير قصير من عمره المبارك ، وأن يدخل إلى القسم المخصص للنساء فى المسجد العامر ، الذى كان محلا للعبادة ، عامراً بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، كما كان مدرسة تؤدى رساله التعليم للكبار فى دروس الوعظ والإرشاد ، تثقف عقول أولئك الناس الذين حرمتهم ظروف الحياة من الدراسة فى الصغر ، فتيسر لهم سبل التعليم ، وتنور قلوبهم بما تضفيه عليهم تلك الدروس من هدى وحكمة . .

# أبو نصر فتح بن نوح الملوشائى (١)

« تَمْـلوشَايـتْ » مدينة فسيحة تنبسط على قمة جبل شامخ ، ترنو إلى مغرب الشمس وتناجى زميلتها فرسطاء الجاثمة على ضفة الوادى المقابلة .

فى هذه المدينة التى كانت تنافس عاصمة الجبل « شَرْوَس » العظيمة فى يوم من الأيام ولد أبو نصر فتح بن نوح المَلوشائى ، وعلى هذا المنبسط فوق القمة الشامخة الذى يزدان بشجر الزيتون الأخضر درج ، وعلى حوافى الجبل الشامخ كان يثب فى خفة الوعل ، أو يجلس ورجلاه تتأرجحان على ارتفاع شاهق وعيناه تنطلقان على مدى البصر فى سهل الجفارة الذى لا يحد ، وخياله يذهب سابحاً منطلقاً حراً فوق الغيوم . . .

لقد كان لهذا الموقع الشاعرى الساحر أثره على هذا الطفل الذى شب فى مدينة العلم والجمال؛ و بعد أن تلقى المبادئ الأولية، انتقل إلى المدرسة الكبرى، التى كان يشرف عليها خاله أبو يحيى زكرياء بن ابراهيم ، فكان نعم التلميذ لنِعم الأستاذ .

بلغ فى الدراسة مبلغاً لا يصله إلا القليل من عباد الله المختارين : ثقافة واسعة ، وخلق رضى ، وإيمان قوى ، وشدة فى دين الله ، وقيام بالحق لا يقوم به إلا عدد ضئيل من أصحاب المبدأ والدين والضمير . إذا ترافع إليه الناس للخصومة جعل بينه وبينهم ستراً من باب أو جدار أو غيره ، حتى لا يغلبه الحياء فيميل مع أحدهما .

---

(١) ذكره أبو زكرياء فى الطبقة الثانية عشر : فهو من علماء النصف الأول للقرن السابع .

وإلى هذا الإيمان القوى، والدين القويم، والعلم الواسع ، كان شاعراً مطبوعاً ليس له نظير من العلماء الشعراء ؛ تطالع شعره فتجد حكمة المتنبى وجزالة لفظه .

وقد ينظم فى العلوم ، فتجد فى نظمه روح الشاعر التى تخلو منها المتون الفقهية واللغوية ، وإذا كان الشعراء غالباً ما يقضون أعمارهم يهيمون فى الأودية ، و يتسكعون فى المنازه ، ويلغون فى الباطل، فإن هذا الشاعر العبقرى كان عاملا ومن دعاة العمل ، وجاداً ومن دعاة الجد ، ومكافحاً ومن دعاة الكفاح ، فاستمع إليه يصف لك طريق السمو والمجد :

سما من سما بالجد والعزم والصبر      وسهر الليالى والسرى والتهجر

إن الإرادة القوية ، والعزيمة الصادقة ، والصبر على المكاره ، ومواصلة الكفاح فى الليل والنهار لهى الوسائل التى ترتفع بالإنسان إلى مراتب المجد والكمال . والشاعر يصور لنا الرجل الذى يظفر بإعجابه وحبه ، والرجل الذى يزدريه ويبتعد عنه فى بيتين رائعين من الشعر القوى :

أحب الفتى ماضى العزائم حازماً      لدنيا وأخرى ، عاملا بالتشمر

وأما أخو النومات لا مرحباً به      ولا بالجثوم الراكد المتدثر

قارن بين الرجال الثلاثة فى هذين البيتين ، انظر إلى هذا الفتى الحازم ، صاحب العزيمة الماضية ، الذى يشمّر عن ساعد الجد ، ويكافح من أجل الحياة السعيدة ، فى الدنيا والآخرة ؛ إنها صورة للمسلم الحى الذى يعرف قيمة الرسالة المنوطة به فى الحياة ، وقيمة العمل الذى يسأل عنه يوم القيامة ، فهو لاينسى آخرته بدنياه ، ولاينسى دنياه بآخرته فيعيش عالة على الناس .

ثم انظر إلى هذا الكسلان الذى يقطع يومه بالنومات ، فهو لا يدأب

على عمل ، ولا يستمر فى كفاح ، استمرأ البطالة ، وتعود على الامتداد ، لا يصلح لدنيا ولا لدين .

أما الصورة الثالثة : فهى لهذا الرجل الذى يقبع فى زاوية البيت أوالمسجد . قدتلفع بثوبه وركد ركود الصخر ، تحسب أن الحياة قد فارقته ، فهو جاثم جثوم الجماد لا روح له ولا حركة ، وتأمل معى هذه الصورة الشعرية الرائعة للكسلان الذى يعيش على الأمل لا على العمل ، يبيت ليله مهموماً مشغول الفكر يقلب أوجه الرأى فى طريق الكفاح ، فإذا أصبح لم يعمل شيئاً ، حتى يأوى به الزمن السائر الدائر إلى ليلة مقبلة ، فيعاود ما كان عليه ، حتى ينصرم منه العمر ، ويذهب به التاريخ فيمن ذهب من الناس :

سمير هموم وسّد الرأس لَيْله حِبال الأمانى والوساوس والفكر

واقرأ معى إن شئت هذه الصورة الحية للإنسان فى معركة الحياة :

وما المرء فى دنياه إلا كناعسٍ أحاطت به الأمواج فى لجج البحر

وتأمل معى إذا أردت هذه الصورة الرائعة لواقع الناس ، عندما يدهم أحدهم الموت ؛ فيذكرون الله ، ويفزعون إليه ، ويخشون عاقبة أعمالهم ، حتى إذا توارى الميت ؛ وبعد عنهم شبح القبر ، رجعوا إلى ما كانوا عليه من تكالب على الدنيا ، ونزاع على لذائذها وشهواتها :

ترى عند ذكر الموت للنفس نفرة وتأبى الطباع الانتقال عن الضير

كذئب دهى خرفان حى فأرّزت وغاب فعادت لاقتطاف المنور

والشاعر العالم كبير القلب ، يحب الإخوان ، ويبعث إليهم بتحاياه فى كل مكان :

سلام على الإخوان فى كل موطن . . .

ولـكن هذا الحب لا يمنعه أن يوجه إليهم كلمة العتاب والتوبيخ على جمود الفـكر وضآلة العمل ، وقرب الغاية التى يسعون إليها إذا كانوا يتجهون بدراستهم إلى أنواع معينة من المعارف تدر عليهم أرباحاً مادية ، ولـكنها لا تسمو بهم فى ميادين الثقافة العالية ، والـكفاح المثمر ، الذى يدعى إليه المسلم الحريص على أداء رسالة الإسلام . .

نظرت إلى قرائنا فوجدتهم بفقه المعاش مولعين بالسن

ومن أمرّ ما ينتقد على هؤلاء المتعلمين القاصرين أن معارفهم سطحية ، لا تتجاوز ألسنتهم ، إنهم لم يصلوا إلى أن يكون علمهم مبدأ ، وعقيدة راسخة فى القلوب ، عليها يعملون وبها يصدرون .

والشاعر المؤمن العالم عامر الجوانب ، غزير المادة ، لا يصوره حديث عابر فى فصل من كتاب ، وإذا يسر الله فسوف أعود إليه فى دراسة أدبية تتناول بعض كبار الشعراء .

كان أبو نصر يجلس على حافة الجبل، متجهاً إلى الشمال، حيث تنبسط أمام عينيه السهول الخضراء الفسيحة ، التى تمتد ما بين جبل نفوسة والبحر ، وفى هذا الموقع الجميل الذى يطل منه على العالم، نظم أبو نصر أغلب شعره ، وأكثر متّـونه، وفيه ألّـف مقاماته الرائعة ، التى نحا فيها منحى جديداً بالنسبة إلى ما عرف من أساليب المقامات وأغراضها ، لقد كان يأوى إلى ذلك المـكان الشاعرى بعد صلاة العصر ، عند ما تخف حرارة الشمس الغاربة ، ويرق نسيم الأصيل .

أما ليله الذى يبتدىء بعد نهاية الدروس التى يلقيها فى المسجد بعد صلاة العشاء لعموم الناس ، فقد كان يقسمه قسمين : قسم لمذاكرة العلوم ومراجعة الأسفار الضخمة والتحقيق العلمى الذى يحتاج إليه ؛ أما القسم الآخر فخاص بعبادة ربه ، يناجيه فيه ، و يستلهمه الهداية والتوفيق والبركة ، وعند الصباح كان يشتغل بالتدريس ، لينشىء جيلا من الشباب الواعى يتحمل عنه رسالة الإسلام .

وهكذا كانت تمضى حياة أولئك الأعلام بين حلقات متواصلة من الكفاح ، لا يفترون ولا يملون . . .

وأما أخو النومات لا مرحباً به ولا بالجثوم الراكد المتدثر

# أبو موسى
# عيسى الطّرْميسى (1)

« طَرْ ميسَةْ » اليوم : قرية صغيرة جاثمة على قمة ضاربة فى الهواء بين واديين عميقين تشبه أن تكون ناطحة سحاب ، أو وكر عقاب ، يفصلها عن بقية الجبل من جهة الجبل خندق عميق ، يصل بين الواديين ، حفرته أيدى العمال الأقوياء ليحفظوا هذه القرية الصغيرة من عدوان المعتدين ، ومفاجآت المغيرين ، عندما تكالب الناس على الدنيا ، و بعدوا عن دين الله ؛ فكانت بذلك تشبه أن تكون جزيرة معلقة فى السماء ؛ أما موقع « طرميسة » القديم فيقع إلى الجنوب بنحو ميلين على حافة الوادى الجميل ، الذى تنبع منه عين « قَلّو » حيث ترد اليوم أسراب من الحمام يخطئها العد ، وفى هذه القرية التى تطل على هذه العين ، التى كانت فى يوم من الأيام شبيهة بعين الزرقاء ، ولد أبو موسى عيسى الطرميسى ، وفيها نشأ ، ولما بلغ سن الدراسة التحق بمدرسة أبى يحيى وجدليش ، وعنه درس ، وفيها تخرج ، ولما أتم دراسته أسس مدرسته العظيمة التى خرّجت عدداً غير قليل من الأعلام .

تقع المدرسة التى أسسها أبو موسى عيسى الطرميسى فوق ربوة عالية متوسطة بين جادو وطرميسة ، ويظهر أنه اختار هذا المكان حتى يكون وسطاً بين مجموعة من القرى ، يأتى إليها الطلاب الذين يقيمون فى الأقسام الداخلية التى أعدتها لهم المدرسة ، فقد كانت تبعث إليها مبالغ من المال من مختلف الجهات لينفق منها على طلاب هذه المدرسة .

---

(1) ذكره أبو زكريا فى الطبقة الرابعة عشر : فهو من علماء النصف الثانى للقرن السابع .

انقطع هـذا العالم الـكبير إلى التعليم ، فلم يشغله عنه مال ولا ولد ، وطالما نصحه أصدقاؤه أن يتزوج ، ولـكنه آثر العزوبة التى ينقطع فيهـا إلى العمـل والعبادة ، فلم يتخذ له شريكة فى الحياة ، ووهب كل حياته لربه وطلابه .

قضى زمناً غير قصير فى تنظيم هذه المدرسة التي أسسها فى مركز ممتاز، يجمع بين عدد من القرى، فلما استقرت أركانها ، وقويت على آداء رسالتها ، وانتظم أمر التعليم والطلبة فيها ، تركها لبعض طلابه النجباء يتولى أمرها ، ويسير قضية التعليم فيها ، وانتقل إلى تلك المدرسة العظيمة التى أسسها أبو زيد المزْغُـورتى ، حين شعر أن أمر التعليم فى هذه المدرسة العظيمة بدأ يتدهور. وقام بهذه الرسالة المقدسة فى هـذه المدرسة الـكبرى فانتعشت حركة التعليم ، وعادت فيها السيرة إلى ما كانت عليه يوم كان يشرف عليها أبو زيد العالم العظيم ، وقد بقى فى هذه المدرسة حتى وافته المنية سنة عشرين وسبعمائة من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية .

كان أبو موسى جميل الطلعة ، قوى البنية ، نبيل الصورة ، أبيض اللون ، تبدو عليه سيماء الصلاح ؛ ولما أحس بدنوّ الأجل، أوصى أن تـكون مكتبته العامرة وقفا على طلبة نفوسة وعلمائهم ، ولست أدعى فى هذا المقام أن هذا الموقف من أبى موسى يعتبر الفـكرة الأولى لتـكوين المـكتبات الشعبية ، فأنا أعرف أن الدول قبل هذا الأوان كانت تـكون المـكاتب التى تجمع أندر ما فى العالم من نفائس ولـكننى لاأزعم أننى وقعت فيما اطلعت عليه أن شخصاً سلك هذا المسلك، وكل ماعرفت : أن الشخص قد يحرص على بعض نفائسه ، فيجعلها وقفا على أبنائه ، أو ما يشبه ذلك .

وفى رأيى : أن أبا موسى قد يكون صاحب الفـكرة الأولى لتـكوين

المكتبات الشعبية ، التى تيسر الاطلاع للناس دون اعتماد على أموال الدولة أو سلطة الحكم .

أحسب أنى أشرت فى بعض الفصول السابقة : أن مدرسة أبى موسى عيسى ابن عيسى الطرميسى تكوّن اتجاها جديداً فى الحياة العلمية بالجبل ، ويصح أن تعتبر مبدأ نهضة علمية سلكت وجهة كانت خيراً وبركة على الأمة . هذا الاتجاه هو ما حرص عليه أبو موسى من توجيه طلابه إلى تأليف الكتب ، هذه الناحية التى كانت فيما سبق لا يشتغل بها إلا بعض الأفذاذ ، الذين يجدون فراغا فى وقتهم ، وإنما كانوا يعتمدون على الرواية ولا سيما فى علوم الشريعة بمختلف فنونها . وقد استجاب أولئك الطلاب الذين أصبحوا فيما بعد علماء قد يفوقون أستاذهم ... استجابوا له ، وعكف مجموعة منهم على التحرير ، فأنجزوا لنا فى زمن قصير مجموعة من الكتب القيمة ، التى يحق أن تفخر بها المكتبة الإسلامية فى كل العصور ، ويكفى أن نضع على رأس القائمة مؤلفات فيلسوف الإسلام « الجيطالى » ليعرف الباحثون عن التراث الإسلامى أى ثروة تركتها لنا هذه المدرسة العظيمة التى لم يبق منها إلا مسجد فوق ربوة عالية ، بين طرميسة ، وجادو يصارع الزمن ، ويتحدّى التاريخ ...

قد يفهم القارىء الكريم من حديثى هذا أن حركة التأليف فى العصور التى سبقت أبا موسى الطرميسى كانت ضئيلة ، أو ضعيفة ، فإذا خطر لأحد القراء الكرام مثل هذا الخاطر فليعلم أنى لم أقصده أبداً ؛ فإن حركة تأليف الكتب لم تتوقف يوماً من الإمام منذ تشرفت هذه البلاد بالإسلام ، وإنما كان الاهتمام بهذا المنحى اهتماماً فردياً لا مدرسياً ، أما أبو موسى فقد وجه مدرسته نفسها إلى العناية بالتأليف ، ولذلك فلم يبق أحد من طلابه ممن يقوى على القيام بهذه المهمة دون

أن يقدم إلى المكتبة الإسلامية ما يستطيع من نتاج .

وقد استمرت هذه الحركة منذ هذا الجيل ، أو هذه المدرسة ، جادة نشيطة تؤتى أحسن الثمار .

لا يكاد يوجد شخص ممن ينسب إلى العلم فى ذلك العصر لم يدرس فى مدرسة أبى موسى ؛ وقد تخرج فيها عدد غير قليل من العلماء الأعلام ، وحسبها أن يكون من طلابها فيلسوفا الإسلام المؤمنان العالمان العاملان: أبوطاهر اسماعيل ابن موسى الجيطالى، وأبوساكن عامر بن على الشماخى. وحسب أبى موسى شرفا أن يكون هذان العالمان من طلابه . .

# أبو طاهر (١)
# اسماعيل الجيطالي

« جِيطال » : مدينة فسيحة تقع بين أمْسين وإِينَسْ ، على ربوتين متقابلتين كأنهما نهدان على صدر حسناء ، تحيط بها من جميع الجهات غابات كثيفة من الزيتون والتين .

وفى هذه المدينة الفسيحة نشأ فيلسوف الإسلام صنو أبى حامد الغزالى : أبو طاهر اسماعيل بن موسى الجيطالى ...

درس أبو طاهر على أبى موسى عيسى الطرميسى ، ومن مدرسته العامرة تخرج ، وبلغ من فهم الإسلام وأسرار الشريعة مبلغاً قصر عنه الطالبون ، وتضاءل دون بلوغه العارفون . اشتغل بالتدريس فى مدرسة أبى زيد المزْغورتى وقد التقى فيها بعد وفاة شيخه أبى موسى بزميله وصديقه العلامة أبى عزيز ، ثم انتقل إلى فَرسطَّـاء ، فقام فيها بالتدريس تسع سنوات كاملة ؛ وأخيراً انتقل إلى جزيرة «جربة» و بقى فيها إلى أن وافاه الأجل المحتوم ، فلحق بربه .

أبو طاهر الجيطالى : عملاق من عمالقة الفكر الإسلامى فى ذلك العصر ، خدم الإسلام بإخلاص المؤمن ، وجد العالم ، وعمق الفيلسوف ، والآثار القيمة التى تركها تحتاج إلى مزيد من العناية والدراسة والبحث ، ولو قدمت تلك الآثار اليوم إلى المكتبة الإسلامية الغنية لاحتلت بينها مكانا مرموقا .

ولعل من أعظم ما كتب عن معانى الإيمان وفلسفة الأخلاق : كتابه القيم

---

(١) ذكره أبو زكرياء فى الطبقة الخامسة عشر : فهو من علماء النصف الأول من القرن الثامن

« قناطر الخيرات » فى ثلاثة أجزاء ضخمة ، والجيطالى وإن كان متأخراً عن الغزالى ، إلا أنَّ مقارنة بينهما قد تكون من المباحث الممتعة التى تحتاجها المكتبة الإسلامية ، والمقارنة بين الفيلسوفين المسلمين العظيمين تحتاج إلى ذهن صاف ، وفكر نير ، وفهم عميق لروح الإسلام ، وأثرها فى العقيدة والسلوك ء

والجيطالى لو لم يقدم إلى المكتبة الإسلامية إلا هذا الكتاب ، لكان فيه الكفاية ، ولكن الرجل مطبوع على ، حب الكفاح فى سبيل الإيمان والعلم ، فهو يدعو إلى ذلك بسلوكه ولسانه وقلمه ، لم يفتر عن هذا الكفاح حتى لحق بالله . وقد ترك فيما ترك : « قواعد الإسلام » ولا يقل هذا الكتاب روعة عن القناطر ، وإن كان كتاب القواعد لم يعن بالناحية الفلسفية للشريعة الإسلامية ، وإنما عنى المؤلف فيه بالتحليل والتعليل والتدليل ، ويعتبر هذا الكتاب من أهم المراجع فى قواعد الإسلام الخمسة ، وهو كتاب ضخم قل أن تجد فى موضوعه مثله .

وشرح قصيدة الشاعر العبقرى أبى نصر الملوشائى ، المسماة بالنونية ، والتى مطلعها .

سلام على الإخوان فى كل موطن . . . .

وإنها لمتعة للنفس والفكر والعقل أن تقرأ شعراً لأبى نصر يقدمه إليك أبو طاهر ويشرحه لك .

وجَمَع المناقشات التى كانت تدور بين أئمة العلم فنسقها وقدمها فى كتاب قيم ، يشتمل على ثلاثة أجزاء . . .

وقد اهتم بفريضة الحج اهتماماً خاصاً ، فأفردها بكتاب فريد فى نوعه وأسلوبه وروحه ، وحسبك أن تعرف أنه كتب بروح أبى طاهر الجيطالى .

جمع كثيرا من الرسائل ، ونظم عدداً من القصائد ، هى إلى معانى الفلسفة أقرب منها إلى أغراض الشعر .

إن الذى يقرأ الفقرات السابقة يحسب أن العمل فى حقل العربية والإسلام لم يترك للفيلسوف الكبير وقتاً أو مجالا يعمل فيهما فى غير هذا الحقل . . . ولكن الواقع هو غير ما يظنه هذا القارىء الكريم ، فإن الفيلسوف بلغ فى العلوم الرياضية المعروفة فى ذلك الحين مبلغاً يقصر عنه الأقران ، وقد ألف فى الحساب والهندسة .

وإلى هذا الجهد المتواصل فى التأليف كان يشتغل بالتدريس ، وكان لا يتوقف عن دروس الوعظ والإرشاد ولا يقف عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقد كان يعيش فى مجتمعه عيشة حقيقية ، يعرف ما يقع فيه من هدى وضلال ، ولذلك فقد كان يحارب أسباب الضلال حرباً متصلة لا تتوقف ولا تهادن ، سواء كان هذا الضلال زيغاً فى العقيدة ، أو انحرافاً فى العمل ، أو استهانة بالواجب ، أو جهلا بأحكام دين الله ، وقد كان يغشى الأسواق ، ويدخل المجتمعات يبين للناس الحق من الباطل والحلال من الحرام حتى قال بعض العابثين : إن أبا طاهر قد علم التجار جميع وسائل الغش ، يعنون أنه ينهاهم عنها فتعلموها منه .

إن عزائم الأبطال لا تضعف ولا تتوقف عند حد ، وهؤلاء الأعلام حين يخدمون الإسلام ويخدمون الأمة ، ويخدمون الوطن ، يخدمونها فى جميع الوجهات ، وبجميع القوى والإمكانيات . قلم لا يكف عن الكتابة ، ولسان لا يكف عن الهداية ، وسلوك لا يحيد عن صراط الله السوى ، وجوارح لا تعرف التعب أو السأم . . . إنها جهود جبارة متواصلة متتابعة متعاونة . . . سافر إلى طرابلس فى تجارة ، وكانت شهرته بلغت الآفاق ، فجمع له الأمير عدداً من العلماء ،

فيهم قاضى المدينة ، للجدال والنقاش ، فعجزوا عن الوصول إلى شأوه ، والتطلع إلى الأفق السامى الذى يحلق فيه ، حتى تحداهم فقال: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا. فحقد عليه القوم ، ولم يزالوا بالأمير حتى سلبه ماله وسجنه ، و بقى فى السجن حتى شفع فيه « ابن مكى » أمير قابس ، فأطلق سراحه . . .

أقام بفرسطاء مدة من الزمن ، تبلغ تسع سنوات ، يقوم فيها بالتدريس ، ويقيم ركن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويكافح الأمراض الاجتماعية التى تتسرب إلى الأمة بطرق خفية ، حتى إذا كثرت استعلنت وفشت ! .. سمع يوماً بأن خمراً عند أحد الناس ، فخرج إليه فى جمع من الفقهاء والعلماء وأهل الصلاح ليغيروا هذا المنكر ، و يطلبوا من هذا المنتهك لحرمة الإسلام أن يكف عن معصية الله ويتوب إليه ، ولكن أهل العاصى غلبتهم قوة القرابة عن أمر الله ، وساقتهم عصبية الدم إلى معارضة حكم الدين ، فاعترضوا طريق الشيخ وأصحابه ، وامتنعوا عن تسليم المجرم الذى انتهك الحرمة ، وأعلن المعصية ؛ فرجع الشيخ آسفا ، وعزم على الارتحال ، ولما تعلق به الناس يمنعونه من الرحيل ، ويحولون دونه قال لهم : لا أقيم فى بلد لا يقام فيه الحق ، ويمنع المؤمنون من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ... وهكذا انتقل من جبل نفوسة إلى جزيرة جربة ، وكان لانتقاله ذلك أثر أكبر من إقامة الحد ، وأخذ العاصى بالعقاب ، فقد أعلنت المدينة براءتها من المجرم وأهله ، وقطعوا التعامل معه ، ونبذوه كما ينبذ المصاب بالأمراض السارية ، فضاقت بالرجل وأهله الأرض ، وأعلنوا توبتهم ، ورجعوا يلتمسون السماح ، ويطلبون تنفيذ حكم الله ، وطأطأوا تلك الرؤوس التى نفخ فيها الشيطان فارتكبت أكبر جريمتين فى شرع الأخلاق والدين ، وهل أكبر من شرب الخمر ودعوى الجاهلية . . .

زار بلده جيطال فوجد العلامة أباساكن عامر بن على الشماخى فى المسجد يدرس بعض الكتب بعد صلاة العشاء . والعلامة أبو ساكن من خريجى مدرسة أبى موسى الطرميسى التى درس فيها الجيطالى ، وإن كان الجيطالى أسبق من أبى ساكن فى حلقة الدرس فهما زميلان بالنسبة إلى المعهد وإن لم يجتمعا فى عهد الدراسة.

وجلس الفيلسوف الكبير إلى العالم الكبير ، وجرى بينهما النقاش الممتع الذى يجرى بين صديقين ذكيين عالمين ، واستمر بهما الحديث إلى أن قاما إلى صلاة الصبح ، وأجاب العالم الكبير عن جميع الأسئلة التى وجهها إليه الفيلسوف الكبير ، فلم يتوقف فى مناقشة ، ولم يعى بجواب ، فكان أبو طاهر يقول بعد ذلك إذا سئل عن أبى ساكن الشماخى : « عامر وحيد دهره » والرجل الذى ينجح فى امتحان يعقده له أبو طاهر ، ويناقشه فيه ليلة كاملة حقيق أن يكون وحيد دهره على أن الآثار التى خلفها الشماخى كافية للدلالة على سموق منزلته ، وارتفاع مكانته.

لقد عاش الجيطالى فى القرنين السابع والثامن ، يملأ الدنيا علماً ، وحكمة ، وخلقا ، ودينا وتوفى سنة خمسين وسبعمائة ، بعد أن ضرب مثلا رائعاً للمسلم المكافح الذى لا يعوقه شىء عن بلوغ أنبل الغايات وأسمى المقاصد . . .

# أبو ساكن (١)
# عامر الشماخي

«يفرن»(٢): اسم يطلق الآن على مجموعة من القرى متجاورة، وقد كان عدد منها متصلا يكون مدينة عظيمة تسمى «البيضاء»، ومن هذه المجموعة تنتأ قرية إلى الشمال الغربي تسمى «ديسير» كان لها تاريخ حافل، وبها الحصن العظيم الذي يتكون من نحو ألف وثمانمائة غرفة بعضها فوق بعض، خربته الدولة التركية عند احتلالها للجبل، كما خربت كثيراً غيره من القصور الشاهقة التي تعتبر معاقل للتحصن ومخازن للحفظ.

وتقع هذه المدينة الكبرى بقراها التابعة لها على منبسط من الجبل قد تنتأ فيه ربوة غير عالية أو ينحدر فيها واد غير عميق، والمنطقة التي تقع فيها هذه المدينة تعتبر من أجمل مناطق الجبل وأخصبها أرضاً، وأجودها تربة، وألطفها هواء، وأعذبها ماء.

---

(١) ذكره أبوا زكريا في الطبقة الخامسة عشرة: فهو من علماء النصف الأول من القرن الثامن.

(٢) قال سليمان باشا الباروني في «سلم العامة والمبتدئين» ص ٣٩:

وهذا الاسم — اي يفرن — الآن يطلق على قرى متعددة، وهي: تقربست، وديسير ويقال لها الشقارنه، كان بها «قصر» فيه نحوا ألف وثمانمائه بيت طبقات بعضها فوق بعض، خربته عن آخره الدولة العثمانية، وكان من أعظم حصون الجبل. والقصير وتاغمة، وقصبة مانه، وتاز مرابت، وقصبة بن مادى، والمعانين، والقراديين، والمشوشين، والبخانجة، وفي هذه الأخيرة مدرستنا التي جددناها سنة ١٣٢٢ هـ. وهي الآن عامرة بطلبة العلم الشريف والقرآن الحكيم، والظهره وهي بازاء قصر الحكومة. وكل هذه القرى عامرة بالإباضية، وفيها من الرجال المعتبرين أرباب الشهامة والفضل والدين من يفتخر بهم الزمان.

فى هذه المدينة الكبيرة الجميلة الغنية نشأ أبو ساكن عامر بن على بن عامر ابن يَسِيفَاوْ الشماخى .

نشأ طفلا يطل الذكاء من عينيه ، وتظهر النجابة على مخائله ، ويرى الصلاح على مسلكه ، وهو صغير أرسله أبوه ليرعى بقرة مع رفاق له فمر بهم أعرابى وجد عامراً ممسكا برسن البقرة يتتبعها خطوة خطوة ، وهى تنتقى الأعشاب وتختار أنواع الكلأ ، فقال له الأعرابى : لماذا تمسك برسن البقرة دون رفاقك هلا أرسلتها واسترحت ولعبت مع أقرانك ؟ فقال عامر أخشى أن تغشى زروع الناس . وعجب الأعرابى من خلق هذا الطفل الصغير ؛ فلما دخل المدينة ذهب إلى أبى عامر يقول له: إن ولدك يصلح للدراسة لا لرعى الأبقار ، وكانت هذه الحادثة نقطة تحول فى حياة هذا الطفل النجيب ، وفى اليوم الثانى أرسله أبوه إلى المدرسة بدلا من مرعى البقرة ...

وبعد أن تلقى المبادىء الأولى فى مدرسة « البَخابِخَة » التى كانت تقوم برسالة التعليم لقرون طويلة ، التحق بالمدرسة العظيمة ، مدرسة أبى موسى عيسى الطرميسى ، هذه المدرسة التى خرجت عدداً غير قليل من أعلام الدين والفكر وفيها درس، ومنها تخرج ، وكان أحب الطلاب إلى الشيخ الكبير وآثرهم عنده ، حتى خصه دون بقية الطلاب النجباء بحمل الأمانة ، فقال له : لقد أبلغت إليك هذا الدين سالماً دون أن تشوهه الخرافة أو البدعة فإن حافظت عليه بقى ، وإن أهملته ضاع (١) .

بعد أن أتم دراسته رجع إلى « يفرن » وكون هناك مدرسته الكبرى التى لا تزال

---

(١) نقلت هذه العبارة بتصرف .

قائمة إلى يومنا هذا ، فى نقطة متوسطة بين قرى «يفرن» ، وبدأ كفاحه فى نشر العلم ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونشر الثقافة والوعى الدينى والخلقى بين الناس مدة من الزمن ، ثم انتقل إلى مدرسة أبى زيد المزغورتى ، وتعاون مع زميله وصديقه الشيخ أبى عزيز فى حمل الرسالة المقدسة حتى استقامت ، ووجد أبو عزيز من طلابهما من يساعده على أداء هذا الواجب ، فانتقل أبو ساكن إلى « ميتيوِنْ » فى أرض الرحيبات ، وهنالك بقى ثلاث عشرة سنة ، استطاع خلالها أن يُرجع إلى تلك البلاد عهدها الزاهر فى العلم والفضل والدين ، ثم رجع إلى مدرسته العظيمة فى «يفرن» وبقى بها إلى أن اختاره الله للرفيق الأعلى .

لقد حرص أبو ساكن أن يكون عند حسن ظن أستاذه ، فبذل جهداً لا يقل عن جهد شيخه ، وترك من الأثر ما لا يزال إلى اليوم .

قد يخطر سؤال على بال أحد القراء الكرام فيقول : لماذا ينتقل هؤلاء العلماء من مكان الى مكان يؤسسون مدرسة فى بلد من البلدان وبعد زمن طويل أو قصير ينتقلون إلى بلد آخر فيقومون بنفس الرسالة ، ثم لا يلبثون أن ينتقلوا منها.

والجواب على ذلك معروف من قواعد المذهب ، فإن أولئك العلماء الأعلام يؤمنون أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان ، وهم لا يستطيعون أن يحاربوا الجهل أو المنكر أو الفساد أو الانحراف عن بعد ، أو بالمراسلة . ولذلك فهم يدرسون المجتمع ويعرفون جوانب الحياة فى كل جهة من جهاته ، ويلمسون الأمراض التى تصيب الأمة فى دينها أو فى خلقها . وفى المحل الذى تبدو ظواهر بعض هذه الأمراض يتخذون مراكز عملهم ، وينطلق كفاحهم ، حتى يستأصلوا الداء ويبيدوا جراثيمه التى تفتك بالأمة ، فإذا علموا أنهم قضوا

على هذه الأمراض الاجتماعية والدينية الفتاكة ، وأمنوا على هـذا الجانب من الأمة ، ورأوا آثار أعمالهم الطيبة ، انتقلوا إلى غير ذلك المركز ليقوموا بنفس العمل.

إن أولئك الأعلام كانوا يرون أنهم محاسبون على إبلاغ رسالة الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما جاء بها ، ولن يعذرهم عند ربهم أن يعملوا على تبليغها فى مكان واحد وهم قادرون أن يبلغوها فى أمكنة متعددة ، إنهم يلاحقون هـذه الأمراض؛ أمراض الجهل ، والانحراف عن دين الله بالزيغ أو الإهمال، كما يحارب أبطال السيف هجوم الأعداء ؛ فما يسمعون بغارة كبيرة أو صغيرة فى طرف من أطراف الوطن حتى ينطلقوا إليها .

هكذا كانوا يفعلون ، وبهذه السيرة سار أبو طاهر الجيطالى، وبهذه السيرة سار أبو ساكن عامر الشماخى، وبهذه السيرة سار عبدالله البارونى، وبهذه السيرة سار عشرات المشائخ الأعلام من قبل هؤلاء ومن بعدهم وفى عصورهم ، لا يُفَـتِّرُ عزائمهم إعراض الجاهلين ولا هزء المتكبرين ، ولا يقعد بهم حب المال أو الأهل أو القرابة . ولا يألفون الاستقرار والإقامة ؛ فما الحياة فى نظرهم إلا رحلة متصلة ، لايهم المسافر فيها المكان الذى يبيت فيه ، سواء بات « بيفرن أو بِمزْغورُة أو بِمِرْساوَن أو بِلالوُت» ذلك أنه لايريد أن يتأثل مالا أو يبنى قصوراً أو ليعيش حياة رغد ورفاهية .

إنَّ نفسه لتتوق إلى ذلك وهو يستعد لها ، وإنه ليرجو من الله أن يكون له مايشتهى وفوق ما يشتهى، بعد أن يتم هذه الرحلة الطويلة ويستقر إلى الحياة الوادعة الآمنة التى لا نقلة فيها ولا انتجاع ..

وعاش أبو ساكن كما عاش أبو طاهر حياة كفاح متواصل لا ينقطع ، حتى صح لأبى العباس أن يقول فيهما : « وكان — أى أبو ساكن — مع أبى طاهر كفرسى رهان يتسابقان فى ميدان » .

ولست أدرى هل يحق لى أن أزعم أن أبا طاهر جلىّ فى ميدان التأليف وأن أبا ساكن جلىّ فى ميدان التدريس ، وليس معنى هذا أن مجهود أبى طاهر فى التدريس كان ضئيلا ، أو أن عمل أبى ساكن فى التأليف كان قليلا ، ليس هذا ما أقصد ، فإن أبا طاهر كما أسلفت فى الحديث عنه لم ينقطع عن التدريس ، ولم يتوقف عن الإرشاد العام ، ولكنه مع ذلك قدم لنا ثروة فكرية قيمة ، تشغل حيزاً هاماً من المكتبة الإسلامية العامرة ، وجهده فى هذا الميدان أكثر أثراً من جهده فى ميدان التعليم ، أما أبو ساكن فقد ترك لنا عدداً من العلماء الأعلام الذين كافحوا الجهل والبدعة والانحراف والفساد ، وألّفوا مجموعة من الكتب القيمة ، وقاموا برسالة التعليم المقدسة ، التى تدعو إليها جميع النبوات ، وهو إلى هذا المجهود العظيم قد قدم إلى المكتبة الإسلامية آثاراً قيمة رائعة ولو لم يكن فيها غير كتابه القيم « الإيضاح » لكان ذلك كافياً . يقول أبو العباس عن هذا الكتاب : «وهذا التأليف ما أظن ألف فى المذهب مثله ، جمعاً وتعليلا ، واختصاراً غير مخل ، وتطويلا غير ممل ولا مكرر ، وهو اعتماد أهل المغرب فى وقتنا ، خصوصاً نفوسة » هذا ما يقوله أبو العباس عن هذا الكتاب القيم ، أما أنا : فإن الإيضاح أحب الكتب إلى نفسى ، وآثرها عندى بعد كتاب الله وصحاح الحديث الشريف ، وفى جميع مشاكلى العلمية التى تدخل فى نطاق أبحاثه أرجع إليه قبل أى كتاب ، على كثرة ما ألف فى المذهب من نفائس وأعلاق . . .

أخذ عنه العلم عدد غير قليل من العمالقة العظام، منهم ولده موسى ، وحفيده سليمان ،وأبو يعقوب يونس بن مصباح ، والشيخ بن محمد بن الشيخ ، وأبو زكرياء يحيى بن زكرياء ، وأيوب الجيطالى ، وأبو القاسم البرّادى ، ونوح بن حازم المَرْساوُنى ، وأبو عبد الله محمد التّفْجّانى ، وأبو الضياء الطَّرْميسى، وغير أولئك من الأعلام الذين لا يستقصيهم العد فى مثل هذا المقام . . .

أحس أبو عزيز صديق أبى ساكن فى الدراسة بدنو الأجل ، فبعث إلى صديقه يدعوه إليه وكان أبو ساكن قد قرر زيارة صديقه العزيز،فوافاه فى آخر أيام الحياة الدنيا ، وتحادث الصديقان العزيزان ، وتواصيا بما يتواصى به المؤمنون المتقون ، ثم افترقا فى دنيا الفناء إلى لقاء فى الآخرة سعيد ، وقد أفضى أبو عزيز بما فى نفسه إلى صديقه ، ولما لحق بربه انتقل طلبته إلى أبى ساكن ، ولحقوا بمدرسته العامرة .

كان أبو ساكن مثلا يحتذى به فى الجد والعمل والخلق الحميد ، إنه من أولئك الدعاة الهداة الذين يقيم بهم الله الحجة على العباد فى مختلف الأزمان ، والمؤرخون يروون أمثلة رائعة عن جدِّه فى التعليم ، وحرصه على نشر الثقافة والوعى الإسلامى فى الأمة ، وقيامه بالعبادة الخالصة المتواصلة لربه ، والتزامه للسير فى الطريقة القويمة ، وإحيائه لسيرة الصالحين . . .

وقد أطال الله فى عمره الخير ، حتى أعياه الهرم ، ولكنه مع ذلك لم يكن ليترك ما أخذ به نفسه من إلقاء الدروس ، وإرشاد الناس ، وملازمة المسجد ، وقد ذكر أنه صلى بالناس فى مصلى مسجده — وكان الوقت صيفاً — ولما أخذ فى الدعاء نزل منه البول دون أن يشعر حتى ظهر من تحته ، ووقره

الناس فلم يخبروه ، فلما فطن إليه ورآه بكى رحمه الله وقال : أطمع من الله أن يطهر منه المصلى ، فلم يلبث إلا قليلا حتى تكون سحاب ، ونزل مطر غزير طهر المصلى .

« إن لله عباداً لو أقسموا عليه لأبرهم » .

لقد كان رحمه الله مؤمناً من أصدق المؤمنين ، ومكافحاً فى الله من أشد المكافحين ، وكان متخلقاً بخلق القرآن ، حكيما ، وقوراً ، عفيفاً ، لين العريكة ، سهل الخلق ، يحب الناس ويحبونه ، ويألفهم ويألفونه ، إلا أن تنتهك حرمة من حرم الله ، فإنه لا يقر له قرار حتى يقوم فيها بأمر الله .

# أبو يوسف (١)
# يعقوب بن أحمد بن موسى

نشأ فى مدينة «يفرن» : هذه المدينة العظيمة التى تتكون من مجموعة قرى لا تخلو إحداها من علم وفضل . ولعل من الخير أن أدع شاهد عيان يتحدث عنه ، فقد جلس إليه العلامة أبو العباس الشماخى وسمع منه وناقشه فلندعه يتكلم . قال : « أخذ العلم من عمنا عبد الله الشماخى وغيره ، وكان محققاً ، وحيد العصر ، فريد الدهر ، إماماً فى العلوم ، وكنت سمعت بتونس حاضرة أفريقية من البَيْدَمُورِى ، وكان محققاً فى العلوم كلها على ما يدعى — وكنت أقرأ عليه ، وقد سألنى عن الشيخ أبى يوسف وعن حاله فقلت له : بخير . وكان يومئذ حياً فقال : ما فى تونس أنحى منه ، أى أعلم منه بالنحو : وكان بها أقرأ العلوم من النحو والبيان والمنطق والأصول ، وسمعت من فقهاء تونس أخبارا فى علو درجته فى العلم ، وكان طلبته بها ومن أخذ منه يفتخر على غيره ، وذكر أنه اختلف مع بعض الأشياخ بها فى مسألة فى النحو ، فأحضر فى إثباتها مايقرب على عشرين شاهداً من أشعار العرب ، ثم انتقل إلى «أمْسِين» قرية من نفوسة، وأقام بها إلى أن توفى فى شوال عام أربعة وتسعين وثمانمائة، وقد جالسته مراراً وباحثته فما رأيت فى جميع من لاقيت أكثر استحضاراً منه ؛ لو جالسته يومك ماظفرت بكلمة لحن فيها فى إعراب ولا تصريف ، ولا يسكت ولو هنيهة ، فكل كلامه علم مع سرعة لسان ، إن سألته عن مسألة لا ينفصل منها إلا أن

---

(١) ذكره أبو زكريا فى الطبقة الثامنة عشرة: فهو من علماء النصف الثانى للقرن التاسع .

تعارضه بسؤال آخر ، أما النحو فعشه الذى يعرف كيف يدخل فيه . ويخرج ، وأما اللغة والتصريف فيا للعجب ، وأما التفسير فلو ادعى أحد أنه ما شذ عليه شىء من التفسير ما كذب ، وعلم الحديث أظن أنه يحفظ ما رواه المخالفون والموافقون بضبطه وشكله ومعناه ، وعلم التاريخ وتسمية الرواة والعلماء فكأنه حضر معهم وصحبهم ، وعلم الرقائق من الوعظ والتذكير فآية ، وهو مفزع علمه ، والفقه حضرت عنده مراراً يحكم بين الناس فتعجبت من تفصيله ، فقلت : لا ينبغى أن يحكم بين الناس إلا مثل هذا . وأتيته يوماً زائراً وهو شيخ كبير ، فألفيته يدرس تحت شجرة التين فتسمعت فإذا هو يقرأ مقدمة الخونجى فى المنطق ، وأما القرآن فأظنه يقرأ كتاب الله بالسبع . والبيان والأصول فهما نصب عينيه .

وحضرت مجلسه يوماً وكنت قبل مستشكلا مسألة فلم أجد من أزال إشكالها فوقعت فى المجلس عارضة من غير أن أسأل عنها ، فباحثته فرأيت منه ما أبهرنى وأودعت بعض البحث فى إعرابى لمشكل كتاب الدعائم ، فى أول قصيد الجنائز وغيرها ، وذكر لى بعض طلبته أنه بقى فى آخر عمره خمسة أعوام ما وضع جنبه على الأرض نائما ، طوى الفراش ، وكان صائم الدهر ، وكانت صدقاته سراً ، وكان كثير الصلاة ، وعادته يعظ الجالس إليه ، أو يقرأ القرآن ، أو يدرس ما حفظ من العلوم ، أو ينظر فى الكتب ، وإذا أخذه النعاس تناوم قليلا كذلك .

قال لى : حفظت ابن حريق فى اللغة فى خمسين يوماً ، وكان يدرسه ويدرس المقامات ، وكان كثير الحفظ . قلت له يوماً : كدت أن تكون ترجمان القرآن ، ما رأيت احفظ منك ! .. قال : عمنا عبد الله بن عبد الواحد لا أصله

فى الحفظ . وزرته مريضاً ومعى الحاج محمد بن عبد الله العمانى السمائلى وعمنا يونس بن محمد ، فتكلما معه فى علم الطب فأفحمهما ، وقال عمنا : يونس إذا شاب ابن آدم تشب معه خصلتان : الحرص وطول الأمل ، فضم شين تشب أظن فانكر عليه ، وأخذ فى تصريفها بلغاتها ومصادرها ، فكأنه ينظر فى إصلاح المنطق لابن السكيت ، أو فصيح ثعلب ، وبالجملة من لم يره لم ير ما يتحدث به فى أخبار العلماء ، ومات ولم يترك تأليفاً مع أنه ذو قدرة على التأليف فى أى علم أراد ، خصوصاً التفسير والحديث » .

إننى اكتفى بما رآه العلامة الشماخى ورواه عن هـــذا العملاق من عمالقة العلم والدين .

# أبو العبّاس الشّمّاخي (١)

يشرفني أن أقف هنا لأدع الحديث للامام القدوة أبي اسحاق طفيش — أطال الله عمره وأبقاه ذخراً للإسلام — قال أبو إسحاق : « وأما البدر الشماخي فهو الإمام المجتهد أبو العباس بدر الدين أحمد بن أبي عثمان بن سعيد بن عبد الواحد ابن سعيد بن أبي الفضل قاسم بن سليمان بن محمد بن عمر بن يحيي بن ابراهيم بن موسى بن عامر جد الإمام أبي ساكن عامر بن موسى بن علي بن عامر الشماخي، فهو يجتمع بهذا الإمام في جده فيما يتبادر توفي : رحمه الله على ما ذكره العلامة أبو زكرياء الباروني سنة ٩٢٨ هـ .

وأبو العباس من أعلام العلم الذين نبه لهم شأن عظيم لجدّهم واجتهادهم ، وبلغوا منزلة قصوى في العلم ، كانوا بها مناراً يهتدى به ، وعلماً يعتصم به ، ويلجأ إليه . إذا ألف وصنف كان آية ، وإذا ردت إليه مشكلة كان في حلها غاية ، وإذا حضر مجلساً من مجالس العلم كان فيه النهاية ، له من التصانيف في عدة علوم كلها تعد من الأمهات ، خصوصاً مقدمته في أصول الفقه وشرحها ، اختصر المقدمة من كتاب العدل والإنصاف لشمس الدين أبي يعقوب الوارجلاني ، فكانت أجمل وأنقى متن في أصول الفقه ، وأمتن عده ، وأجدى ماده لمن يريد حفظ قواعد الأصول ، وأني لأراها أحسن متونها شمولا وايجازاً ، وشرحها وإن كان مختصراً جداً إلا أنه على جانب كبير من النفاسة والتحقيق ، ومن مراجع تراجم الرجال وتاريخ أهل الحق والاستقامة : كتاب السير له ، يظن الذين لاحظ

(١) ذكره أبو زكريا في الطبقة الثامنة عشر : فهو من علماء النصف الثاني للقرن السابع

لهم من التاريخ ، ولا قدرة لهم على جوب مراحله ودخول ميادينه: إنه كتاب غير مفيد ، ولـكنهم لا يعلمون أنه ثروة ومادة أخذت من كل ناحية بسبب ، واختصت بذكر أساطين العلم والدين ، وأتت منهم بعجب ، وأنى لأطالع هذا الـكنز المـكنون ، والفلك المشحون، ولا أزال اكتشف فيه الاعلاق وجلائل تاريخ الأئمة ، ومفاتيح ما اغلق من تاريخ الإباضية وسط الأمة الإسلامية بشمال إفريقيه .. تاريخ العلم والعمران،وازدهار الدين والإيمان، وهذه الحاشية على مقدمة التوحيد تبدى لك غزارة علمه ، ووفرة مادته ، وتبحره فى فنون الشريعة وعلوم العربية مع صغر حجمها ، وقد وضعت لك أيها القارىء الـكريم تحت بعض الجمل السامية المعنى سطراً يلفتك إليها . كأنموذج لتحقيقات هذا المصنف الجليل ، ونظرياته المعربة عن سلامة ذوقه ، وسمو نظره ، وبينها ما يحدثنا عن المصنف من حيث نظره إلى الحياة الاجتماعية ، نظراً يباين كثيراً من الفقهاء الذين اضعفوا الأوساط ، وأوهنوا العزائم ؛ ومما وقفت عليه من مصنفات هذا الإمام الجليل إعراب الدعائم،سماه «إعراب مشكل الدعائم» وهو من خزانة الشيخ محمد بن عيسى ازبار ، ولعل صوابه ازباره . وأظن أنى رأيت له شرحا على متن الديانات نفيساً جداً ، واجتهدت فى الحصول عليه وقت كتابة هذا فلم أفز به .

ويحدثنا المصنف عن بعض مؤلفاته بالإحالة إليها فى مهمات المسائل، أو إلى بسط القول فيها ، فهو يقول إن له شرحاً على مرج البحرين لشمس الدين أبى يعقوب،فى المنطق ، والحساب ، والهندسة ، حين تكلم فى خطبة شرح مقدمة الأصول على اسم الجلالة واشتقاقه فقال : قد بسطنا ذلك فى شرح مرج البحرين فلينتظره الراغب .

وقد تمنى ضياء الدين التميمى رحمه الله أن يقف عليه فقال فى شرح مرج البحرين : غير أنى سمعت أن البدر الشماخى علق عليه شرحا عجيباً ، ولـكنه

ضاع ، فياليتنى كنت له مصيباً ، ثم إنه وعد فى آخر شرحه على مقدمته أنه إن أنسأ الله له العمر فإنه يجعل له شرحاً يستوعب جميع مباحثه ، وذلك سنه ثمانمائه وأربعة وتسعين ، وقد أنسأ الله له فى العمر إلى تسعمائة وثمانية وعشرين ، ولعله وضع لها شرحا مبسوطا كما وعد ولم نقف عليه ، ومن لطائف التاريخ أن البدر الشماخى أرخ شرحه هذا على المقدمة بحادثه تاريخية هامة حيث يقول : فرغ منه بتاريخ أوائل شعبان سنه أربعة وتسعمائة ، وهو العام الثانى من إخراج المسلمين النصارى من «جربة» . ويعنى به إخراج الأسبانيين من الجزيرة بعد أن استولوا عليها ، كما احتلوا شطوط المملكه التونسية ، وقد وقفت على تفاصيل هذه الواقعة منذ سنين ، ولم يتيسر لى قيدها...

وبعد فإنى أرى البدر الشماخى من المؤلفين المكثرين ، ويظهر أن له مصنفات فى الفروع الفقهيه ، بيد أنها لم تصل إلينا بل لعبت بها أيدى التلاشى ، وعبثت بها عوادى الغواشى ، فكانت أثراً بعيد عين .

توفى رحمه الله ببلدة «يفرن» من جبل نفوسه سنة ٩٢٨هـ . وعده العلامة أبو عبد الله محمد بن زكرياء البارونى فى الطبقة الثامنة عشر حسب ترتيبه : كل خمسين سنة طبقه .

وأما شيوخه فقد ذكر فى تاريخه بعضا منهم : ذكر أنه أخذ العلم بتونس المؤنسة عن الشيخ البيدمورى، وعن العلامة الشيخ أبى عفيف صالح بن نوح بن زكرياء التندميرتى النفوسى ، قال البدر : عنه أخذت بعض العلوم ، وكان عهد البدر مزدهراً بالعلم ازدهاراً من كل نواحى الثقافة الإسلامية والدين ، ظهر فيه أعلام فخام ، مثل أبى القاسم البرادى وأبى يوسف يعقوب بن أحمد بن موسى ، آية من آيات الله فى جميع العلوم الشرعية والعربية والفلسفية والتاريخ ، وكان

أعلم رجل بتونس فى النحو بشهادة علمائها ، وكثير من تلاميذ الإمام أبى ساكن عامر الشماخى ، فإنه نبغ منهم جمع كل منهم بلغ الذروة العليا :علما وعملا يشار إليه بالبنان ، فرحمهم الله ورضى عنه » .

انتهى إلى هنا ما قاله الإمام القدوة العلامة أبو اسحاق طفيش ، وإذا قال أبو إسحاق فليس لقائل بعده أن يقول ، ولكننى مع ذلك استسمحه أن أزيد كلمة ، وكل ما أريد أن أشير إليه بعد هذا الحديث الممتع الصادق ، المحق الجامع ، أن أشير إلى أن العلامة البدر الشماخى يعد فى نظرى أحد الأعلام الذين قامت عليهم حركة التأليف منذ الاتجاه الجديد الذى اتجهه طلاب أبى موسى عيسى بن عيسى الطرميسى .

وإذا كانت تلك الحركة المباركه آتت ثماراً طيبة ، وتركت لنا تراثا مجيداً تفتخر به المكتبة الإسلامية فإن طريقة أبى العباس فى كتابه القديم « السير » طريقة فريدة ليس لها مثيل فيما عرفناه من كتب التاريخ . فإن المؤلفين فى التاريخ غالبا ما تتخطفهم حوادث السياسة ، ويتتبعون المظاهر الخادعة من حوادث الانقلابات والمعارك العسكرية وسير الملوك والحكام ، ويعتقدون أنهم بذلك قد أرخوا للشعوب والأمم ، والواقع هو أنهم أرخوا لعدد قليل من الناس ، وثبوا إلى كراسى الحكم ، وتصرفوا فى عباد الله وأموال الأمة دون حق ، ولن يعطى ذلك صورة صحيحة عن تاريخ أمة من الأمم أبداً ، فإن أخبار الجيوش والمعارك وتحركات الأجناد والقواد ، وأعمال الحكام الظالمين ، ثم السيطرة على الناس والتحكم فيهم ، وتحطيم المدن والمعاقل ، وما يتبع ذلك من مظاهر القوة والسلطان التى تستعمل فى غير أمر الله ، ليست هى الصورة الصحيحة لتاريخ وحياة أية أمة . .

وقد أدرك العلامة أبو العباس الشماخى هذه الحقيقة فلم ينجرف مع تيار السياسة إلا بمقدار ، وإنما قدم لنا الصورة الحقيقية لجانب من الأمة المسلمة ، هذه الأمة التى تسكن ما بين « سرت » والمغرب الأقصى ، وهو يقدم لنا المادة الحقيقية لتاريخ هذه الأمة فى صورة العالم الذى يلقى دروس الوعظ والإرشاد ، وفى صورة الرجل الذى يحمل الفأس ويذهب إلى الحديقة ليقلب الأرض . وفى الشيخ العالم القدوة الذى يسوق بقرته بعد أن ينزل المطر ليقوم بعملية الحرث ، وفى الطفل اليتيم الذكى الذى يستوهب جحشاً صغيراً ثم يتحايل على صاحبه فيبيعه له ، وفى المجالس العلمية التى تنعقد فى هذا المجتمع أو ذاك ، وفى المبالغ التى تجمع لينفق منها على الأقسام الداخلية فى المدارس المنتشرة ، وفى صورة النصيحة التى تقدمها المرأة المخلصة لزوجها أو لصديقها ، وفى سلوكها عندما يتخذ عليها الزوج ضرة أو يقسو عليها فى الحياة ، وفى حديث البنت الساذجة — عندما تزف — إلى أبيها عن زينتها ، وفى نقاش البنت المتعلمة لأبيها وإدلالها عليه ، وفى كفاح المرأة من أجل العلم ، وفى صورة الأحاديث والمشاورات والآراء والفتاوى والأعمال ، وكل المظاهر التى يعيشها الشعب عيشة حقيقية لمجتمع وأسرة وفرد . .

لقد قرأت كثيراً من كتب التاريخ ، وقرأت كثيراً من كتب الاجتماع ، فلم أجد ما يستهوينى ، كما أجد ذلك فى كتابه « السير » هذا الكتاب الذى يجعلنى أعيش حياة واقعية تمتد عشرة قرون .

أرأيت القصصى الموفق الذى يستطيع أن يبعث الحياة فى شخوص أبطاله ، ويجعلك معجبا بهم مهتما بأعمالهم ؟ إنه أبو العباس الشماخى ، وقصته هذه هى

قصة حياة أمة خلال عشرة قرون ، وأبطالها أبطال الحقيقة لا الخيال ، حقيقة الحياة بما فيها من متعة ، بما فيها من فقر وغنى ، بما فيها من حركة وصراع ونضال ، بما فيها من عمل فردى وجماعى ، والأمة الإسلامية فى حاجة كبرى إلى كتّاب من هذا الطراز يصورون الواقع كما هو ، وكما تشهد به الحياة ، وكما يجرى به التاريخ الواقعى فى فلك الزمان الطويل بعيداً عن توجيه السياسة المغرضة ، والأطماع الزائفة ، والمؤثرات الخارجية ، مقصودة أوغير مقصودة .

## عبد الله بن يحيى الباروني

يشرفني هذه المرة أن أقف لأدع الحديث لأبي النهضة الحديثة في الجزائر ، المؤرخ الأديب الشاعر العالم المصلح أستاذي وشيخي أبي اليقظان الحاج ابراهيم ابن الحاج عيسى ، أطال الله عمره ، ورزقه الصحة والعافية ، ومتع المسلمين بحياته الحافلة بعمل الخير ، وقول المعروف ، والإرشاد إلى سيرة الهـــداة والمصلحين الصالحين قال العلامة أبو اليقظان :

« هو العلامة الجليل، الشيخ عبد الله بن يحي بن احمدالباروني ، وقدوصفه قطب الأئمة الشيخ طفيش في بعض رسائله بقوله : والشيخ عبد الله ين يحيى هو عالم وورع نفوسة ، قال : وأظنه تربي » .

أخذ العلوم الدينية عن العلامة الـكبير الإمام الشيخ أبي عثمان سعيد بن عيسى الباروني، نزيل جربة ، الذي وافته منيته بها في عام ١٢٨٢ هـ .

ثم انتقل إلى مصر للاغتراف من مناهل الأزهر الشريف ، ولا سيما العلوم العقلية منها .

فـكان مثالا للجد والـكد والتحصيل ، والعفة والنزاهة والخلق الـكريم ، فاكتسب بهذه الصفات مركزا ممتازاً بين علماء وأدباء مصر فى ذلك العصر عامة ، وبين رفقائه من التونسيين خاصة ، من بينهم ذلك السري الماجد العلامة الشيخ سعيد بن قاسم الشماخي الشهير، الذي كان وكيلا للدولة التونسية في مصر سابقا إلى أن توفي فيها .

وكان من أصدقائه الكبار: العلامة الجليل، الشيخ أبو زكرياء يحيى بن أيوب الباروني، الذي هو من بلدة كاباو.

## مآثره :

بعد أن أخذ حظه من العلوم العربية بمصر، رجع إلى وطنه جبل نفوسة، فاستقر بفسّاطُو، وهو على جانب كبير من العلم والورع والاستقامة، وكان له نثر رائق وشعر فائق، وأسلوب جذاب، امتلك بها مجامع القلوب من العلماء والأدباء ورؤساء الدولة العثمانية وولاتها إذ ذاك بطرابلس الغرب، فكان له بهذه الصفات الحميدة حظ موفور من الوجاهة والقدْر والاحترام، ظهرت فيما بعد نتائجه الكبيرة من جلب نفع، ودفع ضر للإسلام ولأبناء وطنه طرابلس، ولا سيما إزاء محنة ابنه العزيز سليمان على ما يأتي بيانه، وقد تصدى لنشر العلم والوعظ والإرشاد، ومكافحة الجهل والأمية بين أبناء أمته.

## تلامذته :

من أجل ذلك الجد والنصح والدأب المتواصل تخرج عنه تلاميذ نبهاء، من بينهم شبله العظيم الشيخ سليمان باشا الباروني، ومنهم العالم الجليل شيخ الصحافة التونسية مدير جريدة مرشد الأمة، الشيخ سليمان الجادوي.

ومنهم الأديب اللامع الشيخ عمرو بن عيسى التَّنـدَمِيرْتِي صاحب الديوان الشهير: « القلائد الدرية » الذي سكب فيه دموعاً سخينة على الإسلام وأهله، ومنهم النجيب الشيخ أبو زكرياء يحيى بن أخيه الشيخ عيسى وهو — فيما بعد — أبو زكرياء مفتي لالوت وتوفي في عام ١٣٢٤ هـ، ومنهم ولداه الذكيان الشيخان أحمد ويحيى وغيرهم ...

مؤلفاته :

كما أخذ حظه من تأليف الرجال ، فإنه أخذ حظه كذلك من تأليف الكتب ، وقد رأينا من تأليفه رسالة قيمة فى التاريخ : « سلم العامة والمبتدئين » وهى كاسمها — حقًا — سلم للعامة والمبتدئين للعروج بهم إلى شواهق الرجال الكبار .

ومنها ديوانه الشهير « بديوان الشيخ عبدالله البارونى » ، وهو لعمرى مرآة انعكست فيها أشعة علمه وأدبه وثقافته وخلقه الكريم فى سائر أطوار حياته .

وعظ فيه وأرشد ، ونصح وذكر ، وأنعش به روح الدين والفضيلة ، سكب فيه دموعه السخينة ، وأجج فيه عواطفه الملتهبة نحو إخوانه فى الدين، امتدح فيه الرسول الكريم ، ونوه بالعلماء والصلحاء ، وأشاد بأولى العدالة والعفة والنزاهة من القضاة والأمراء والرؤساء ، ورثى بدموعه الحارة أولئك الراحلين من أهل العلم والصلاح والإصلاح . » إنتهى

إن شيخ الصحافة الجزائرية ، وأبا النهضة الحديثة فيها العلامة ، أبا اليقظان، لم يقف عند هذا الحد من ترجمة الشيخ عبد الله بن يحي البارونى وإنما غلب عليه طبع الأديب الفنان، فأخرج الصورة كاملة الإطار لحياة هذا المصلح الكبير، ولم يهمل الجانب الأدبى منها ، ولذلك فقد استمر يتحدث عن الناحية الأدبية من هذه الشخصية العظيمة .ولولا أننى عازم على الرجوع إلى هذا الموضوع من قريب إن شاء الله فأقدم دراسة أدبية متواضعة عن عدد من الأدباء أمثال الشيخ عبد الله ، والشيخ عمرو ابن عيسى، وأبى نصر وغيرهم، لولا أننى عازم على ذلك لنقلت لك أيها القارىء الكريم بقية هذا الفصل الرائع الذى كتبه أبو النهضة الجزائرية

وشيخ صحافتها ، و إمام شعرائها وأدبائها فى كتابه القيم « سليمان البارونى باشا فى أطوار حياته » .

وكما لا يجد القائل مجالا للحديث بعد أبى اسحاق ، فإنه لن يجد مايقول بعد أبى اليقظان وهل يترك أبو اليقظان مقالا لقائل ؟ ...

ولكننى رغم كل ذلك ، ومع يقينى بأن حديثى سيكون تافها مملا بعد هذا الفصل الرائع من قلم شيخ الصحافة العربية فى الجزائر الإسلامية التى ناضلت الاستعمار الغاشم ، وناضلت الفساد الاجتماعى المستحكم ، وناضلت الجمود الدينى المتعصب ؛ ناضلت كل تلك القوى متظافرة ، وانتصرت عليها ، لأن الحق لاينهزم — وإن طال أمد الكفاح — مهما كانت قوى الباطل والطغيان .. إن الباطل قد ينتصر فى معركة أو معارك ، ولكنه لاينتصر أبداً فى نضاله الدائم مع الحق والعدل والحرية ، مع المبادىء والمثل التى نزلت بها الشرائع وقدستها الأديان، واستجاب لها العقل والطبع .

إننى أريد أن أشير إلى أن العلامة عبد الله البارونى كان مثلا للمؤمن الصادق الذى يكافح من أجل العقيدة ، وهو بهذه الروح القوية ، والعزيمة الصادقة ، والإرادة التى لا تنثنى ولا تضعف ولا تخور ، يتعقب الباطل أينما كان ، سواء كان الباطل فى صورة جهل مطبق على سكان ناحية من الوطن ، أو كان فى صورة استعلان للمعاصى ، ومجاهرة بها ، دون خوف من الله ، أو حياء من المؤمنين ، أو كان فى صورة طغيان حكام ، وضعت بين أيديهم مقدرات الأمة ، فاطغاهم البطر ، فاستذلوا الناس ، وعبثوا بالأمانة ...

إنه يتعقب الباطل سواء كان فى هذه الصور أو فى غيرها من الصور ..

يتعقبها بالموعظة الحسنة ، والسيرة الصالحة ، والتعليم الصحيح ، والأمر بمعروف يدعو إليه الإسلام ، والنهى عن منكر ولو ألفه الناس .

فإذا أنس فى مكان أن الصلاح يغلب على أهله ، وأن الاستقامة هى الطريق التى يسير عليها الناس ، ورأى استجابة وإذعانا للحق ، وسلوكا للمحجة ، انتقل إلى غير ذلك المكان ليبدأ الكفاح من جديد .

وقد بدأ كفاحه فى « كاباو » ثم انتقل إلى «جادو» ، وذهب إلى «يفرن» فجدد راية البجابجة العظيمة ، ولم ينتقل من «يفرن» حتى بدأ الطليان يزحفون على الوطن الحبيب ، ويحتلون أراضيه رقعة بعد رقعة ، وكان يدعو الله ويلح فى الدعاء أن لا يرى وجوه العدو ، وأن لا يكون فى بلد يحتله أعداء الله ، فلما اقتربوا من «يفرن» رجع إلى «جادو» فلما بدأوا يفكرون فى احتلال جادو رجع إلى كاباو وهنالك توفى إلى رحمة الله قبل أن تدنس أقدام أولئك العلوج هذا البلد الكريم ، واستجاب الله دعاء الشيخ ، فتوفاه إليه قبل أن تقذى عيناه الكريمتان بمرأى أعداء الله — أعداء الوطن ، وأعداء الأمة ...

إن الطريقة التى سلكها عبد الله البارونى هى نفس الطريقة التى سلكها من من قبله كثير من المشائخ الذين لم يكن العلم عندهم مجرد نظريات وأقوالا ، وإنما كان العلم عندهم تطبيقاً وتنفيذاً لمقتضاه وسيرة به ، وقد رأيت من قبل سيرة أبى موسى ، وسيرة أبى طاهر ، وسيرة أبى ساكن ، وسير كثير غيرهم من الأعلام ، الذين حافظوا على الإسلام نقياً نظيفا ، كما جاء عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام .

# نظم التربية والتعليم

ينقسم الناس فى المجتمع الإباضى إلى قسمين كبيرين هما : عوام ، ومتعلمون « أو طلبة » والمتعلمون ينقسمون إلى أربعة أقسام :

١ — العزابة .

٢ — العرفاء .

٣ — التلاميذ .

٤ — المستمعون .

● فالعوام هم الناس الذين يشتغلون بأعمال الحياة ، لا يرتبطون بميدان التعليم أو القيام بمهام دينية ، ولو كانوا من فطاحل العلماء .

● والعزابة هم هيئة محدودة العدد ، تمثل خيرة أهل البلد علماً وصلاحاً ، ويشترط فيهم شروطاً معينة ، ويجب أن يكونوا من حملة كتاب الله ، وأن يكونوا مروا بالمنهج الدراسى ، فقطعوا مراحله مرحلة مرحلة ، إلا إذا تعذر ذلك — وهذه الهيئة تقوم بالإشراف على الشؤون الاجتماعية للأمة ، وعلى الأمور الدينية ، من رعاية المساجد ، والقيام بوظائف الصلاة ، كالإمامة والأذان والتصرف فى الأوقاف ، والإشراف على التعليم ، وما إلى ذلك . وهى فى زمن الظهور أو زمن الدفاع تكوِّن مجلس الشورى للإمام ، وفى حالتى الكتمان أو الشراء تمثل سلطة الإمام ، ويختار مجلس العزابة شيخاً لهم من بينهم ، يكون غالباً أعلمهم ، وإن لم يكن أسنهم ، وهو الذى يمثل هذه الهيئة فى جميع أعمالها ، وينفذ قراراتها ، ويتكلم باسمها . . .

وبما أن هذا الفصل عقد للجانب العلمى فإننى سوف أتحدث عن هذ الجانب الهام .

- تتكون هيئة التعليم ممن يأتى :

١ — الشيخ : وهو شيخ العزابة أومن ينوب عنه .

٢ — عريف أوقات الختمات .

٣ — عريف الطعام .

٤ — عريف تعليم القرآن الكريم .

٥ — عريف تنظيم أوقات الدراسة .

- ويتكون التلاميذ ممن يأتى :

( ١ ) طلبة قرآن .

( ٢ ) طلبة فنون العلم والأدب .

( ٣ ) مستمعون .

- مهام الشيخ : بالإضافة إلى مهام الشيخ باعتباره رئيساً للعزابة، وأقوى شخصية تنفيذية فى شئون البلد — العامة والخاصة — فإنه المسؤول الأول عن قضية التعليم .

وتتلخص أعماله التعليمية فيما يلى :

١ — عليه اعتماد سير الدراسة ، ويجب أن تخصص له أوقات يدرس فيها للطبقات العليا من التلاميذ، ويساعده فى مهمته هذه بعض العلماء الآخرين لاسيما حينما يكون عدد الطلاب كثيراً ، ومستوياتهم العلمية مختلفة .

٢ — يتولى تولية العرفاء وفصلهم من وظائفهم .

٣ — يفصل فى جميع المشاكل التى تقع فى المدرسة ، سواء كانت بين التلاميذ أو بين العرفاء ، أو بينهم و بين التلاميذ ، وفصله نهائى لا يطعن فيه . . .

٤ — يعقد ندوات ثقافية بعد كل ختمة و يدير فيها المناقشات ، وله أن يحيل الإجابة على الأسئلة التى توجه إليه إلى بعض الطلاب ، كما له أن يكلف غيره بإدارة هذه الندوات .

٥ — يتحتم عليه أن يقوم قبل الفجر بوقت كاف ، ثم يستفتح لتلاوة القرآن الكريم وعلى جميع الطلاب أن يحضروا هـذا الاستفتاح الذى ينتهى بصلاة الفجر .

٦ — عليه أن يقوم بدرس أو درسين فى الأسبوع ، يخصصهما للأخلاق والدراسات الاجتماعية ، واستعراض سير الدراسة فى الأسبوع ؛ وعلى جميع التلامذ بمختلف مستوياتهم أن يحضروا هذا الدرس . ويحق له أن يستوحى موضوع الدرس من سلوك الطلاب أو العرفاء خلال الأسبوع إذا صدر من أحدهم ما يستلفت النظر، سواء كان ذلك مما يذم أو مما يمدح .

٧ — له وحده حق قبول الطلبة الجدد فى الأقسام الدراسية أو رفضهم، فإذا ورد على المدرسة طالب جديد نظر العرفاء فى أمره ، فإذا كان عابر سبيل عومل معاملة الضيف ، فسمح له بالمأوى والأكل حتى يسافر، وإذا كان يريد الالتحاق بالمدرسة ونظامها الداخلى عرض أمره على الشيخ ، فإذا ثبت لديه أنه حسن السيرة والسلوك ، متمسك بدينه أمر بقبوله وإذا ثبت أنه غير محمود السيرة أمر برفضه ، فإن جاء من بعيد ولم يعرف حاله فإنه يترك فى الوقوف ، ويسمح له بالسكنى والأكل مؤقتاً حتى يعرف حاله فيقبل أو يرفض .

● العريف المكلف بالختمات :

نستطيع أن نطلق عليه ضابط المدرسة ، وهو أقوى شخصية بعد الشيخ ، وأهم عنصر فى التربية ، ويتلخص عمله فى المهام الآتية :

١ — إعلان انتهاء الدورة الصباحية : وذلك بأن يدعو جميع الطلاب إلى حضور دعاء الختام ، فيدعو أسن القوم ، وإذا انتهى الدعاء قام الطلاب .

وحضور هذا الدعاء الختامى حتمى .

٢ — الدعوة إلى حضور ختمة المغرب : بعد صلاة المغرب ينادى الطلاب إلى الختمة ، فيجتمعون إلى أكبرهم سناً ، فإذا استداروا فى الحلقة استفتحوا للقراءة ، فيتلو قارئان ما تيسر من كتاب الله إلى وقت صلاة العشاء الأخيرة ، فيدور بينهم دعاء الختام .

وحضور هذه الخاتمة واجب حتمى .

٣ — اختتام المذاكرة الليلية : بعد صلاة العشاء يترك الطلاب فى مذاكرة حرة مدة ليست طويلة ، ثم يدعوهم إلى الختمة ، فيقرأ أحدهم آيات من كتاب الله ، ويدعو دعاء خفيفاً ، ثم يلقى أحد المقتدرين كلمة مناسبة فى التوجيه والإرشاد ، كتوجيه بعد كفاح يوم كامل ، ويستحسن أن تستوحى تلك الكلمة من الآيات التى سبق أن قرئت ؛ وبعد هذه الكلمة يختم بالدعاء ويقوم الطلبة إلى النوم ، وحضور هذه الختمة ليس واجباً حتمياً ، وإنما هو واجب كفائى يكفى فيه حضور بعض الطلاب .

٤ — إعلان ابتداء النوم فى الظهيرة : بعد أن يتناول الطلاب غذاءهم فى القسم الداخلى يجب أن يناموا ، وعلى هذا العريف أن يعلن إليهم ذلك ، ولا يحق لأى واحد منهم أن يتخلف عن نوم القيلولة ، لأن ذلك قد يكون ذريعة لعدم القيام فى الليل .

٥ — إعلان ابتداء النوم الليلى : بعد كلمة الختام يعلن العريف إلى الطلبة وجوب ذهابهم إلى مضاجعهم ، ولا يحق لأى واحد منهم أن يتلكأ أو يحدث ضوضاء تؤثر على راحة الآخرين ، وقد يسمح لبعض كبار المتعلمين فى المراحل النهائية أن يأخذوا كتبهم ويبتعدوا عن عنابر النوم ليزدادوا مذكراة ، على شريطة أن لا يؤثر ذلك مطلقاً فى راحة بقية الطلاب .

● عريف الطعام : وهو المشرف على الأكل حسب تعبيرنا فى الوقت الحاضر، وتتلخص مهامه فيما يأتى :

١ — ترتيب جلوس الطلاب عند الأكل وتنظيمهم ، سواء كان ذلك فى مطعم المدرسة العادى أو كان خارجه ، كما إذا كانوا فى رحلة مدرسية أو استضافهم أحد الناس .

٢ — على الطلاب أن يحضروا إلى الأكل باللباس الكامل وهو الزى الخاص بهم ، وعريف الطعام هو المسؤول عن مراقبة ذلك .

٣ — تسجيل الغياب عن الطعام ومعرفة أسبابه .

٤ — ملاحظة سلوك الطلاب ومدى تطبيقهم لآداب الأكل المعروفة حينئذ .

٥ — إعلان الانتهاء من الأكل ، فلا يحق لأى طالب أن يقوم من مكانه ، أو يغسل يديه إلا بعد أن يعلن ذلك عريف الطعام وذلك أن العريف ينظر حتى إذا تحقق أن جميع الطلاب اكتفوا ورفعوا أيديهم نادى بدعاء الختام ، فيدعو أكبر القوم ، وبعده ينصرف الطلاب .

٦ — يشرف على توزيع الطعام والفاكهة أو الطرف .

٧ — يقسّم بمساعدة من يشاء الهدايا أو الطرف ، من الفاكهة التى يؤتى بها إلى المدرسة بالسوية بين المدرسين والعرفاء وجميع الطلاب ، سواء كانوا فى الأقسام الداخلية أو كانوا طلاب منازل .

٨ — يشرف على تنظيم الوجبتين الإضافيتين : وذلك أن لهذه المدارس تقليداً رائعاً ؛ وذلك أنها تقدم وجبتين خفيفتين : إحداهما عند الاستراحة الصباحية ، والأخرى عند الاستراحة المسائية بعد صلاة العصر ، ويكفى فى هذه الوجبة الخفيفة أن تكون فاكهة ، أو تيناً أو بلحا أو ما شابه ذلك . والطريف فيها أن الطلاب عند بدء الاستراحة سواء فى الصباح أو فى المساء ينقسمون إلى مجموعات ، على كل مجموعة عريف أو نقيب ، يكون أنبه المجموعة وأذكاها ، ويستحسن أن يكون أسنها ، فإذا قدمت فرقة التوزيع تعين على كل فرد أن يلقى ثلاث مسائل فى أى من الفنون شاء ، ابتداء من العريف أو النقيب ، فمن قام بهذا الواجب الخفيف أعطى له نصيبه ، ومن لم يستطع حيل دونه ودون هذه الوجبة فإذا استطاع أن يهيىء موضوعه قبل أن تنصرف فرقة التوزيع وذكر مسائله الثلاثة أعطى له نصيبه ، وإلا حرم منه فى ذلك اليوم ، ولا يجوز لأى واحد منهم أن يعيد ما يقوله زملاؤه .

وعريف الطعام هو المسئول عن تنظيم هاتين الوجبتين ، حتى ينتهى منها الطلاب فى أسرع وقت ، وذلك بأن يجعل المجموعات صغيرة ، ويعين نقباءها من أول السنة الدراسية ، ثم يجعل نظاماً متبادلا لفرق التوزيع ، بحيث يقوم عدد من الفرق كل يوم بهذه المهمة على التبادل ، أعنى أن المجموعات هى نفسها تقوم بالتوزيع حسب جدول يومى يضعه عريف الطعام .

• عريف أوقات الدراسة : قريب بما نسميه اليوم بعريف الفصل ، وتتلخص مهامه فيما يأتى :

١ — تسجيل التأخر عن وقت بدء الدروس أو بدء الحفظ .

٢ — حفظ النظام فى الفصول الدراسية .

٣ — تشغيل الطلاب بواجباتهم عند غياب المدرس وفى أوقات المذاكرة ..

• الأوقات التى لا يجوز للطالب أن يتخلف فيها بغير عذر شرعى :

١ — الاستفتاح للتلاوة قبل الفجر .

٢ — دروس الدورة المسائية ، وتبتدئ بعد صلاة الظهر .

٣ — تلاوة ما بين المغرب والعشاء .

٤ — الأوقات المعينة للدروس الصباحية .

٥ — دروس الوعظ والإرشاد العامة فى المسجد .

٦ — دروس الأخلاق والاجتماعيات .

٧ — الندوة الختامية بعد انتهاء الدورة الصباحية : يتحتم أن يجتمع الطلاب على الشيخ أو أكبر مساعديه ، وقد أعدوا عدداً من الأسئلة لتلقى على الشيخ ، وقد تتناول تلك الأسئلة مسائل علمية أو مسائل اجتماعية ، أو تتعلق بالأحداث التى تقع فى البلد .

وللشيخ أن يجيب عليها أو أن يحيلها إلى من يشاء من العلماء أو الطلبة ، ولكل من فى المجلس حق الملاحظة والاشتراك فى الحديث وزيادة الإيضاح والشرح إذا رأى أن الجواب غير كاف .

- عريف حفظ القرآن الكريم :

قد يكون واحداً ، وقد يتعدد حسب اللزوم ، وهؤلاء العرفاء فى الواقع هم القائمون بتعليم القرآن ، ويشترط فى هذا العريف أن يكون حافظاً لكتاب الله حفظاً جيداً عارفاً برسم المصحف ، وتتلخص مهامه فيمايلى :

١ — تكون عليه حلقة من الطلاب الذين يحفظون القرآن الكريم لا تزيد عن عشرة ، ولاتقل عن اثنين ، وقد تكون أكثر من ذلك إذا كان عدد العرفاء قليلا .

٢ — عليه أن يتولى الإملاء عليهم حين الكتابة ، وأن يستعرضهم عند الاستظهار ، وأن يصحح ألواحهم بعد الكتابة .

٣ — يجعل على الفرقة نقيبا يكون واسطة اتصال بينه و بين الفرقة ، فلايبدأ الاستعراض إلا إذا أخبره النقيب أن كل الطلاب قدحفظوا ألواحهم ، ولا يبدأ التصحيح إلا إذا أخبره النقيب أن جميع الألواح قد جفت .

٤ — لايحق لطالب أن ينتقل من عريف إلى عريف آخر إلا بموافقته .

٥ — على العريف أن يختبر طلابه فيما حفظوا من أسبوع لأسبوع .

٦ — طلبة القرآن الكريم يخضعون لاشراف عرفائهم فى أوقات الدراسة ، ويخضعون لعريف الطعام فى الأكل ، ويخضعون لعريف الخيمات فى النوم .

٧ — طلبة القرآن يتحتم عليهم حضور دروس الأخلاق الأسبوعية فقط .

٨ — عريف حفظ القرآن هو المسئول عن الناحية الخلقية لتلاميذه ، وعليه أن يرفع إلى الشيخ الحالات المستعصية التى لايتمكن من علاجها .

نظم الدراسة : تنقسم الدراسة إلى مرحلتين :

الأولى : يحفظ فيها الطلاب القرآن الكريم ، ويتعلمون القراءة والكتابة ومبادىء الحساب .

الثانية : يدرس فيها الطلاب أنواع المعارف المعروفة فى ذلك الحين ، ولا يقبل الطالب فى المرحلة الثانية إلا إذا حفظ كتاب الله ، فحفظ القرآن الكريم بمثابة شهادات اليوم .

● أقسام الطلاب : ينقسم الطلاب إلى ثلاثة أقسام :

١ — طلبة القرآن

٢ — طلاب علوم

٣ — مستمعون

١ — طالب القرآن و إن كان يتمتع بكثير من الحقوق لكنه لا يعتبر تلميذاً رسميا إلا بعد أن يستظهر القرآن الكريم ، ولذلك فهو لا يطالب بالزى الرسمى الموحد للطلاب ، ولا يحق له الاستفادة من خصائص الطلبة ، و إنما توفر له المدرسة المأوى والأكل وأوقات الدراسة .

٢ — طالب العلوم يشترط فيه أن يكون حافظا للقرآن الكريم ، حسن السيرة والسلوك ، محافظا على دين الله ، معمراً للمسجد ، ملتزما بلبس الزى الرسمى الموحد للطلاب .

ولهؤلاء الطلاب حقوق وامتيازات لا تعطى لغيرهم . منها صالة خاصة بهم تعتبر كنادلهم لا يجوز لغيرهم أن يدخلها ، ومنها مكتبة خاصة بهم أيضا ، ومنها

الندوات التى تعقد فى صالتهم ، ومنها الدروس الخاصة التى يلقيها عليهم الشيخ أو بعض العزابة ، ومنها أنهم يستقبلون فى ناديهم بعض الشخصيات ليستفيدوا منها ولا يحق لغيرهم حضورها، وهذه الاستثناءات بطبيعة الحال لاتتناول العزابة ، لأن العزابة قبل أن يكونوا عزابة كانوا تلاميذ ومروا بجميع هذه المراحل ، ثم هم من الناحية الأدبية يعتبرون مشرفين على الجميع .

وهم فى دراستهم العلمية ينقسمون إلى فرق حسب مستوياتهم ، وللشيخ أن يعين مدرسين لبعض هذه الفرق ولكن يحتم عليهم جميعا أن يحضروا الختمات العامة والدروس العامة .

٣ — المستمعون: ويتكون هذا القسم غالبا من طلاب فاتتهم مراحل الدراسة فلم يستطيعوا أن يسايروها ،إما بعدم حفظ القرآن الكريم أو عدم التمكن من المواظبة ، أو غير ذلك من الأسباب ، وهم مع ذلك مشغوفون بالدراسة ، ولهؤلاء الطلاب حق الاستفادة من الدروس التى شاءوا دون أن يتقيدوا بنظام ، ولهم أيضا حق فى الوجبتين الخفيفتين عند الاستراحة الصباحية، أو الاستراحة المسائية، ويطلق على هذه الفئة فى النظام الذى وضعه العلامة أبو عبد الله محمد بن بكر كلمة — العجزة — ويوصى العالم الكبير بالعطف على هؤلاء ومساعدتهم كل المساعدة، لاسيما أولئك الذين تعطلوا عن دراستهم بسبب إصابات، كالعمى أو غيره من الأمراض . وإذا كان بعض هؤلاء العجزة قد ابتلى بالعجز البدنى عن الكسب، والعجز العقلى عن التعلم ، فلا يرى أبو عبد الله مانعا من الانفاق عليه كما ينفق على الطلاب النظاميين ، مراعاة للجانب الإنسانى .

أعتقد أننى أعطيت القارىء الكريم صورة عن نظام التعليم ونظام الأقسام الداخلية فى تلك العهود الزاهرة ، وإن كانت الصورة التى أعطيتها مختصرة ؛ جدا

وقد تكون هنالك كثير من الجوانب تركتها إما سهواً وإما لأننى لا أرى كبير فائدة منها للقارىء الكريم ، وذلك مثل أنواع التأديب والعقاب وغير ذلك . ومن شاء الدراسة الكاملة لهذا النظام فعليه أن يقرأ أولا سير أبى الربيع سليمان بن يخلف ، ثم نظام العزابة الذى وضعه أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائى فإنه يجد فيهما ما يتوق إليه من التدقيق والتوسع .

وبعد هذا: فإليك أيها القارىء الكريم فى الفصول الآتية تخطيطاً جغرافياً، وصورة طبيعية للمناطق التى عاش فيها الإباضية ولا يزالون يعيشون .

# زُوَاغَة

«زواغة» مدينة عظيمة تقع غربى طرابلس بنحو خمسين كيلومترا على شاطىء البحر، ويطلق عليها اليوم اسم «صبراته» والى هذه المدينة كان يرجع أكثر السكان البداة فى السهل المنبسط بين البحر والجبل. هذا السهل الغنى بالثروتين الزراعية والحيوانية، وفى هذه المدينة نشأ عدد غير قليل من العلماء الأعلام، الذين كانوا يحافظون على رسالة الإسلام، ويبلغون دعوة الله، إلى الأحياء الضاربة فى ذلك السهل الفسيح فيواصلونهم بالدروس والتفقيه فى دين الله لا يكلون ولا يفترون من أمثال أبى الخطاب وسيل بن سنتين، وأبى بكر بن يحيى، وأبى موسى عيسى ابن السمح، ويزيد بن يخلف، ويخلف بن يزيد، وعشرات غيرهم، ولو لم ينشأ فى هذه المدينة العظيمة من كبار العلماء إلا أبو الخير لكفى ...

عاش أبو الخير توزين الزواغى[1] فى القرن الرابع، وقد كانت طرابلس تحت حكم الدولة العبيدية، أما جبل نفوسة فقد كان مستقلا بحكمه، وكانت مدينة زواغة كغيرها من المدن التابعة لتلك الدولة الظالمة ترزح تحت أعباء الضرائب الباهظة، والاستغلال المشين، وكان أبو الخير الزواغى رجل علم ودين لا يأبه للدنيا ولا يملك منها فجاءه يوماً عامل[2] الحكومة الظالمة يطالبه بدفع مائة دينار للدولة، وفكر الشيخ العالم طويلا ثم استمهل العامل وصعد إلى جبل نفوسة، وقصد إلى صديقه المخلص أبا على الفساطوى فأخبره الخبر، فقام أبو على وأحضر إليه مائة دينار ثم قال له: ادفع عنك الأذى .

---

(١) توزين كلمة بربرية معناها ذو الجمال، أو ذات الجمال، تطلق على المذكر والمؤنث.

(٢) هو عوصلت مولى للمعز بن باديس راجع: السير: ص٣٣٦ .

ورجع أبو الخير إلى زواغة ودفع المال إلى العامل الظالم ، ولكن العامل بدا له ، فلم يلبث أن انتشرت رسله تبحث عنه فى كل وجهة ، وأرشدهم الناس إلى مصلى أبى الخير على شاطىء البحر حيث يفرغ من دنيا الناس ليناجى ربه ، فما وصلوه حتى ذهبوا به إلى العامل، فقال العامل للشيخ خذ مالك. وأخذ الشيخ المال وصعد إلى الجبل ليرجع المال إلى صاحبه أبى على، فقال أبو على: ما كنت لآخذ مالا أعطيته لله ، واحتار أبو الخير مرة أخرى من هـذا المال ، فهذا العامل الظالم يفر منه بعد أن أخذه ، وهذا صاحبه أبو على يمتنع من استرداده ، أفيحتفظ به هو ؟ ...

وأشرقت فى قلبه المؤمن فكرة .. إن هذا المال لله ، ويجب أن يفرق على عباد الله . ووقف أبو الخير يفرق المال على الفقراء والمساكين ، لا يمسك منه لنفسه ديناراً ولا درهما .

عرض أبو على على أبى الخير أن يقاسمه — ماله وكان صاحب ثروة عظيمة — فقال أبو الخير مستنكراً : ما أريد بمالك يا أبا على ؟.

إن أبا الخير لو أراد أن يملك مالا لسلك السبيل التى يسلكها طلاب المال، ولكنه لا يقيم للدنيا وزنا ولا يجعل لها حساباً .

كان أبو الخير لا يفتأ ينتقل بين زواغة وجبل نفوسة ، ماراً بهذه الأحياء الضاربة فى السهل الفسيح ، يفصل مشاكلها ، ويعلمها أحكام دينها ويأمرها بمعروف هى فى حاجة إليه ، وينهاها عن منكر برز بسبب الجهل بدين الله ..

وكان لا يطيل الإقامة لا فى الجبل ولا فى زواغه ، فقد كان يضع حديدة فى رف عندما يدخل زواغة ، و يتفقدها من حين إلى حين ، فإذا وجد أن صدأ بدأ

يعلوها قال : هذا الحديد قدصدأ أفلا تصدأ القلوب ؟!..ثم يسافر ليزيل الصدأ عن قلبه وقلوب إخوانه المؤمنين : إما فى الطريق وإما فى الجبل ، فيفيد علما وخلقا ودينا ويستفيد . . .

شكا إليه بعض الناس حاله فقال : أشكو إليك من قلب قاس ، وعقل لا يفهم ، ولسان لا يسأل ، وبدن لا يخشع ، ويد لا تعطى ، ورجل لا تزور . .

فقال أبو الخير : دواء الست بالست : محبة المسلمين ، وقراءة القرآن ، والتضرع إلى الله عند السحر ، وقيام الليل ، والصيام ، وزيارة المسلمين[(١)] .

هذه هى « قائمة الأدوية » التى أعطاها هذا الطبيب النفسانى لهذا المريض.

وهذا الجواب يكفى للدلالة على منزلة أبى الخير فى العلم والدين وفهم أسرار النفس البشرية .

هذا رجل يشكو من قساوة قلبه فما هو العلاج ؟.. قال أبو الخير إن القساوة لا تعالج إلا بعاطفة مضادة لها، وهى الحب، وهل تبقى قساوة فى قلب ممتلىء بالحب؟. وأى حب يا ترى هذا الذى تعالج به قساوة القلوب ؟

إنه الحب الذى يتسع للناس: الحب الذى يغمر المسلمين،الحب الذى يرتكز على الخير والفضيلة .

وشكا إليه عقلا لا يفهم، فماذا قال أبو الخير ؟.. لقد قال: إنه لا يفتح مغاليق الفهم ويبعث كوامن الذكاء مثل قراءة القرآن الكريم ، والتدبر فى معانيه ، ورياضة الذهن فى مجاله الفساح ، والعقل الذى تصقله الآيات من كتاب الله

---

(١) راجع السير: ص ٣٣٦

سوف يشع لفهم ما فى الكون من الآيات والعبر ، وما يجرى فى الحياة من أعمال البشر ؛ أما اللسان الذى لا يسأل ، اللسان الخجول أو الكسول الذى ينعقد فى فم صاحبه ، فلا ينطلق لبحث المشاكل والحديث عما تكنه القلوب، هذا اللسان وصف له أبو الخير علاجا ناجحاً ناجماً، لا للسان فقط، لكنه لجميع أمراض القلوب قال أبو الخير: إن علاج هذا اللسان هو التضرع إلى الله عند السحر ، فى هذا الوقت الساجى الساكن الذى تهمد فيه الطبيعة، وتموت الحركة، يتجه لسان المؤمن إلى عالم الخفايا والأسرار فيبثه من حاله ، ويشكو إليه سوء الحالة ، ويطلبه المغفرة عما ارتكب، فإذا تعود الكشف عن حاله لربه سهل عليه حينئذ أن ينطلق متحدثا مع الناس لاسيما عندما يجد أقوالا أو أعمالا لا يعرف حكمها عند الله، ولا يعرف ماذا يقول عنها لربه وهو يناجيه فى السحر منفرداً .

إنه لا يلبث أن يقبل إلى أولئك الذين رزقهم الله علما وفهما يستوضحهم المشاكل ويستفهمهم عن التوازن .

وسأله الرجل عن علاج بدن لا يغمره الخشوع؟ فوصف له الدواء قال أبو الخير إن علاج البدن الذى لا يخشع إنما هو قيام الليل ،ينهض المؤمن فى وسط الليل وقد همدت الحياة فى الكون، وكف كل شىء عن الحركة، فيتوضأ المؤمن ويحسن وضوءه ، ثم يستقبل القبلة ويقف للصلاة ، إنه لا شىء أبعث على خشوع البدن من هذا الموقف الذى يقف فيه الإنسان بين يدى ربه منفرداً لا يستشعر حركة، ولا يقف إلى جانبه حى فيصلى ما شاء الله، وقلبه معلق بالسماء، ونظره لا يمتد إلى ذراع،فتسرى فى هذا البدن الواقف فى الظلمة قشعريرة الخوف،وقشعريرة الاطمئنان، الخوف من عذاب الله ، والاطمئنان إلى رحمة الله ، فإذا تعود الإنسان على هذا الإحساس المنفرد الذى يجرده من علائق الحياة بقيام الليل أصبح بدنه مركزاً لهذه القشعريرة كلما وقف بين يدى ربه للعبادة، وقد علم تبارك وتعالى أثر قيام الليل

على نفوس وأبدان بنى الإنسان، فأوجبه على خير خلقه عليهم السلام ، وقد فرضه الله سبحانه وتعالى أول ما فرضه على رسوله عليه السلام ، وعلى أصحابه الكرام واستمر ذلك الفرض سنة كاملة . وكان الرسول عليه السلام والمؤمنون حراصاً على القيام بهذا الفرض ، حتى تورمت أقدامهم ، وأصبح خشوع أبدانهم طبيعة ثابتة فيهم عند ما يقفون أمام جلال الله ، ثم خفف الله عنهم ، وجعله تطوعاً .

وإنه لمما يناسب هذا المقام ما قاله الأخ المسلم الأستاذ سيد قطب فى كتابه القيم « فى ظلال القرآن » الجزء التاسع والعشرون صفحة ١٧٩ :

« إن مغالبة هتاف النوم ، وجاذبية الفراش بعد كد النهار ، أشد وطئاً وأجهد للبدن ، ولكنها إعلان لسيطرة الروح ، استجابة لدعوة الله ، وإيثاراً للانس به ، ومن ثم فإنها أقوم قيلا ، لأن للذكر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجات فيها شفافيتها ، وأنها لتسكب فى القلب أنساً وراحة وشفافية ونوراً ، قد لا يجدها فى صلاة النهار وذكره . والله الذى خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ، ويعلم مايتسرب إليه ، ومايوقع عليه ، وأى الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيؤا ، وأى الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه » .

لقد شرح الأستاذ قطب هذه النقطة التى أشار إليها أبو الخير بما فيه الكفاية ، فإن قيام الليل أجهد للبدن ، ولكنه إعلان لسيطرة الروح عليه ، وهل الخشوع إلا سيطرة الروح على الجوارح وتحكمها فى زمام الإرادة ؟ . . .

أما اليد البخيلة التى تستمسك بالمال وتشح ولا تسخو به على من يستحق

المـال ، فإن علاجها نوع آخر من العبادة ، قال أبو الخير : إن علاج اليد التى لاتسخو بالمـال، ولا تنفق فى الخير إنما هو الصيام ...

الصيام : هذه الرياضة الروحية التى ترتفع بالإنسان عن أدران المـادة . وتحلق به فى سماء الملائكة ، جاعلة منه مخلوقاً لا ينظر إلى المـال إلا على أساس أنه نعمة من النعم الكثيرة التى أودعها الخالق الحكيم على الأرض، لتستفيد منها الإنسانية جمعاء ، ولا يستأثر بها شخص عن شخص ، ولا ينفرد بها إنسان دون إنسان ، لأنها من حق الجميع ، فإذا وضعت الأقدار بعض هذى النعمة بين يدى إنسان، فليس من حقه أن يحبسها عن عباد الله إلا بمقدار ماعنده من حاجة إليها ، الحاجة الحقيقية الحاضرة ، لا الحاجة البعيدة التى يقدرها ضعاف الإيمان لما استتر فى الغيب ، وعندما يسمو الإنسان بتفكيره عن أوضار الحياة ، ويترفع عن قيود المـادة ، يصبح عنده امتلاك المـال والشح به رذيلة من الرذائل التى تتطهر منها النفوس الزكية .

وإذا كان الإنسان إنما خلق ليقطع مرحلة الحياة بما خف من زاد ، لايثقل على الظهر أو الفكر ، ثم جرب من نفسه فوجد أنه يستطيع أن يقطع نصف هذه المرحلة دون زاد أو مال عندما يلتجىء إلى الصوم ، هذه الطهارة الروحية التى تستغنى عن النفقات نصف اليوم ، إذا جرب من نفسه ذلك . ووجد عنده الإرادة ، والقوة فلماذا يستمسك بالمـال ويحرص عليه ؟ . . .

ثم إن هذا المـال الذى يجده الإنسان بين يديه يتكاثر وينمو ، حيناً بالكسب، وحينا بدون كسب ، إنما هو ضرورة من ضرورات الحياة يحتاجها الغير ، فلماذا لا يدع له هذا المـال أو بعضه ، إنه ليس من حقك أيها المؤمن أن تبيت شبعان ويبيت جارك جوعان ، فإذا كان هذا المـال لا يمكن أن يكفى

اثنين فلماذا لا تصوم أنت وتدع جارك يأكل مما عندك من مال الله ؟ ، إنك لو فعلت فتقربت إلى ربك بالصوم وتقربت إليه بالصدقة وأنت فى نفس الوقت لا تستكثر التضحية ولا تستكبر ما قدمت من عمل كنت جديراً بأن تعالج شح نفسك ، وتعود يديك على الانطلاق والبذل . . .

هذه بعض المعانى التى يوحى بها الصيام إلى أولئك الذين يلتجئون إليه ، ليرتفعوا بأنفسهم فى مدارج الكمال والرقى . . .

ويخمدوا فى أنفسهم همسة الغريزة : غريزة الجمع التى تحرص عليها اليد ، أو غريزة الشهوة التى تنطلق إليها الأعضاء . . .

بقى لنا السؤال السادس من الأسئلة التى وجهت إلى أبى الخير ، فأجاب عنها إجابة المؤمن العليم بأسرار الإسلام ، وأسرار النفوس البشرية . . .

قال أبو الخير : أما الرجل التى لا تزور : فعلاجها من نفس الداء ، ويتوقف على قوة الارادة وصحة العزيمة والارتفاع عن الصغائر ، فقد يكون امتناع الرجل عن الزيارة ، زيارة الأهل أو زيارة الأقارب ، أو زيارة المرضى ، أو زيارة المسلمين ، أو زيارة من لهم عليها حقوق . قد يكون ذلك الامتناع ناشئاً عن حادثة تافهة ، أو كلمة نابية ، أو استثقال ظل ، وعلاج هذا المرض إنما هو فى حمل هذه الرجل على زيارة المسلمين ، وعندما تزور أخاً فى الله ، فتجد منه ترحيباً وإيناسا ومحبة ، يشجعها ذلك ، وتعاود الزيارة ، فإذا عادت ووجدت كما وجدت من قبل إقبالا وتفهما ومشاركة ، كان ذلك باعثا لها على موالاة الزيارة على أن الزيارة التى تحسب فى هذا المقام إنما هى الزيارة فى الله ولله .

فإذا دخلتها مقاصد المصلحة العاجلة فإنها حينئذ لا تفيد فى علاج النفوس . إن الأمراض النفسية لا تعالج إلا بالمعانى الروحية ، فإذا دخلتها فكرة المادة فسدت وأفسدت . . .

هذا تعليق بسيط على أجوبة أبى الخير للرجل الذى سأله عن بعض أمراضه النفسية ، وشكا إليه ما يحسه من آلام الروح ...

لم أزدها إيضاحا ، ولكنى حاولت أن أجعلها فى قالب تفصيلى يتمشى مع أسلوب هذا الكتاب .

وإنى لأعتذر للقارىء الكريم إذا أضعت شيئاً من وقته ولم أساعده فى فهم ما يرمى إليه الفيلسوف النفسى العظيم . . .

وأعتذر إلى أبى الخير إذا حملت كلامه على غير ما يريد بسبب قصورى وضعفى . . .

ثم أستغفر الله من الخطأ والزلل ومجانبة الصواب ...

# زُوارَة

«زُوارَة» مدينة عامرة تبعد عن طرابلس بنحو سبعين ميلا إلى الغرب، وتقع على شاطىء البحر فى مكان جميل ، وقد كانت تنقسم من قبل إلى مدينتين ، إحداهما «وَزْدَرْ» والثانية «ولول» ويظهر أن «وزدر» قد انتقلت فى ظروف غامضة إلى «ولـُـول» وأصبحت مدينة واحدة هى «زوارة» المعروفة اليوم، وقد مر الرحالة التجانى بتلك الربوع وكتب عن أهلها بقلم مجانب للانصاف ونحن ننقل إليك أيها القارىء الكريم ما يقول هذا الرحالة السائر فى ركاب الأمراء .

يقول التجانى فى رحلته التى نشرتها كتابة الدول للتربية القومية والشباب والرياضة فى الجمهورية التونسية صفحة ٢٠٧ ما يلى :

« زوارة الصغرى: وتعرف أيضاً بوطن بلد المرابطين، وهى قرية ذات نخل كثير باسق الارتفاع ، وماؤها فى غاية العذوبة ، وقد استولى الآن الخراب على هذه القرية، فليس العامر منها إلا بعض الغامر ، وأهلها قوم من الخوارج ، غلاة فى مذهبهم،موصوفون بتصميم فى دينهم، وأمانة فيما يودع عندهم ، مكفرين بواقعه الذنوب ، ورأيت منهم أقواما قد نحلت من العبادة أبدانهم ، واصفرت ألوانهم ، بانين فى ذلك على هذا الأصل الفاسد من تكفير العصاة على ما تقدم بيانه عند ذكر جربة ...

وأظهر أهل وطن المرابطين شيخ يعرف بعبد الرحيم الزوارى ، وجميعهم يعظمه ويقدمه ، رئاسة وسنا وصلاحا بزعمهم ، اجتمعت به ، فرأيت شيخا مجتهداً فى العبادة ، حسن السمت ؛ إلا أنه باعتقاده الفاسد قد ضيع أعماله ، وخسر

حاله ومآله ، وتوسمت فى أحد من وصل معه الطلب ، فتكلمت معه ، فوجدته قد شارك فى طرف من العلم ، وانجرّ الكلام معه من التحدث فى أصل المعتقد إلى التحدث فى مسألة المسح على الخفين فى الطهارة ، فشنع بها على مثبتيها كثيراً ، وفاقا لمذهب الخوارج، فذكرت له بعض الأحاديث الواردة فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فردها بالجملة ، وقال : هذه أخبار آحاد لا يجب العمل بشىء منها » .

وأطال الرحالة التجانى فى مسألة مسح الخفين ثم قال : « وأمام هذه القرية قريبا منها قصر يسمى « وِزدر » بكسر الواو وسكون الزاى وكسر الدال المهملة قد محى رسمه وبقى اسمه ، وتخرب أكثر البناء الذى يحف به ، ولم يبق من أهله إلا أناس قليلون ، سكنوه حبا للوطن » . ثم انتقل بعد كلام قليل عن « وزدر » إلى ما سماه « زوارة الكبرى » فقال : « فبتنا تلك الليلة بظاهر وطن ، ثم أصبحنا من الغد مرتحلين فأجتزنا فى أول المرحلة على زوارة الكبرى التى تسمى « كوطين » بضم الكاف وكسر الطاء المهملة ، وهى قرية أضخم من الأولى وأكبر غابة ، وفى أهلها شجاعة موصوفة ، وعزة أنفس ، وطاعتهم للعرب مشوبة بعصيان ، وكان نزولنا منتصف النهار بظاهر ولول ، وبين وطن وظاهر ولول عشرون ميلا ، وهما قريتان متشابهتان عذوبة ماء ، وخراب بنيان ، وولول هى منتهى أرض زواره ، وسميت بذلك لأن أقواما من البربر يُعرفون ببنى ولول نزلوا بها ، وكذلك تعرف فى القديم بأرض بنى ولول ، وهى أكثر بقاع الأرض ظباء ، ولأهلها دراية فى صيدها بأشباك ينصبونها لها ، تميزوا بذلك عن غيرهم » .

هذا بعض ما قاله التجانى عن زواره وأهلها ، والذى يفهم مما كتبه الشيخ عريبى العزابى عن حياة العلامة سعيد بن صالح بن زيد الذى عاش إلى القرن

العاشر الهجرى أن زواره فى ذلك الحين تتكون من مدينتين عظيمتين : هما « ولول » و « وزدر » ورحلة التجانى كانت قبل ذلك بنحو مائتى سنة ، وفيها يذكر أن وزدر لم يبق بها إلا قليل من السكان حبا فى الوطن ، فما مقدار هذا الحديث من الصحة .

إن وزدر اليوم لايوجد بها عمران، وقد انضم سكانها إلى ولول حيث كونوا معهم مدينة واحدة وأمة واحدة ، فهل ضعف عمران وزدر فى القرن الثامن الهجرى كما يذكر التيجانى، ثم ازدهر فى القرن العاشر كما يقول الشيخ عريبى ، ثم اضمحل بعد هذا الازدهار ؟ أم أن أحد الرجلين لم يصل إلى الحقيقة ؟ . . إننى أترك رواية التجانى ، فهى فى حاجة إلى التمحيص. أما رواية الشيخ عريبى فقد اقترنت بحوادث تاريخية تجعل ما ورد فيها صحيحا كل الصحة .

قال الشيخ عريبى : « فكانت فى حياته — أى حياة سعيد بن صالح — زواره مقسمة إلى بلدين عظيمين أحدهما : زواره ولول وهى هذه العامرة .

والثانية : زوارة وزْدَر وهى فى جهة سيدى على ، وطالما تصدر بين البلدين منافسات تؤدى إلى القتال بينهما . »

ويذكر الشيخ عريبى أن للعلامة سعيد بن صالح جهوداً مشكورة فى الإصلاح بين البلدين والتوفيق بينهما .

إذن « فوزدر » لم تكن خالية فى القرن العاشر ، وإنما كانت قوية مزدهرة تناصب ولول العداء ، وتلاقيها فى مجال القتال، ولو لم يقترن هذا الحديث بالحدث الثانى وهو حياة الشيخ سعيد بن صالح بن زيد وكفاحه الكبير فى التوفيق بينهما، وإنشائه لمصلاه المعروف إلى اليوم ، وجعله للاجتماع الذى بقى عادة متبعة منذ ذلك

اليوم إلى هذا الحين، يتلاقى فيه رجال البلدين الكبيرين ، لو لم تبق هذه الآثار شاهدة لاعتمدنا كلام التيجانى، وحسبنا أن وزدر قد انقرضت منذ القرن الثامن أو التاسع على أكثر تقدير .

ولكننا أصبحنا نعتقد أنها لم تنضم إلى ولول إلا بعد أن أزاح العلامة سعيد ابن صالح ما بين البلدين من سوء تفاهم، فسهلت الهجرة على سكان وزدر إلى ولول أو كوطين تدريجيا، حتى بقيت وزدر أطلالا خربة لا حياة فيها إلا عندما يذهب أهل زواره إلى زيارة مصلى العلامة سعيد بن صالح بن زيد .

ويضيف العلامة الشيخ على بقوش فيقول :

إن أراضى زوارة تنتهى إلى تليل، وإن سكان هذا القصر هم أيضا من زوارة، ويقول : إن زوارة فى التاريخ القديم — ولست أعنى بالقديم ما قبل الإسلام — كانت تتكون من ثلاثة حصون ؛ حصن وزدر، وحصن ولول ، وحصن تليل ، والعلاقة بين زواغة وزوارة كانت متينة جدا، وإن غلب على علماء زواغة الاتصال بجبل نفوسة ، وعلى علماء زوارة الاتصال بجزيرة جربة ، ولا سيما عن طريق البحر الذى يربط البلدين فيجعلهما يعيشان عيشة متشابهة من جميع نواحيها إلى اليوم .

# زوارة والتيجانى

أرى أنه يجب علىّ أن أعود مرة ثانية إلى الحديث عن زوارة والتيجانى ، ذلك أن كلام الرحالة التيجانى فى حاجة إلى مناقشة من بعض الجهات .

وأنا حين أناقش التيجانى أعلم تمام العلم أن هذا الرحالة قام برحلته وهو فى ركاب أمير يقوم بخدمته ، ويسعى إلى مرضاته ، ويتلقى منه الإحسان والعطايا ، وأعلم كذلك أن لهـذا الرحالة ظروفه وبيئته وجيله ، واعلم مدى تأثر هؤلاء الـكتاب الذين يقومون مقام الصحافة الموجهة اليوم ، فيبسطون الدعاية ويسبقون الرغبة ، ويلتمسون وسائل الرضا .

إننى أعلم كل ذلك ، ولست أطلب من الرحالة الـكبير أن يكتب فى ذلك العصر بروح هذا العصر ، ولـكننى مع ذلك أستطيع أن أجد كثيرا من الحقائق التى تنـكشف عند التأمل النزيه ، والنظرة المنصفة . . ولقد نقلت كلام التيجانى فى الفصل السابق عن أهل « زوارة » الـكرام ، والنقاش الذى دار بين الرحالة الـكبير وبعض علماء هذه المدينة التى سماها «زوارة الصغرى» ، وقد أطال التيجانى فى مناقشة مسألة واحدة مما دار فيه الجدل بينه وبين عبد الرحيم الزوارى ؛ هذه المسألة هى المسح على الخفين .. وذكر فى بحثه الطويل: أن عدم جواز المسح على الخفين قول مروى عن الإمام على بن أبى طالب ، وأنه مذهب الشيعة ، وأنه قول الإمام مالك فى رواية عنه ، ثم عقب على هذا البحث بأنه لم يصح عن الإمام على . وقال فى الرواية الواردة عن الإمام مالك : أنه يجب أن لا تحمل على ظاهرها ، وذكر أنه من صحح الرواية عن مالك تأولها ، ويختم هذا البحث الطويل بقوله :

« وبالجملة فالعلماء مجمعون على خلاف هذا القول ، وقد نصوا على تفسيق من قال به ، وقول هذا الزوارى : أن هذا من أخبار الآحاد ، ليس كذلك ، فقد نص الأئمة على أن هذا الحكم مما ارتفع عن خبر رتبة الآحاد ، ووصل إلى رتبة التواتر . »

إنى أدع التعليق على مسألة المسح على الخفين ، فإنها مسألة فقهية فرعية يختلف فيها علماء المذهب الواحد فضلا عن علماء الأمة جمعاء ، ودعوى التيجانى الإجماع فيها قد نقضه هو نفسه بنقله لخلاف الشيعة والإمام على والإمام مالك والخوارج ، ومن ذهب مذهبهم .

فلندع هذه المسألة لعلماء الفقه والحديث ، فقد أشبعوها بحثاً ومناقشة ، على أنه مما يستلفت النظر فى هذه القضية : أن التيجانى هو الذى التمس الاجتماع بالشيخ الزوارى ، وعمل من أجل ذلك ، وكان مفهوماً بطبيعة الحال أنه لم يبحث عنه ويعمل للاجتماع به إلا ليجرى معه فى حلبة الجدال ، وجاء عبد الرحيم الزوارى وكان شيخاً وقوراً ، حسن السمت ، مجتهداً فى العبادة ، مشاركاً فى طرف من العلم — بشهادة التيجانى نفسه — وبدأ النضال بين الرجلين ، فجرى أولا فى أصول المعتقد ، ثم انتقل إلى بعض الفروع ، حتى جرهما الحديث إلى المسح على الخفين .

لماذا يا ترى حرص الرحالة العظيم أن ينقل محضر النقاش الذى دار بينه وبين عبد الرحيم الزوارى فى مسألة فرعية هى المسح على الخفين — وقد جرى فيها الحديث عرضاً — وسكت عن أصل النقاش وموضوع الجدال فى أصول المعتقد ، التى قال : إن الحديث جرى أول ما جرى فيها ؟ لماذا لم يذكر لنا التيجانى حججه وحجج خصمه ، وما سأل وأجاب به كل واحد منهما ، كما فعل فى مسألة المسح على الخفين ؟ . .

فهل وصل الرجلان إلى اتفاق ؟ أم أن هذا الزوارى الوقور الحسن السمت

المجتهد فى العبادة ، استطاع أن يلزم صاحبه الحجة ، وأن يفوز عليه فى ميدان المناظرة ، فسكت العلامة الرحالة عن نقل هذه الحقائق المؤلمة ، واكتفى عن كل ذلك بكلمات من السباب وجهها إلى زوارة ، وعلماء زوارة ، ثم عوض عن هذه السكتة بالانطلاقة الطويلة فى قضية المسح على الخفين ؛ هذه المسألة التى وجد فيها مجال القول أوسع ، وميدان الحديث والتعليق أفسح .

بعد هذا أريد أن أرجع من جديد إلى ما نقلته لك فى الفصل السابق من حديث التيجانى ، وأرجو من القارىء الكريم أن يقرأه معى بإمعان وتدبُّر ، ثم يشطب من ذلك الحديث كلمات السب التى لا تعنى شيئاً من حقائق الحياة والتاريخ ، ويقرأ بعد ذلك ما كتبه التيجانى عن أهل زوارة ، فإنه سوف يجد الحق الصراح فى ذلك ، وها أنا أنقل ذلك الكلام واضعاً خطا تحت كلمة السباب التى يجب حذفها . . .

قال التيجانى : « وأهلها قوم من الخوارج الغلاة فى مذهبهم ، موصوفون بتصميم فى دينهم ، وأمانة فيما يودع عندهم ، مكفرون بمواقعة الذنوب ، ورأيت منهم أقواماً قد نحلت من العبادة أبدانهم ، واصفرت ألوانهم ، بانين فى ذلك على هذا الأصل الفاسد ، من تكفير العصاة على ما تقدم بيانه عند ذكر جربة . وأظهر أهل وطن المرابطين شيخ يعرف بعبد الرحيم الزوارى ، وجميعهم يعظمه ويقدمه ، رئاسة وسنا وصلاحاً ، بزعمهم ، اجتمعت به فرأيت شيخاً مجتهداً فى العبادة ، وحسن السمت ، إلا أنه باعتقاده الفاسد قد ضيع أعماله ، وخسر حاله ومآله ، وتوسمت فى أحد من وصل معه الطلب فتكلمت معه ، فوجدته قد شارك فى طرف من العلم . »

إنك لونزعت الـكلمات التى تحتها خط والتى هى سباب لامبرر له ، لوجدت التيجانى يقول فى سلاسة ووضوح هكذا . « وأهلها قوم ... موصوفون بتصميم فى دينهم ، وأمانة فيما يودع عندهم ... ورأيت منهم أقواماً قد نحلت من العبادة أبدانهم، واصفرت ألوانهم ، وأظهر أهل وطن المرابطين شيخ يعرف بعبدالرحيم الزوارى ، وجميعهم يعظمه ويقدمه رئاسة وسنا وصلاحا ... اجتمعت به فرأيت شيخاً مجتهداً فى العبادة ، حسن السمت، فتكلمت معه ، فوجدته شارك فى طرف من العلم . »

إن شهادة التيجانى على زوارة وأهل زوارة هى هذه ، فهذا ما رأى وهذا ما سمع ، وهذا ما يحق لنا أن نأخذه منه ، أما رأيه فى القوم ومعتقدهم فذلك موضوع ليس من اليسير أن يتحدث عنه التيجانى فى ذلك العصر المشحون بالتَّعَصُّبِ ....

على أننا نعود إلى مناقشة آراء التيجانى — حتى فى هذه المواضيع — لنرى مقدار ما عند التيجانى من الحق ...

ويصف التيجانى أهل زوارة وجربة وغمراش وكثيرا من الجنوب التونسى بأنهم خوارج يستحلون أموال المسلمين ودماءهم، وأنهم يحكمون بتكفير العصاة ، وأنا حين أناقش التيجانى فى هذا الصدد احترز بعض الاحتراز ، فقد يكون التيجانى اجتمع ببعض الخوارج أو ببعض الناس الذين ينتسبون إلى الإباضية ولكنهم ليسوا كذلك ، فى رحلته الطويلة بالجنوب التونسى ، ومع ذلك فمن المعروف فى التاريخ أن الجنوب التونسى، وجزيرة جربة ، والقطر الليبى، كان عامراً بالإباضية ، وتاريخ الإباضية فى هذه البلاد معروف، وقواعدمذهبهم معروفة أيضاً ، ولن يجد التيجانى أو غير التيجانى دليلا واحداً على هذه الدعوى، فالإباضية أبعد

الناس عن الخوارج ، وأشدهم عليهم ، ولعل من أعظم ما يؤاخذ به الإباضية فرق الخوارج المخالفة : هو استحلالهم لأموال المسلمين ودمائهم ، فزعمه أن الإباضية خوارج غلاة فى مذهبهم زعم باطل من أساسه ، ولقد يكون التيجانى نفسه أقرب إلى الخوارج من الإباضية ، فهو حين يجلس على موائد مخدومه : تلك الموائد التى حفلت بأنواع الطعام المغصوب ، إنما يعمل عمل الخوارج ، وإن لم يقل قولهم ، وجريمة العمل أعظم من جريمة القول ... وإلا فبأى حق استحل تلك الأموال التى تغتصب من قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن ماجاء به حق من عند الله ..

أما النقطة الثانية التى شنع بها التيجانى على أهل زوارة فهى تكفير العصاة ، ولو أتيح للتيجانى أن يزداد دراسة ، ويطلع على كتب الشريعة الإسلامية وأبحاث علمائها الأعلام ، بل لو رجع إلى دراسة كتاب الله وتفهمه تفهما عميقاً لما حمل نفسه هذا العناء ، ولوجد أن كلمة الكفر تطلق على المعصية ، وأن الإباضية حين يطلقونها فى هذا الباب فهم يعنون ما عناه المشرع الحكيم فى كثير من آيات الكتاب ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يحكمون مطلقا بالشرك على من آمن بالله ، ولو لم يتبع إيمانه عملا صالحا . . . وأن هناك فرقاً كبيراً وبونا شاسعاً بينهم وبين الخوارج .

ومن هذا يتضح أن عنف التيجانى وحنقه الشديد على الإباضية ، وحكمه على الشيخ عبد الرحيم بخسران الحال والمآل ، إنما ينتج عن عدم فهم وقصور علم

وقد مضى التاريخ بالرجلين وطواهما فيما طوى ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نستخلص من حديث التيجانى عن زوارة حقائق هامة تتلخص فيما يلى :

١ — كان أهل زوارة فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن قوماً

مستمسكين بدينهم حراصاً عليه محافظين ، على الأمانة ، جادين فى طاعة الله .

٢ — كانت الحركة العلمية عندهم فى ذلك الحين لا بأس بها ، إذ يوجد عندهم مثقفون يشاركون فى فنون الثقافة المعروفة فى ذلك الحين .

٣ — يكونون مجتمعاً ضيقاً ، ولكنه متماسك متآزر ، يأنف من الذلة ، ويكره الاستعباد .

٤ — تعتمد حياتهم الاقتصادية على الزراعة .

٥ — كان لهم علماء عظام ، يصمدون للجدال ، ويقارعون الرجال ، ويدافعون عما يعتقدونه حقاً ببلاغة وبرهان .

هذه حقائق ثابتة نستخلصها من التيجانى الرحالة الذى خدم ابن اللحيانى بكل ما لديه من علم وحذق وذكاء ، ومهد له إلى الملك ، ثم عصفت به عواصف الحياة ، وقلبت له ظهر المجن ، فطوحت بآل التيجانى جميعاً فى مطاوى النسيان ، قرابة قرن من الزمان(١) .

---

(١) يقول الأستاذ الكبير حسن حسنى عبد الوهاب فى مقدمته على رحلة التيجانى ص ٢٩ :

« ويختفى عنا نبؤه — أى صاحب الرحلة — وأنباء آل التجانى جميعاً ، سواء فى ذلك الكبير منهم والصغير . ولم نعثر على ذكر لواحد منهم ، فماذا دهاهم ياترى ؟ .

هل قتلوا عن آخرهم ، كما استشهد أبو الفضل فى المعمعه ؟ أم فروا بحشاشات أنفسهم فى أثناء تلك المحنه إلى بعض الاماكن القصيه البعيده . ؟ »

وبعد عدة تأويلات لهذا الغياب الكامل لآل التيجانى الذين كانوا خداما للملوك زمناً غير قصير يقول الأستاذ حسن : « ويمر قرن كامل من الدهر ، ويطوى الزمان — على عادته — الصحيفة المشوهة لتلك المحن ، فيظهر تحت سماء تونس الصافية آخر عقب للتيجانى . »

# الشيخ سعيد بن صالح بن زيد

فى زُوارَة الجميلة الضاحكه ، على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، نشأ العلامة سعيد بن صالح بن زيد . وإنه ليسرنى أن أدع المجال فى هذا المقام للشيخ عربى العزابى ، يحدثنا عن هذا الرجل العظيم ، الذى استطاع أن يربط صلة الأخوة والمحبة بين المتنافرين ، ويوصل حلقات التزاور بين المتباعدين .

قال الشيخ عربى : « إن حياة الولى سيدى سعيد بن صالح — نفعنا الله ببركاته — حسب التحقيق . والأخذ من المصادر الموثوق بها . كانت فى أوائل القرن العاشر الهجرى ، أى منذ أربعمائة وثلاث وخمسين عاماً تقريباً . . .

أما سيرته فى حياته : كان رحمه الله رجلا صالحاً وعظيما عند عموم الإباضية ، مسموع الكلمة ، يرجع إليه العامة فى جميع الأمور ، وعندما تقع المنازعات ، تفصل أمامه حسب إشارته ورأيه ، كما هو معهود فيه من القيام بالمصالح ، والسيرة الحسنة ، حتى اشتهر بالصلاح وحب الخير ، فى عموم أقطار الإباضية كجربه والجبل الغربى ، وزوارة ، وبنى ميزاب ، وغير ذلك ، فاتخذته العامة قدوة يقتدون به فى أمور دينهم ، ومرجعاً لهم لمصالح دنياهم ، وتوجهت إليه الأنظار ، ومالت إليه القلوب من جميع الأطراف .

وكان رحمه الله قدوة فى حياته ، أفنى وقته فى إصلاح ذات البين ، وجعل مرامه السعى فى رضا الله ، وراحة عباده .

كانت زوارة فى حياته مقسمة إلى بلدين عظيمين : أحدهما « زُوَارَة ولـّول »

وهى هذه العامرة ، والثانية : هى « زوَارة وَزْدَر » وهى فى وجهة سيدى على ، وطالماتصدر بين البلدين مناقشات تؤدى إلى القتال بينهما ، ابتدأت هذه المناوشات قبل حياة الشيخ ، ثم امتدت إلى زمانه ، فلما رأى الحالة سيئة بين إخوانه بادر رحمه الله بهمته العالية إلى إخماد نار الفتنة بين إخوانه ، وإصلاح ذات البين بينهم ، فجمعهم مراراً ، وصار يعظهم ، ويرشدهم إلى الاتفاق والاتحاد ، حتى وفقه الله بسبب إرشاداته ونصائحه ، فأمر رحمه الله جميع بلدان زوارة من هنا ومن سيدى على بالاجتماع كل عام ، فى الموضع الذى فيه ضريحه الآن . بنية الزيارة ، وعند اجتماعهم هناك يقوم بإلقاء النصائح ، ينهاهم ، ويحبب الاتحاد والتضامن ، إلى أن صارت زوارة سيدى على ، وزوارة ولول على قلب واحد بسبب هذه الزيارة التى يجتمع فيها العموم ، وقيامه بينهم بالإرشادات النافعة فى دينهم ودنياهم ، وحيث أن هذه الزيارة أسست على خير البـلاد ، وراحة العباد ، استحسنتها الأوائل ، وتركتها لعقبهم خلفاً عن سلف ، سيما وأن الشيخ سيدى سعيد من عظماء الإباضية المشهورين بالصلاح ، فجميع الإباضية أينما كانوا يعتقدون فيه الصلاح ، فعملوا له مزارات فى جل البلدان ،أعظمها مزارُ ضريحه الذى يحق لنا احترامه بجميع ما يليق بمقامه العظيم ، وله مزار فى جربه ، ومزار فى وادى ميزاب ، وفى جهة الجبل الغربى ، وكان هذا المزار موسماً فى كل عام لدى جميع الإباضية ، إحياء لذلك الشعار الموسمى لما فيه من المواعظ الوثيقة ، واتحاد الـكلمة ، حتى كان البلدان بلداً واحداً ، على قلب واحد ، لا شىء يحط من كرامتهما أمام الأمم المخالفة لها .

وصارا أخوين على سرر متقابلين ، يدور بينهما كأس سلسبيل ... وصارا عصبة واحدة ضد من يضمر لها شراً . . .

وإذن يجب على زوارة ولول اليوم الزيارة كل عام إلى هذا الولى الصالح، إحياء لذكراه، وما كان عليه من إصلاح ذات البين ».

هذا ما كتبه الشيخ عريبي العزابي عن المصلح العظيم، وليس لى ما أضيفه غير ملاحظة عابرة، تتعلق بجانب من جوانب الموضوع.

لقد بذل المصلح الكبير العلامة سعيدبن صالح بن زيد جهوداً جبارة، حتى استطاع أن يجمع بين المتخاصمين الذين أوصلهما سوء التفاهم إلى القتال، وتمكن من جمع القلوب على الصفاء والمحبة، واتخذ هذا الاجتماع مؤتمراً سنوياً يعالج فيه الناس مشاكلهم الدينية والدنيوية، وهذا عمل عظيم، وإذا استمر على هذا المنوال يجتمع فيه أبناء الأمة لهذا الغرض العظيم، يستعرضون مشاكلهم، ويحاسبون أنفسهم، ويقومون أعمالهم، ويرسمون خطوط السير للسنة المقبلة، إذا استمر هذا الاجتماع على هذا المنوال، فإنه يكون عملا عظيما، يحقق أحسن النتائج... ولكنه إذا انحرف عن هذا المغزى الكبير، وأصبح مظهراً للفخر والظهور والإسراف والتبرك بقبور الأولياء الميتين، يتسابق إليه الناس بالتبجح وإظهار الغنى ووسائل الترف، من خيول مذهبة السروج، وسيارات فخمة من أحدث ما أنتجت مصانع أوربا وأمريكا، إذا انحرف هذا الاجتماع إلى المنحى البعيد عن روح الإسلام وسُمُوّه، فإنه يكون حينئذ مرضاً اجتماعياً من الأمراض الخطيرة، التى يجب معالجتها، والقضاء عليها.

إننى لم أحضر هذه الزيارات التى يقوم بها أهل زوارة الكرام إلى سيدى سعيد، ولكننى أعرف عدداً من المزارات ترتكب فيها أعمال يبرأ منها الإسلام، بل إنها تكون موسماً من مواسم الرذيلة، تستباح فيها الحرمات، ويختلط فيها الحابل بالنابل، ويقصدها الفجار من الأماكن البعيدة، ظاهراً بقصد التبرك وباطناً لما فيها من متعة العين والنفس وما يتبعهما.

وإن الصالحين من المسلمين الأحياء منهم والأموات ، يَبرءون من أولئك الذين يتخذون قبورهم أو مصلياتهم وسيلة لارتكاب المنكر ، والبعد عن دين الله .

إن ذكرى الصالحين والأولياء ، هى أن نقوم بالأعمال التى يدعو إليها الإسلام ، ونقف عند حدوده ، فإذا استطعنا أن نسير فى هذا المنهاج فقد أحيينا ذكراهم ، ومجدنا بطولتهم ، إن الإسلام دين تذوب فيه الفردية وتقديس الرجال ، ولقد جعلت لنا الأسوة الحسنة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما من شخص مهما بلغ من التقوى والصلاح يحول بينها وبين الاتجاه إلى هذا الرجل العظيم والاقتداء به ، وعلى هديه نلتقى ، ومن صفائه نستقى ، ومن نوره نقتبس . لقد ترك محمد صلى الله عليه وسلم كتاب الله وسنة نبيه بين أيدينا ، ترك كتاب الله غضا طرياً كما نزل من السماء ، وعلينا أن نعرض عليه مشاكلنا وعقائدنا وأعمالنا ، وبذلك نرضى الله ونرضى رسول الله ، ونرضى الصالحين من المؤمنين . . .

# وادي لالوت

هو واد عميق، كثير الأشجار ، غزير المياه عند حملانه ، يسقى أرضاً فسيحة خصبة ، يتجه فى مبدأ أمره إلى الجنوب ، ثم ينعطف فى نصف دائرة إلى الشمال فيحتضن المدينة العظيمة لالوت ، و يكاد يحيط بها إحاطة كاملة .

ولالوت مدينة لها تاريخ مجيد فى الإسلام ، ربضت على قمة منبسطة من جبل شامخ ، يقتطعها عن بقيـة القمم والجبال واد عميق الغور من ثلاث جهات ، ويجعل منها شبه جزيرة صخرية ، حصينة المداخل ، آمنة من العدوان المفاجىء . وفى هـذا الوادى الذى يلتف بها كما تلتف يد الولهان بخصر الحبيب تنبع كثير من العيون والآبار، وتنتشر على جميع جهات البلد ، وهى تتفاوت فى غزارة المـاء ، ولـكنها تتقارب فى عذوبته ، وفى منابع هـذه العيون والآبار تزدهر بساتين وأجنة جميلة ، يتخذها الناس مصائف ، ويقضى فيها الشباب أوقاتا من البهجة والأنس والمتعة ، ومن هذه المتنزهات الغزيرة المياه :

تو نِينْ ،وإيجَـرْ بَـنْ ، واِلحِـشْيانْ ،وسَـرْ كوكَـمْ ، وأدْ بير ، وتَـغـليس . وتعتبر العين الأخيرة أعذب العيون ماء ، وكانت تسقى غابة ظليـلة من شجر الزيتون والنخيل والـكرم والـكمثرى وغيره ، وتوجد غير هـذه عشرات من العيون التى تنبع من بين الصخر تتفاوت قوة وضعفا .

فى هذه المدينة التى وصفها أبو العباس الشماخى بأنها مدينة الأشياخ والعلم ، نشأ عدد غير قليل من العلماء الأعلام ، ومن العالمـات الفاضلات ، كان من بينهم العلامة أحمد بن بصير ، ومحمد بن بصير ، وأبو زكرياء يحيى بن جرناز أحد

أعضاء الجمعية التى ألفت الديوان ، ويكفى أنها أخرجت أبا الربيع سلمان بن هارون، وأبا سهل .

أما من نوابع النساء فقد نشأت بها المؤمنة الصالحة العالمة « زينب اللالوتية» التى كانت تعيش فى «لالوت» متمسكة بأشد مايمكن من حجاب المرأة، ولم يمنعها ذلك أن تعيش فى عصرها ، وتعرف مجتمعها ، وتتبع الحركات التى تقع فى كامل الجبل، فتشترك بالرأى والكلمة الحسنة ،والدعوة إلى الخير . بلغها أن أمة الواحد زوجة أبى عامر التصرارى أعلنت شيئا مما تحرص النساء على إخفائه ، فبعثت إليها تقول فى توبيخ عنيف ونهى عن المنكر شديد :

لو أمكن لنا أن نستر قبورنا بين القبور لفعلنا . واستجابت لها أمة الواحد وتابت من عملها ذلك و بعثت إليها تعتذر ، وهكذا ، فقد كانت المرأة فى ذلك العصر حية شاعرة متصلة بالأحداث التى تقع فى وطنها ، ولم تكن قابعة فى زاوية من البيت يقيد الجهل لسانها ، ويملأ الفراغ عليها يومها ، وتشحن الخرافات عقلها ، وتشغل الصغائر ذهنها كما هو الحال عند المرأة اليوم .

أما أم سحنون : فقد كانت مزاراً للمشايخ ، ومعقدا لاجتماعاتهم ومشاوراتهم ، وكثيراً ما اجتمعوا عندها فى مهمات الأمور ، فجاؤوا من يفرن ، وجادو ، وشروس ، ليجتمعوا عند أم سحنون فى لالوت(١)

وعلى ضفة الوادى من الشرق مقابل لالوت تقع مدينة تيغيت التى غير اليوم اسمها ،فأطلق: عليها أولاد محمود، وقد أصبحت قرية صغيرة جداً ، وبجانب هذه

---

(١) راجع السير : ترجمة أبى عامر التصرارى .

المدينة إلى الشمال مصلى ينسب إلى عاصم السدراتى ، كثيرا مايجتمع فيـه الناس لصلاة الاستسقاء .

وإلى الشمال من لالوت بمسافة تقارب عشرين كيلو متراً فى السهل الواقع غربى هذا الوادى الذى ينحدر وهو يتلوى كالأفعوان تقع مدينة «تاغـرّ ويـْت» أو على الأصح أطلال مدينة « تاغـرُّويـْـت» تلك المدينة التى تنتشر حولها عيون وآبار كثيرة ، غزيرة المياه ، وتنتشر حولها مزارع خضر ، وبساتين غناء ، قال فيها أبو العباس فى كتابه السير صفحة ٢٩٦ : « وتاغـَرّويـْـت مدينة قريبة من لالوت ، تحتها ، وجـَلاَ أهلَـها زناتةُ . واجتمع فيها فى أيام أبى ويسجمين سبعون شيخاً ، وأكثر أهلها ذهبوا إلى وارجلان » . وإلى الجنوب من هذه المدينة الـكبيرة بمسافة قصيرة تقع القرية الجميلة « تْـكُـوتْ » على رأس ربوة مستديرة مرتفعة تحيط بها من جميع الجهات غابات من النخيل تـكون واحة صغيرة خضراء جميلة ، وتَـسقى هذه الواحة من مياه الآبار ، كانت من قبل تستخرج بطريقة الدلاء المعروفة ، أما اليوم فقد زود أكثرها بمحركات ، وتعتمد لالوت كثيراً على هذه القرية فيما يتعلق بالخضار والغلال .

وإلى الشرق من «تيفيت» تقع مجموعة من القرى يطلق عليها اليوم « الحوامد » وأشهر هذه القرى فى التاريخ الإسلامى « تالات » التى وقعت فيها عدة وقائع حربية ، وهاجر أكثر أهلها إلى جربة ومنهم العلامة « التلاتى » العالم المتواضع الذى نجد آثار قلمه فى كل كتاب تطالعه من كتب نفوسة ، يعلق عليها باستحياء ، ولـكن بإفادة وإمتاع .

وغير بعيد منها تقع « تيركت » وفيها مسجد تهدم جانب منه ، ولا يزال الجانب الثانى يروى للتاريخ العلم والخلق والدين . . .

وتمتـــد مزارع لالوت الخضراء ، وبساتين التين والزيتون على مسافة أربعين ميلا نحو الغرب حتى تتصل بوازن ، يقول العلامة الـكبير الباشا البارونى فى تعاليقه على « سلم العامة والمبتدئين » صفحة ٣٣ :

« ويليها — أى لالوت — غرباً على مسافة مرحلة : قرية « وازن » وهى الحد الفاصل بين ولاية طرابلس وإيالة تونس ، وأهلها إباضية كلهم ، كلالوت ، وفيهما رجال محترمون لهم غيرة وحمية على الدين » .

# وادي كرّاين

هو واد عميق شديد العمق ، ينحدر من الجنوب إلى الشمال متخذاً أخدوداً بعيد الغور فى الجبل ، وهو ضيق فى أعلاه متسع فى منحدره ، و يصب المياه التى يحملها فى مواسم الأمطار فى الحقول الفسيحة التى تنتج أجود الحبوب ، من قمح وشعير ، و يتفرع من أعلاه إلى فرعين عند العين الشرارة التى تسقى منها « كباو » الحالية بالوسائل الحديثة لتصريف المياه

يتجه أحد الفرعين إلى الشرق الشمالى حيث ينتهى فى الشلال الجميل الذى تنبع منه عين « رقّو » العذبة الماء ، الغنية بالغلال .

أما الفرع الثانى : فيتجه إلى الجنوب الغربى ، وعلى الضفة الشرقية لهذا الوادى تقع مدينة « كباو » الجميلة دائرة حول ربوة مرتفعه يلمع فوق قمتها قصر الحزين كأنه عمامة عملاق عظيم ، وقد انبتت هذه المدينة من عظماء الرجال عدداً يتشرف به التاريخ ، ويكفى أن تربتها الزكية، ومناظرها الساحرة ،وقممها الضاحكة للشمس تعاونت على تكوين أعظم رجل أنجبته ليبيا فى العصر الحاضر : سليمان باشا البارونى : الذى كان من أفذاذ العالم ، لم يعرف التاريخ المعاصر من حارب الباطل بإخلاص كإخلاصه ، الباطل فى جميع صوره وأشكاله، سواء ماورد منه مع الجيوش الاستعمارية الغازية ،أو فى أبواق الدعوة المشتتة ،أو ما دُسّ فى الفكر والعلم المنحرف وقد وقف فى الميدان كما يقف المارد الجبار يدافع عن الحمى ضربات المدافع ، ويرد جيوش العدو المتعاقبة ، ويقود الجنود البواسل من أبناء الوطن .

ولقد استطاع أن ينير الطريق بفكره النير لعصبة الأمم ، فأعجبت بآرائه،

ولكن غلبتها شهوة الاستعمار فلم تنفذها ، وجاءت اليوم هيئة الأمم المتحدة فوصلت إلى ما دعا إليه البارونى من قبل ، وأصبحت قضية تصفية الاستعمار من أمجد الأعمال التى قامت بها هيئة الأمم ، ولو استمع العالم من قبل إلى البارونى لانتهى اليوم من هذه المشاكل ، واتجهت جهوده إلى معالجة مشاكل أخرى لا تزال فى حاجة إلى علاج .

لقد شغل البارونى فكر العالم مدة من الزمن ، كانت الدول تنظر إليه بإعجاب فاغرة الأفواه ، وقد مرت فترة من التاريخ لا تخرج منه جريدة فى أنحاء العالم ليس فيها خبر عن البارونى أو من البارونى ، وليست هذه الشهرة قاصرة على الميدان السياسى أو الميدان العسكرى ، وإنما تشمل جميع ميادين الإصلاح .

ومن العين الثَّرارة التى تروى « كباوْ » الحالية ، يتجه هذا الوادى العميق أو الخندق الكبير نحو الشرق حتى يصل إلى المدينة العظيمة « إبنَايَنْ » تلك المدينة التى كانت مركز الحكم لأبى هارون موسى الملوشائى وابنه أبى الربيع ، ومأوى لعدد غير قليل من أعلام الفكر والقلم والحكم ، ومن حولها تقع عدد من القرى التى تشبه أن تكون ضواحى لهذه المدينة العظيمة

وتقابل «إبناين» من الجنوب مدينة « جْلِيمَتْ » التى أنجبت فيمن أنجبت أباهارون الجلالى صاحب المدرسة العظيمة التى أنجبت أعلاماً يتشرف بهم التاريخ . وعند مايصل وادى كراين إلى مدينة بناين يتجه فرع منه إلى الجنوب الغربى حتى ينتهى إلى شلال « فَنْدَهْ » وعلى الضفة الغربية لهذا الفرع تتناثر بقايا أطلال مدينة « تَمَّاسِينْ » يرتفع من بينها مسجد العجوز الصالحة، جدة المشايخ أم الزين اللالوتية .

أما الوادى الأصلى فينعطف مستديراً حول «بناين» إلى الشمال ، يشق تلك

الجبال الشواهق فى امتـداد وقوة ، وعلى ضفته الغربية تقع ( تصْـرَارَ ) بلد أبى عامر التصرارى .

وينحدر الوادى فى اتساع واطمئنان حتى يصل إلى المنفسح الذى أقيمت عليه مدينة « أبى رغوة » محتلة جانبى الوادى وما فيه من أجنة و بساتين وعيون دافقة ، وعلى قمة الجبل الشرقية لهذه المدينة يجثم قصر «العَـنـقَـر» فى يقظة وانتباه ، يقابله على القمة الغربية من الوادى قصر « عَسطَـرْشُـو » كأنهما حارسان أمينان .

وهذا الوادى من أعلاه إلى أسفله من أكثر البلاد شجراً وثمراً وماء ، وقد كانت الشمس فى يوم من الأيام أذل من أن تجوس خلاله ، لما التف فيه من الأشجار .

ويوازى هذا الوادى من الغرب واد آخر لا يقل عنه خصوبة وعمراناً ، وهو وادى «الشيخ» ، وعلى الضفة الغربية لهذا الوادى تقع «القَـلْـعَـةَ» و« تَلاَتْ» المدينة التى عاش فيها أسلاف العلامة الكبير أبى سليمان داود بن ابراهيم : هذا الرجل الذى لا يكاد يخلو كتاب من كتب الأصحاب من تعاليقه وحواشيه .

وإلى غربى هذه المدينة تنتثر أطلال « تنومات » ، تلك الأطلال التى يختبىء بها مسجد أبى محمد ، كأنما يخشى على الفن المعمارى الذى نحت به ، والنقوش الجميلة الرائعة على جدرانه وسواريه ، والآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، والحكم البليغة التى حلى بها محرابه وسقفه أن تعبث بها أيدى المتوحشين من الناس الذين لا يحترمون قداسة المساجد ، ولا يرعون حرمة التاريخ ، ولا يعجبون بجمال الفن .

وعلى الضفة الشرقية لهذا الوادى تقع قرية « بودير » و « تملّل » تقابلهما من الغرب أطلال « كمزين » يربط بينهما مسجد أبى سليمان الكمزينى ، ويضيق الوادى متصاعداً بين الجبلين فى التواءات كثيرة حتى ينتهى فى موضع المدينة التاريخية الكبيرة ( وريورى ) وقد حرف اسمها اليوم قليلا فأصبح يطلق عليها ( وَرْوُرِى ) وإلى الجنوب من أطلال هذه المدينة تمتد بساتين أشجار الفاكهة المختلفة ، وحقول الحبوب ، وتنتشر بينها الصهاريج والمنازل المنحوتة فى الجبل ، وتعتبر هذه الناحية من أجمل مصائف « كباو » .

وإلى الشرق من كباو تقع مدينة فرسطاء العظيمة التى أصبحت اليوم قرية صغيرة ، وقد كانت فى عهد ازدهارها لا تقل عظمة عن «تملوشايت» و«شروس» ، وتتصل بهذه المدينة مجموعة من القرى تكون لها ضواحى جميلة ، وفى هذه المدينة نشأ عدد غير قليل من العلماء الأعلام ، والمصلحين الأفذاذ منهم أبو عبد الله محمد بن بكر الفيلسوف الاجتماعى ، والمصلح الكبير ، الذى لا يعرف السأم أو التعب ، ولا يكف عن الكفاح فى سبيل الله فى لحظة من اللحظات ، ولعله أول من فكر فى وضع الدساتير المستمدة من الإسلام ، فقد وضع دستوره المعروف بنظام العزابة ، واستمد أحكامه من الإسلام ، وأعتقد أنه لا يزال هذا الدستور من أقيم الدساتير التى جعلت للمحافظة على المجتمعات ، ومراعاة مصلحة الشعوب ، ولم يكن الرجل نظرياً يكتفى بوضع الفكرة ، ولكنه حرص أن ينفذ هذا الدستور ، وتطبق أحكامه .

سافر من جبل نفوسة إلى جربة ، ومن جربة إلى وادى أريغ ، ومن وادى أريغ إلى وادى ميزاب ، وكان أهله معتزلة ،فلم يمكث بينهم إلا قليلا حتى صاروا إباضية ، ومن أغيرهم على الحق واتباعه ؛ وطبق هذا النظام فى تلك الواحات

الخصبة الجميلة ، ولا يزال يطبق إلى اليوم ؛ فلقد حفظ هذا الدستور أبناء تلك الواحة الكرام من جميع الشرور التى دخلت البلاد الإسلامية ، ولقد تمكن الاستعمار فى أكثر بلاد الإسلام أن ينشر الفساد الخلقى مقدمة لإضعاف الروح الدينية .

أما فى وادى ميزاب ، فقد وقفت فرنسا عاجزة عن التسرب إلى المجتمع ، ورجع شياطينها — شياطين الأنس وشياطين الجن — الذين جندتهم . فرنسا مدحورين أمام ذلك الدستور .

وليست القوة قوة الدستور فى نفسه ، ولكنها قوة الإسلام عند ما التجأ إليه بنوه ، وعرفوا كيف يطبقون أحكامه ، ويتقون به حيل الشياطين ، وخدع المفسدين .

وإلى الغرب من « كباو » تقع مدينة « تلات » وقريباً منها أطلال « تنومات » التى لم يبق فيها إلا مسجد عليه كتابات بالخط الكوفى ، ونقوش زخرفة إسلامية تشبه النقوش التى توجد فى مسجد أبى معروف فى شروس ، والتى توجد فى مسجد أبى هارون فى « بناين » .

وقد قال بطل الإسلام وأسد الكفاح سليمان باشا البارونى عند ما تحدث عن أبى هارون بن موسى فى بعض تعليقاته على « سلم العامة والمبتدئين » :

« و بالنظر إلى ما بقى من صدر المسجد ، كالمحراب وما يليه ، المبنى بالحجارة المنحوتة نحتاً عجيباً ، المنقوش فيها بعض حكم بالخط الكوفى ، يتضح جلياً بأن لنفوسة فى ذلك الوقت علماً نافعاً فى الصنعة » .

وإلى شمال « كباو » وبحوالى خمسة عشر ميلا وتحت السفح ، تقع « قنطرارة »

التى أصبحت اليوم تسمى «تيجى» ، ولقد كانت قنطرارة عبارة عن جنة من جنان الله فى الأرض، غزيرة المياه ، تنبع منها العيون الثَّرارة سائلة فوق الأرض، تسقى الحدائق الغناء التى كانت تنبسط على مسافات طويلة ، وتنتج أجود الغلال والفواكه والتمور ، وقد كانت تستقل بحاكمها عن الجبل أيام الدولة الرستمية وبعد وقعة «مانو» هجم عليها الوحش البشرى ابراهيم بن الأغلب ، وقتل أغلب أهلها ، وخرب حدائقها ، وأحرق أشجارها . لقد ارتكب من الجرائم مالم يرتكبه قائد حربى فيما أعرف ، وهذه إحدى جرائمه التى يسجلها عليه التاريخ ، ومنذ ذلك اليوم بدأت تنحصر وتنكمش، حتى بقيت اليوم عبارة عن عيون من الماء ، تسقى عدداً ضئيلا من النخيل، جعلت فيه الدولة أجهزة للحكم، ومدرسة ، وفتح فيها منذ قريب سوق ، ويرجع إليها سكان السهل الفسيح الذى ينبسط شمالا فى ارتباطهم بالمصالح الحكومية .

وفى هذه المدينة العظيمة قامت مدرسة العلامة سعيد بن أبى يونس الطمزينى، وفيها تخرج عدد من العلماء الأعلام ، أمثال أبى مسعد الجناونى ، ولما ضرب الأغالبة بنيانها ، وأحرقوا أجنتها ، وقتلوا أغلب علمائها ، انتقلت حركتها العلمية إلى « تمصمص » جنوب « طمزين » .

# وادي شَرْوَسْ

هو واد شديد العمق، يتكون أعلاه من عدد من الفروع تلتقي حول مدينة «شروس» فى منطقة متسعة، ثم ينحدر إلى الشمال محصوراً بين الجبال، فيكون مايشبه عنق قارورة كبيرة تنبع فى أنحاء منه عيون وآبار. وقد كان دائم الخضرة، كثير الشجر، تزدان نحور الجبال الدائرة به وأعجازها بشجر البطوم الدائم الخضرة، أما قممها فتكللها غابات الزيتون الكثيفة، وفى مجارى الوادى وروافده يرتفع النخيل متمائلا كأنه يصارع الزمن ليخرج من هذا المحبس العميق. غير أن يد الإنسان العابثة لعبت أسوأ الأدوار فى طبيعة هذا الوادى الجميلة، فاقتلعت أكثر تلك الأشجار التى تصبغ الجبال بالخضرة، وقدمتها طعاماً للنيران، لتستخلص منه فحماً يتخذه بعض الناس مكسباً وتجارة، وهى جريمة لعمرى أقدم عليها ناس لا يفكرون فى زمن غلبت عليه الفوضى فى الفترة المظلمة من تاريخ الوطن، هذه الفترة التى مرت بين الحكم الإيطالى الباغى، وحصول البلاد على الاستقلال وقيام دولة من بنيها تحكمها وترعاها تلك الفترة التى أطلق عليها التاريخ فترة الاحتلال البريطانى، فحكمت ليبيا حكماً عسكرياً تجرد عن النظام والقانون ...

كان لهذا الوادى تاريخ حافل فى الكفاح، وكم من مرة جاءت الجيوش الباغية تحاول أن تدخل إلى العرين من عنق هذه الزجاجة فضاقت عليها، وبقيت محصورة حتى فشلت وذهب ريحها ورجعت منهزمة؛ على أن لهذا الوادى قصة أروع من كل ذلك فى تاريخ الإسلام والفتح الإسلامى : فعندما كان عمرو ابن العاص يقود جيشاً من لفيف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت مهمة هذا الجيش إبلاغ دعوة الإسلام الصافية كما أراده الله، وكما بلغها

محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يضق عنق الزجاجة عن هذا الجيش المؤمن الذى كان يقوده ابن العاص ، وفتحت شروس أبوابها للإسلام دون أن تراق قطرة من الدماء ،ودخل الفاتح البطل دون أن يكبد الإسلام خسارة فى المال أو فى الرجال، وتقبل أهل المدينة — مدينة شروس— التى كانت تتبعها فى ذلك الحين أكبر من ثلاثمائة قرية ، دعوة الإسلام ، وفتحوا قلوبهم للإيمان ، وصافحوا بإيمانهم أيدى الصحابة التى لمست يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقى الجيش ما بقى فى شروس بين أهل وأخوة ، وعندما رجع الفاتحون ،كان الإسلام قد استقر نهائياً ، وكانت مبادىء الإسلام التى تحرر المؤمن من ربقة العبودية لغير الله قد رسخت فى أنفسهم، فلم يستطع منذ ذلك اليوم أن يستعبدهم بشر حتى انقرضت شروس ، وكانت هجمات البغين تختنق فى عنق الزجاجة ، أو تتحطم على صخور الجبل . . .

ومدينة شروس هذه أكبر مدن جبل نفوسة فى ذلك الحين،بل إنها إحدى العواصم الكبرى المنتشرة فى بلاد المغرب ، وهى بموقعها فى بطن الوادى تحيط بها من جميع الجهات جبال تناطح السحب،وترتفع فى كبد السماء ، كأنها أسوار من صنع الله وضعتها إرادته عز وجل لتحصين هذه المدينة،لا ينفتح منها إلا باب ضيق إلى جهة الشمال ، وصفناه فيما سبق بعنق القارورة ...

لقد كانت شروس مركز إشعاع منذ الفتح الإسلامى ، وقد امتد منها نور الإيمان والعلم لا فى جهات من ليبيا فقط ، وإنما امتدت أنوارها منتشرة تتسع وتضيق إلى أقاصى المغرب . . .

وقد أخرجت أعلاماً تركوا آثاراً قيمة لا تزال مقبساً للنور إلى اليوم ، وحسبها أنها كونت فى الزمن المبكر للإسلام فى ليبيا مدرستها الكبيرة

العامرة بأقسامها الداخلية، وأنها كانت مقصداً لطلاب العلم من جميع الجهات حتى ضاقت مبانى المدرسة ومنازل المدينة، عن السكان، فلم يجد الطلبة فيها محلات الإقامة، واضطروا إلى الانتقال إلى مدارس ومدن أخرى كانت أقل شهرة منها، وإنه لمن أعاجيب الزمن أن تصبح شروس فى ذلك التاريخ فى زمن قصير جداً مقصداً لتصحيح العلوم، فيدرس الدارسون فى تونس أو فى الجزائر أو فى أى جهة من الجهات النائية، ولكنهم لا يطمئنون إلى علمهم إلا بعد أن يردوا إلى شروس ويعرضوا ما عرفوا على ابن ماطوس فيجيزهم إن اجتازوا الامتحان، ويعودوا إلى الدراسة إن لم يوفقوا.

ولقد لعب الزمن بهذه المدينة العظيمة، فذهب عنها سكانها، وانزاح عنها عمرانها، ولم يبق إلا أطلال دوارس، وإلا مسجد أبى معروف يغالب الزمن، ويصارع التاريخ، حتى أن الأجيال الأخيرة أصبحوا يطلقون اسم أبى معروف على المدينة كلها، فيقولون خربة أبى معروف وأبو معروف هذا هو وَيَّارْ ابن جَوَاد أحد الأعلام الذين حكموا شروس وما يتبعها من قرى، فأقاموا فيها منار الحق، ورفعوا ألوية العدل، وساروا بسيرة الصالحين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، كان إماما من أئمة العلم، لا يخلو كتاب من أقواله وآرائه وفتاواه، وقد كان سريع البديهة ذكياً عبقرياً يحل أعوص المشاكل وأعقد القضايا دون إجهاد فكر. والكتب مشحونة بأخباره، أما المسجد الذى يعرف به فلا يزال قائماً بين الأنقاض، منسق البناء، منحوت السوارى من الصخر الأصم؛ وقد زينت جدرانه بآيات كريمات وحكم بالغات، حفرت على أحجار منحوتة، أو نقشت بألوان لا تزال زاهية، وكل ذلك بالخط الكوفى الجميل.

على الضفة الشرقية لهذا الوادى ، وفوق قمة عالية تقع القرية الصغيرة الجميلة التى تسمى الجزيرة ، لأنها واقعة فوق جبل منفصل عن بقيـة الجبال من ثلاث جهات،انفصالا كاملا. أما من الجهة الرابعة فقد انفصلت عن بقية الجبال بخندق ضيق عميق ، شديد العمق ، والخندق من صنع الطبيعة لا من صنع الإنسان ، ولا يستطيع الإنسان أن يدخل إلى هذه القرية الجميلة إلا فوق معبر على هذا الخندق، وفى الليل عند ماتنام القرية تنتزع المعابر عن الخندق فتأمن من الدخلاء

كانت هذه القرية معقلا من معاقل الجبل ، وحصناً منيعاً من حصونه التى يتركز فيها الدفاع وتصان فيه الغوالى . وقد وقعت فيها عدة أحداث تشبه أن تـكون قصصاً لعدد من المهاجمين الذين يحاولون أن يدخلوا إلى شروس ، كما يدخل الفار من عنق القارورة فلا يخرج إلا أشلاء،وأحسب أننى ذكرت بعض الحوادث التاريخية المتعلقة بها فى بعض الفصول السابقة . وكما كانت مركزا حصيناً للدفاع كانت أيضاً ملجأ للأخيار والصالحين ، فـكان الناس يقصدونها للتحصين من عدوان المعتدين،أو للخلوة والإنابة إليه تعالى ، ومناجاته فى خشوع وابتهال .

وإلى شمال هذه القرية تقع قرية أخرى تسمى «أم صفار» لا تزال إلى اليوم عامرة بالسكان ، وإلى غرب هاتين القريتين تقع « تَنْزَغْتْ وجَرِيجَنْ وَدَرْكَلْ وَبَغْظُورَهْ وغَفْ سُوفْ ودَجِّى وزَغْرَارَهْ وتِمنْكَرْتْ وبَقَالَهْ ومَرْجَسْ وَوِيغُو » وكثير غيرها من القرى التى كانت تنبض فيها الحياة . وبعض هذه القرى أو الخرائب المنتشرة على مسافات متقاربة كانت فى يوم ليس ببعيد مدناً عظيمة عامرة بالعلم مزدهرة بالعمران ، تعيش فيها أمة ضربت المثل الأعلى فى الاستقامة والنزاهة والمحافظة على الخلق الـكريم ، والاستمساك بالعروة الوثقى ، التى هى دين الله . . .

وفيها عاش طبقات من العلماء الاعلام الذين تركوا للأمة الإسلامية ثروة من العلم والفهم والسيرة العطرة ...

إنها منطقة كانت من أغنى المناطق بالمجد والعظمة ، المجد الحقيقى الذى ترتفع فيه نفسية المؤمن عن أدران الدنيا ، وتحرص على الكفاح فى سبيل الله ، الكفاح بأوسع معانيه . . .

وعندما تنعقد الاجتماعات فى دركل أو تونين إن دركل أو فى بغطورة أو فى ويغو أو فى الجزيرة أو تمنكرت أو فى شروس أو فى غير ذلك من المدن أو القرى ، عندما تنعقد تلك الاجتماعات كانت تزدان بأمثال : محمد بن يانس ، وأبى خليل،وأبى القاسم البغطورى،وأبى ذرأبان ، وأبى معروف وبار ، وماطوس ابن هارون ، وماطوس بن ماطوس ، وخيار التمنكرتى ، وجندوز التمنكرتى ، ووالى العهد المرجسى وأبى بكر القفوفى ، وعشرات غيرهم من الأبطال فى قرون متتابعة ، أبطال الكفاح ــ كفاح الباطل الوافد فى عدوان المعتدين ، أو فى سلوك الجاهلين ، أو فى انحراف المتبدعين ، ومن أبرز أولئك العمالقة فى الميدان العسكرى شيبة الدحى الذى حمل العَلم فى جميع المعارك منذ ولى على الجبل البطل أبو الحسن أيوب بن العباس، إلى أن انتهى الحكم إلى أفلح بن العباس،فلم ينتكس مرة واحدة ، ولم يذق هذا البطل طعم الهزيمة . . .

وفى الوقعة الأخيرة وقعة مانو كان القائد العام للجيش هو البطل أفلح ابن العباس ، ولما رأى أن القتل كثر فى جيشه ، وخاف أن يفكر جنده فى التقهقر، أمر « شيبة » حامل العلم أن يركزه فى الأرض ليثبت، ولكن حامله الشجاع حاول أن يمتنع،فأكد القائد أمره مرة أخرى،فنظر شيبة إلى أفلح غاضباً وقال له : لقد حملت العلم لأبيك وجدك فلم يأمرنى بالحفر له وإثباته ، وسأحفر له

حفر الله لك ، وحفر له ، فركزه ، فـكان الأبطال يتساقطون من حوله وهو ثابت فى الأرض ، ولما شاهد بعض من يملـكون أنفسهم عند الروع حالة الأبطال ورؤوسهم تتناثر ، وعلم أن بقاء العلم ثابتاً كفيل بالقضاء الجماعى على الناس ، ضرب العلم فسقط وتفرقت البقية الباقية ؛ وهكذا حتى فى هذه الموقعة التى كتبت فيها الهزيمة على جيش نفوسة لم يسقط العلم من يده ، بل إن العلم لم يسقط قط وشيبة فى الحياة .

لقد انتقل إلى رحمة الله قبل أن يهان العلم الذى رفعته يداه ، فلم ينتـكس مرة واحدة . . .

أما مدينة ويغو: هذه المدينة التى لا تزال اطلالهـا مرتفعة ، يشاهدها الداخل إلى ما يسمى اليوم بالحرابة ، أما هذه المدينة التى لا تزال أطلالهـا تشهد للتاريخ بما كانت عليه من مجد وحضارة ، فقد كانت مدينة علمية و ينطبق عليها هذا الوصف أصدق ممـا ينطبق عليها أى وصف آخر ، ويكفى للدلالة على ذلك ما اشتهرت به من أنها إحدى المدن الثلاثة التى لا يحتاج فيها بيت إلى بيت فى مشـكلة علمية ، وقد قصدها الإمام عبد الوهاب الرستمى لمـا جاء من تاهرت لزيارة جبل نفوسة ، وقصد بيت العلامة مهدى النفوسى الويغوى الذى سبق له أن ذهب إلى تاهرت فى الوفد الرباعى وتعرف بالإمام ، وتعرف به الإمام ، وكان بيت مهدى النفوسى شديد الشبه ببيوت أسلافه أبى ذر الغفارى ، وعبد الله ابن مسعود ، وأمثالهم ، قد اقفر من وسائل الدنيا .

وسمع الشيخ فرج النفوسى ابن خالة مهدى بالضيوف الـكرام ، فجاء إليـه

يستأذنه فى نقلهم إلى منزله فإنه أصلح لهم ، وأرفق بهم ، وأستر للشيخ ، وانتقل الإمام وصحبه إلى منزل فرج فوجدوا داراً فسيحة متعددة الحجرات، تامة المرافق، متوفرة وسائل الراحة ، فاستبدلوا ثيابهم وكان الوقت شتاء ، وقد أصابتهم فى الطريق مطر ، ووضع لكل واحد منهم موقد للاصطلاء ؛ وجهز لهم عشاء يناسب المقام .

وقد تحدث المؤرخون عن هذه الحادثة ، وعن يسر الحال الذى يتمتع به الليبيون فى ذلك الحين ، وعجبوا كيف أمكن لهذا السيد أن يحضر عدداً وفيرا ، من المواقد حتى يستطيع أن يضع أمام كل ضيف موقداً ،وتعرض العلامة الكبير الشيخ سليمان باشا البارونى لهذه الحادثة ففسرها بأن فرج الويغوى كان رجلا ثرياً يشتغل بالتجارة والزراعة وغيرها ، وبذلك توفرت عنده الثياب ، لأنه كان يجمعها للبيع والمتاجرة ، أما المواقد : فهى أصص معدة للمشاتل ، فلما جاء الضيوف استعملها مواقد .

ودخل أحد الناس فوجد أمام كل ضيف موقدا فقال متعجباً « كل شيخ وكانونه » فذهبت مثلا .

أما الضفة الغربية لهذا الوادى فتقع عليها المدينة الكبيرة « تَنْدَمِيرة » رابضة تستقبل قبلة الشمس عند البزوغ .

« وتَنْدَمِيرة » إحدى المدن التى اشتهرت بأنها مدن علمية ، فهى إحدى المدن الثلاثة التى لا يحتاج فيها بيت إلى بيت فى مشكلة من مشاكل العلم .

وتَنْدَميرة التى أصبحت اليوم قرية صغيرة ،قابعة على القمة الشامخة فى

فى هدوء واستقرار ، كانت مركزاً من مراكز الإشعاع العلمى والدينى والخلقى ، ولقد انبتت تربتها الزكية عمالقة وأعلاما ، كان لهم أطيب الأثر فى حياة الأمة الإسلامية ، ففى مرابعها العامرة نشأ أبو منصور إلياس، هذا البطل الذى لم تنتكس له راية مدة ولايته على ليبيا ، ولم يعرف جيشه هزيمة قط منذ تولى قيادته ، والذى يشهد له التاريخ بأعظم مجد خلقى اكتسبه قائد حربى .

فما عرف التاريخ فى أحداثه الطويلة قائداً حربياً ينتصر فى معركة وينهزم عدوه تاركا وراءه ثمانمائة حمل من الذهب تنتثر فى الميدان فيعف القائد المنتصر، وجيشه المظفر، ولا يمس منها ديناراً واحداً يحتفظ به للذكرى ، حتى يأتى أولئك الذين لا يفرقون بين الحلال والحرام ليلتقطوا ما بقى فى الميدان كما تأتى الذئاب لتلغ فى دماء الجيف التى عفت عنها الأسود .

إن أصحاب المبادىء من المحاربين يجب أن يقفوا لتحية هذا البطل العظيم كلما ذكر اسمه ، وإنه لقليل عليه أن يخلد اسمه فى كل عاصمة من العواصم الإسلامية ، وليس ذلك للرفع من مقامه ، فإن مقامه أسمق من أن يحتاج إلى رفعه ، ولكنه ليكون ذكرى وعبرة لهؤلاء الذين يحملون السيوف ويحاربون من أجل المبادىء فيما يزعمون .

وفى « تندميرة » نشأ أبو زكرياء الذى حكم الجانب الأكبر من ليبيا، مستقلة عن أية دولة أخرى، مدة ستين سنة ، فلم يكسب منها مالا ، ولم يدخر ثروة. وإنما كسب منها عظمة يعز نظيرها عند غيره من الحكام ، تطالبه زوجه بشىء من الزيت للاستصباح فيعتذر ، ويرجوها أن تستصبح بالحطب ، ويعرض عليه أحد الأغنياء

عدداً من الكباش بدلا من الغذاء فيقول له : لوسئلت يوم القيامة حمل قرونها لأتعبنى ، فما بالك بها كلها .

وفى «تندميرة» نشأ أبو حفص عمرو بن عيسى : هذا المؤمن العالم البطل ، الذى كان يطارد الجهل والبدعة من ميدان إلى ميدان ، كما يطارد المحارب المقدام جيوش الأعداء ، فلم يستقر به المقام ، ولم يسترح من الكفاح حتى لحق بربه ...

وفى تندميرة هذه نشأ عدد غير قليل من العلماء الذين دونت أقوالهم وسيرهم فى كتب الشريعة وفى كتب التاريخ والسير .

وإلى الغرب من تمدميرة بمسافة غير طويلة ، تقع مدينة «تملوشايت» هذه المدينة التى كانت تنازع «شروس» وتنافسها ، والتى بلغت من العظمة فى يوم من الأيام أن كانت تخاطب تونس الخضراء فتصفها بأنها قرية ، والقصة فى ذلك مشهورة لا يزال الناس يتناقلونها مع شىء من التعليقات والأخيلة التى لا تخلو منها قصة طريفة ، فقد قيل : إن مزارعا تونسياً يملك مخزناً كبيراً ملأه بمحصوله من الحبوب ، وكان إلى جواره معمر مسيحى يملك عدداً من الخنازير السمان ، وغفل التونسى فترك مخزنه مفتوحاً فدخلت إليه خنزيرة قذرة ، وفى وسط الحبوب ولدت عدداً من الجراء ، وسال منها على تلك الحبوب ما يسيل من الخنزيرة عند الولادة .

وذهب الفلاح التونسى إلى المشهورين من علماء تونس يستفتيهم فيقبلون له أكفهم ويرجعون العلم إلى الله ورسوله إن هذه الحالة تقع لأول مرة ، ولم تدون فى الكتب ، وهكذا طاف الرجل على أصحاب العلم فى تونس الخضراء فلم يجد من يتشجع ويقول مثلا : إن الأنجاس تزال بالغسل ، لأن الناس جميعا يستقذرون الخنازير .

ولو أفتى أحد الناس بهذا لاتهم فى دينه من العوام ، وسمع به أحد الناس ، فنصح المزارع أن يبعث بسؤاله إلى مدينة « تملوشايت » من جبل نفوسة .

و بعث الرجل ، و بعد أسابيع جاءه الجواب ، فقد كان فى تملو شايت العالم الأديب الشاعر أبو نصر حاضراً ، فكتب إليه يقول : من مدينة تملوشايت إلى قرية تونس، و بعد الديباجة قال : ازرعوا الحبوب النجسة تنبت زرعاً طيباً طاهراً . . . وهكذا عملت العبقرية على حفظ مال الرجل ، والاستفادة منه . . . قد يحق لأبى نصر أو غيره من العلماء أن يفتوا بطهارة هذه الحبوب إذا غسلت وأزيل منها الأذى، ولكنهم يعرفون أن النفوس تستقذر الخنزير وما لمسه ، وأنه لا يمكن أن تؤكل هذه الحبوب ولو كانت طاهرة وحلالا ، ولكن زرعها شيء معقول وغير مستقذر ، و بهذه المدارك الدقيقة ، وفهم أسرار النفوس وأسرار الشريعة يتفاوت العلماء ، فما كل من عرف شيئاً يقوى على حل المشاكل والفتوى للناس . . .

و إلى الغرب من «تملوشايت» بمسافة ليست طويلة تقع قرية «طمزين» على ضفة الوادى المقابلة لتملوشايت تلك القرية التى كانت من قبل مدينة عظيمة تتصل بتمصمص ، وفى هذه المدينة نشأ الرجلان العظيمان أبو يونس وسيم ، وسعد ابن أبى يونس ، اللذان تعاقبا على حكم « قنطرارة » « تيجى » مدة ليست بالقصيرة . وفى هذه المدينة نشأ أبو محمد خصيب بن إبراهيم، أحد أولئك الأعلام الذين كونوا أجيالا ، فقل أن تجد عالماً نشأ فى زمانه لم يتلق العلم عن أبى محمد ؛ وفيها نشأ أبو نصر الذى دار جبل نفوسه أربعين دورة ليقوم برسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، و يلقى فى المجتمعات دروس الوعظ والإرشاد .

وفى أواخر أيامه فقد بصره ، فلم يمنعه ذلك عن الكفاح ، حتى الكفاح بالسيف ، فكان يدخل المعارك يجالد العدو ، دون أن تقذى عيناه برؤية ذلك العدو .

إن هذه المنطقة منطقة « تندميرة » ، «وتملو شايت» ، « وطمزين » منطقة غنية بالأمجاد ، غنيـــــة بالعلم ، غنية بالدين ، وقد أنتجت تربتها الخصبة من رجال التاريخ من يحق للأمة الإسلامية أن تضعهم فى مصاف العظماء . . .

# وادى أمسين

«وادى أمسين» أو «وادى جلاّزَن» واد عميق بين جبال شاهقة ، ينحدر من الجنوب إلى الشمال، ويتكون أعلاه من عدد من الفروع تنبع فيها كثير من العيون والآبار، ويزدان بكثير من الأشجار ، وتجتمع فى أمكنة منه غابات كثيفة من النخيل ترتفع متمائلات كأنها تشترك فى حفلة رقص، وعلى منطقة هذا الوادى التى تتجه غربا إلى «تاله» ، وشرقا إلى حدود «فساطو» تنتثر اليوم مجموعة من القرى كانت قبل زمن لبس بطويل مدنا عامرة بالإيمان والعلم والبطولة .

وإذا كانت «أفاطمان» تلك المدينة التى تقع على الحد الغربى لهذه المنطقة ، هى أول مدينة ليبية فكرت فى تكوين مدرسة لتعليم دين الله ، فإن بقية المدن قد أمدت الحياة العلمية بعلماء أجلاء ، وعالمات صالحات ، حافظوا على هذه الرسالة المقدسة قرونا طويلة .

وإذا كانت «قُطْرس» أنجبت عمْرُوساً وامثاله ، «وأبدِيلان» أنجبت أبا الحسن وأمثاله ، «وأفاطْمان» أنجبت أبا مُهاصر وأمثاله ، «ووَزِيْرف» أنجبت أبا محمد بن الخير وأمثاله ، وأنجبت «مَرْساوُن» نوحا بن حازم وأمثاله، وأنجبت «تَميِجار» أبا الربيع سليمان بن يخلف وأمثاله ، وأنجبت «إينَرْ» أباسليمان وأمثاله ، وأنجبت «أرْجاجَن» زورَغ وأمثالها ، وأنجبت «أمسين» أم يحيى: أول امرأة ليبية فكرت فى تخصيص مدرسة للبنات مجهزة بالأقسام الداخلية.

إذا كانت هذه المدن أنجبت هؤلاء وعشرات من أمثالهم ، فإنه لا يوجد فى هذه الأرض المنبسطة الفسيحة بما فيها من شعاب وأودية ، والتى يطلق عليها اليوم

اسم الرجيبات مكان إلا وفيه بقايا مدينة أوقرية كانت عامرة بأهل العلم والفضل والخلق والدين .

ولا يوجد مكان من هذه الأرض الطيبة لا يحمل ذكرى عطرة للكفاح فى سبيل الله ، وإذا كان العمران قد انحسر اليوم إلى قليل من القرى المتناثرة ، وأصبحت المسافة بينها بعيدة ، فإنها كانت من قبل متصلة ، تكاد تكون مدينة واحدة ...

ويكفى أن تعرف أن الفتاة قد تذهب من «جيطال» أومن «أبديلان» إلى «أرجاجن» لتستمع إلى الدروس الأسبوعية التى تلقيها العجوز الصالحة زورغ على بنات الجبل لتغرس فى نفوسهن الدين الصحيح ، والخلق القويم .

وإن الفتاة كانت تذهب من « إنْيَر وجيطال ومن مرساون وونزيرف إلى أمسين » فتحضر الدروس فى مدرسة أم يحيى للبنات ثم تعود فلاتخاف من وحش أوبشر، وذلك لأنها كانت تقطع هذه المسافات التى يخيل إلينا اليوم أنها طويلة ، كما تقطعها اليوم فى مدينة كبيرة آهلة بالسكان . إنها تكاد أن تكون شوارع طويلة لمدينة واحدة ، آهلة بالعمران مزدحمة بالسكان . .

# وادي الزرقاء

هو واد عميق، يتجه من الجنوب إلى الشمال فى انحدار متدرج ، يكون شلالين عظيمين .

أولهما شلال الزرقاء ، ولايقل ارتفاعه عن ثمانين متراً حسب تقدير العين المجردة

أما الثانى فأسفل منه ، ويسمى ماصر وهو أكثر ارتفاعا من الأول .

ويستمر الوادى فى الانحدار بعد هذا الشلال حتى ينسلّ من الجبال، ويذهب زاحفاً بين السهول الخضراء يحمل إليها الماء والغرين التى تكون أهم أسباب الخصب فى أراضى الزراعة...

فى مصب الشلال الأول تتجمع مياه الأمطار والينابيع ، فيتكون من مجموعها البحيرة الجميلة الساحرة التى تسمى الزرقاء ، وسميت الزرقاء لأن الزرقة هى اللون الغالب على مائها ، ويبلغ عمقها فى بعض الجهات ما يزيد عن عشرة أمتار حسبما يقال ، وهى مستديرة الشكل كالمرآة ، يبلغ قطرها مرمى الحجر للرجل القوى . عذبة الماء ، صافية الأديم، دائمة الزرقة يحيط بها من جميع الجهات إطار من الأشجار، يمنحها الخضرة والجمال والظل الظليل، ينبع الماء من حواشيها ، وينحدر إليها من الطبقات الصخرية صافيا ، بارداً ، منعشاً ، وتعد الزرقاء أجمل مصيف لأهل المنطقة، ويأتيها السواح من جميع الجهات لمنظرها الخلاب، ومائها العذب ،وهوائها المنعش العليل .

أما الشلال الثانى ماصر: فهو أقل جمالا من الزرقاء ، وأكثر ارتفاعا ، وهو لايكون بحيرة كما فعل الشلال الأول، فإن مياهه لا تتجمع ، وإنما تذهب منحدرة

مع الوادى ؛ والينابيع التى تخرج من بين طبقات الصخور فى مصب هذا الشلال تعتبر عيوناً عادية ، عذبة الماء ، تسقى ما تحتها من أجنه وبساتين .

أما المسافة الواقعة بين الشلالين فهى أرض مزدانة بالأشجار المتشابكة ، منها المثمر ومنها غير المثمر ، ومنها ما تعهدته يد الإنسان ، ومنها ما غرسته عوامل الطبيعة ، ويسقى جميع هذه المنطقة المياه المنحدرة مع الوادى من بحيرة الزرقاء ، مكونة نهراً صغيراً لا يكف عن الجريان ، حتى ينحدر مع شلال ماصر ، أو تمتصه التربة الخصبة قبل ذلك .

والصورة فى جملتها تمثل منظراً من أبدع المناظر ، يخيل للمتنزه فيه أنه فى بعض مناطق لبنان ، وإنَّ لكل بلد سحره وجماله .

ولوظفر ببعض العناية فوُصِّلت طرق السيارات إلى البحيرة ، وأقيمت فيه بعض المحال التى تقدم للمتنزه ما يحتاج إليه ، وظفر فيها الزائر بوسائل الراحة ، لأصبح من المناظر السياحية التى يقصدها السواح من كل مكان ، واشتهرت به ليبيا كما اشتهرت لبنان بزحله .

على ضفة هذا الوادى من الغرب تقع قرية « الجمارى » الجميلة هذه القرية التى كانت تسكنها (نانّا مارَنْ) جدة المشائخ ، تلك العالمة الذكية التى استطاعت بما أوتيت من علم وعقل أن تقنع أصاب رجل فى جبل نفوسة بوجهة نظرها ، حين استعصى إقناعه على فطاحل العلم والسياسة ما بين « تاهرت وجادو » ، وقد تقدمت هذه الحادثة مفصلة فى حياة أبى عبيدة عبد الحميد .

وإلى الشمال من هذه القرية بمسافة قصيرة ، وعلى الضفة نفسها تقع قرية أخرى جميلة هى قرية « ندباس » وفى هذه القرية يروى التاريخ قصة من أروع قصص المرأة فى ميدان العلم والعبقرية ، واتباع الحق .

ذهب معبد الجناونى إلى «قنطرار» يدرس على العالم الـكبير سعد بن أبى يونس ولما بلغ من العلم درجة ، وحسب أنه نال منه الـكفاية رجع إلى جناون ، ومر فى طريق رجوعه على «ندْ باس» وقبل أن يدخل القرية . — وقد أنهكه التعب والإعياء والعطش — وجد أمة تسقى الماء من صهريج فطلب منها أن تسقيه ، وبدلا من أن تسارع الأمة إلى إرواء هذا العطشان أجابته فى حزم : أتستخدم أموال الناس يا جاهل ؟ .

ورجع إلى نفسه يسائلها بأى حق يستخدم أمة الغير، وعرف أنه ما أوتى من العلم إلا قليلا .

ولقنته الأمة درساً ، فرجع من مكانه إلى مدرسته ، وواصل دراسته حتى أصبح فيما بعد موسوعة علمية متنقله وكان مرجعاً من المراجع الهامه التى يقصدها الناس للاستفادة والعلم .

و إن بلداً تبلغ فيه الإماء هذه الدرجة من العـلم حقيق أن يشغل التـاريخ وتستخلص منه العبرة .

و إلى شمال هذه القرية على منبسط فسيح فوق قمة شامخة تقع مدينة «مزغورة» ترتفع فيها مئذنة مسجد أبى زيد ضاربة فى الهواء ، تناطح السحب ، وتبعث بتحاياها وتهمس بنجواها ، إلى مئذنة أخرى ترتفع ضاربة فى الهواء من مسجد أبى يحي فى «تـارَدْ يـَة» .

وفى هذه المدينة الفسيحة التى كانت تنافس جادو فى العظمة والمجد نشأ العلامة أبو زيد ، وعاش مشغولا برسالته المقدسة ، فى جو علمى ، بين طلاب أذكياء ، وزملاء علماء صلحاء ، فلما توفى ، بقيت مدرسته الفسيحة — بما فيها من مخازن

وأقسام داخلية — مثابة لأهل العلم والفضل ، وقد كان يرد إليها فطاحل العلماء من جميع الجهات ، ليؤدوا فيها هذا الواجب المقدس طيلة قرون متتابعة ، وتعاقب عليها عدد غير قليل من كبار العلماء والمربين ، مثل أبى موسى الطرميسى، وأبى عزيز ، وأبى ساكن، ونوح بن حازم، وغيرهم.

وتعد مزغورة فى التاريخ الليبى من المدن العلمية التى كانت مركز إشعاع زمناً طويلا . وفى كل واحدة من هذه المدن الثلاثة قصة لامرأة ، وقد عرفت قصة مارن وقصة أمة ندباس ، أما المرأة التى أريد أن أحدثك عنها فى مزغورة فهى من نوع آخر : إنها زوجة أبى زيد، هذا العالم المؤمن ،لقد ابتلى بزوجة سوء لا يسمع منها إلا الكلمة البذيئة ، ولا يرى منها إلا العمل القبيح ، إذا دعاها إلى الخير أعرضت عنه، و إذا أسمعها الكلمة الطيبة أسمعته الكلمة النابية واللفظة الجارحة . إذا أيقظها لصلاة الصبح دعت عليه بالسوء واستمرت فى النوم ، ورغم كل ذلك لم يطلقها ، حرص على الاحتفاظ بها خوفاً من أن يبتلى بها مؤمن آخر فلا يصبر على إذاها . . .

وإلى الغرب من مزغورة بنحو ميلين تقع «ويفات» على عنق جبل وعر متجهة إلى الشمال الغربى، وقد كانت مدينة كبيرة عامرة المساجد متراكبة المبانى ،تكاد تكوّن مع مزغورة ضاحية، أو امتداد شارع، وإلى الجنوب منها بنحو ثلاثة أميال تقع القرية الصغيرة «رقرق»، وهى قرية صغيرة قابعة على ضفة وادى سحيق العمق ضيق، يكاد يكون عبارة عن خندق عظيم يفصل بينها وبين « توكيت » . . .

و «توكيت» مدينة عظيمة تستلقى على هضاب وشعاب تقابل رقرق من جهة الغرب، وقد كان لهذه المدينة فى الماضى تاريخ مجيد، و إذا كان للمدن حق الافتخار بمن تنجب من الرجال، فإنه يحق حينئذ لهذه المدينة أن تفخر بأبى زكرياء ، هذا

العالم المؤمن الذى قيل فيه : أبو زكرياء هو الجبل والجبل هو أبو زكرياء ،والذى جعله الإمام عبد الوهاب حجة وبرهاناً ، وحسبه أعظم مرجع علمى فى زمن كثر فيه العلم والعلماء فقال لأبى عبيدة :وإن كنت ضعيفاً فى العلم فعليك بأبى زكرياء التوكيتى . وبين هذه المدن الست المتقابلة وهى : الجمارى ، ندباس ، مزغورة ، ويفات ، رقرق ، توكيت ( أو تمزدة ) غابة خضراء من شجر الزيتون ، ولا تخلو ربوة من ربا هذه المنطقة أو شعب من شعابها من أثر قرية قد اندثرت، أو مسجد قد بقيت أطلاله أو رسومه ،تشهد للتاريخ بما كانت عليه من عمران . أما مسجد أبى زيد: فقد بقى يطاول الزمن بمئذنته الشامخة ،والحجرات الدائرة به، تلك الحجرات التى كانت مساكن لطلبة العلوم ، ودواميسه الكبيرة التى كانت مخازن تحفظ فيها مؤن طلاب العلم الوافدين من كل مكان . ومما يسر ؛ أن هذا المسجد بقى إلى اليوم كما كان العهد به مسجد الصلاة للمدينة الكبيرة، ومن عبر التاريخ :أن المدرسة الحديثة بنيت ملتصقة به ، فهو لا يزال يقوم برسالته الخالدة التى قام بها مؤسسه العظيم منذ القرن الثالث .

أما على الضفة الشرقيه لوادى الزرقاء،فتقع مدينة «أرجان»العظيمة وتنبسط هذه المدينة العظيمة على عدد من الربا والشعاب بين «أْ ندمّـادْ» وضفه الوادى وقد اندثر جانبها الشرقى فلم يبق منه إلا مسجد أبى زكرياء الأرجانى على رأس ربوة عالية، كانت فى القديم قلب المدينة وقد انحاز العدد الباقى من السكان وتكتلوا على قمة الجبل من حاشية الوادى الشرقية فكونوا قرية صغيرة سميت اليوم «مزو» وهذه القرية تقابل قرية « الجمارى» كأنهما صورتان باهتتان لمجد باهر غبر ، وتاريخ مشرق مضى ؛ ولعل أحفاد أولئك الجدود يذكرون ما قدم أسلافهم من خدمة لله والوطن ، فيعملون على تجديد ذلك البنيان ، وإحياء ذلك التاريخ العطر

الذى خلد أبطالا من الرجال والنساء ، وفى نانا مارن وأبى زكرياء الأرجانى أسوة حسنة وقدوة صالحة . . .

وإلى الشمال من أرجان تقع مدينة «جادو» مدينة نفوسة ومركز الحكم فى الجبل عامرة الأسواق ، فسيحة الميادين ، طويلة الشوارع ، عالية المبانى ، تنبسط على مجموعة من الربا والوهاد فى عزة الآمن واستقرار المطمئن ، تحيط بها مجموعة من القرى تكون لها ضواحى جميلة ، وقد جرى الزمن على جادو بمثل ما جرى به على أرجان ، فانتقلت من مكانها الفسيح المنبسط ، والتجأت إلى حافة الجبل ، فتجمعت فى قمة منه ، دائرة حول مصلى أبى عبيدة كأنها تعتصم به من أحداث الزمان ، وتضاءل عدد السكان ، ووسائل العمران ، حتى صارت جادو بالنسبة إلى ما كانت عليه من علم وحضارة وازدهار كأنها ملخص صغير لموسوعة علمية ضخمة ، لم تستطع أفهام الطلاب المهازيل استيعابها ، فعملت الأيدى على اختصارها وتلخيصها .

ولقد أنجبت جادو من الأبطال والعلماء الأعلام ما امتلأت به بطون الكتب ، وحسبها أنها كانت دار الندوة ومجتمع المشائخ للتشاور ، وعقد المؤتمرات العلمية أو الاجتماعية أو السياسية ، وقد وقع عليها الاختيار لأن تحمل هذه الرسالة فحملتها فى شرف وإخلاص .

أتفق علماء نفوسة فاختاروا جادو ليبنوا فيها مسجدهم ( إمسراتن ) ولعلها أول مدينة يجتمع شعب كامل على بناء مسجد فيها ليكون مسجد الشعب كله لا مسجد المدينة وحدها، وقد اشترك الجبل فى البناء من أقصاه إلى أقصاه ، وأدى هذا المسجد إلى الوطن مالم يؤده أى مسجد آخر ، فقد كان العلماء يقصدونه زرافات ووحداناً من كل جهة ، ويتذاكرون أمور الناس ، ويتشاورون فى وجوه الإصلاح

التى يجب أن يقوم بها كل واحد منهم فى ناحيته ، ثم كان ملتقى للثقافات . فقد كان أولئك العلماء الذين يردون إليه يقومون بإلقاء دروس متعددة ، وقد يستعرضون فى تلك الدروس أحوال المجتمع وما يجب أن يكون عليه ، وليس ذلك فقط وإنما كان يؤمه الطلاب الذين انتهوا من دراساتهم أو كادوا فى المدارس المنتشره ، ويلازمونها أوقاتاً تختلف ، وذلك ليستمعوا إلى عدد من العلماء ، ويأخذون عنهم ، ويناقشوهم ، حتى يطمئنوا إلى علمهم وكفاءتهم ، فقد كانت رسالة هذا المسجد الاصلاح والتعليم بالإضافة إلى العبـادة . وانحسر السكان عن موقع مسجد إمستراتن واندثر العمران من حوله ، وبقى شامخاً يروى للأجيال ما كان عليه من مجد وحضاره ، ومنذ سنوات فـكر بعض أهالى جادو فى ترميم المسجد وتنادى الناس إلى إعادة بنائه ، و بذلوا ما لديهم من جهد ومال ، ولـكنهم لم يستطيعوا أن يقيموا ذلك المجد الشامخ واختصروا المسجد الفسيح منه أقل من النصف ، وهدم الباقى ، فـكان عملهم هذا اختصاراً هزيلا لعمل عظيم .

وقد أراد المولى سبحانه وتعالى أن يبقى حى امسراتن حى العلم حتى بعد أن هدم بناؤه ، وانحسرت المدينة عنه ، فبنيت المدرسة إلى جنبه من الغرب ومعهد المعلمين إلى جنبه من الشرق .

و إلى شمال جادو الحديثة ، تتتابع ثلاث قرى جميلة ، هى : القصير ، وأشبارِى ، و يوجْلِـينْ .

وقصة هذه القرى الثلاثة هى قصة «جادو ومَزُّو» فقد كانت تـكون جانباً من مدينة عظيمة تقابل جادو من الشمال الشرقى ، فانحسر عنها العمران ، وتوالى عليها العدوان ، فالتجأت إلى قمة الجبل ، وتحصن فلولها بالوعر ، وبقيت آثارها هنالك تروى أخبار التاريخ للقرون المتعاقبة .

وتحت قرية القصير وفوق منتصف الجبل بقليل تنتصب قرية « تَمُوقَط » باسمة ضاحكة كأنها الوليد الذى تهدهده الأم على الصدر الحنون ، أما فى السفح فتضطجع «جنَّاوَن» الجميلة فى استرخاء على أقدام هذا العملاق العظيم بينه و بين مجرى وادى الزرقاء .

وإلى الشمال الشرقى من هذه القرى بنحو أربعة أميال تقع « طَرْمِيسَة » وهى اليوم تشبه أن تكون برجاً عظيما أو ناطحة سحاب . اختار لها مؤسسوها أنف جبل شامخ يشبه أن يكون زاوية مثلث ، فوضعوها على رأس الزاوية ثم اقتطعوها عن بقية الجبل بخندق حفرته أيدى الناس ، فكان الدخول إليها والخروج منها لا يمكن إلا على معابر يضعونها فى النهار و يزيحونها فى الليل فتنام آمنة مطمئنة ، إنها شديدة الشبه بالجزيرة ، غير أن خندق الجزيرة حفرته عوامل الطبيعة ، أما خندق «طرميسة» فقد حفرته أيدى البشر لتتحصن به من عدوان البشر .

وتقع ما بين طرميسة وجادو وأرْجانْ وإدْرَفْ منطقة كانت آهلة بالسكان ، متصلة العمران ، متواصلة البنيان ، يقوم فى كل مرتفع منها مسجد أو مُصَلى ، وفى كل شعب من شعابها آثار قرية أو بقايا ضاحية ، يصل بين ذلك غابة خضراء متشابكة بالزيتون ، متمايلة بالنخيل ، ينتثر بين ذلك شجر التين والكرم . أما تلك المدن والقرى التى بقيت إلى اليوم تدب فيها الحياة دبيباً ضعيفاً أو قوياً ، فقد كانت فى يوم ليس ببعيد فى التاريخ مثابة للعلم ، ومركزاً للإشعاع ، ومأوى للأخيار ومحطاً للرحال ، رحال الكرام ، يأوون إلى الكرام .

وهذه « جنَّاوَن » التى لا تجد اليوم فيها سبعين رجلا ذكراً ، كانت يجتمع

بها فى مسجد أبى عبيدة سبعون عالماً ، لا يرد أحدهم السؤال إلى الثانى إلا من طريق الأدب ، وكان أبو عبيدة على ما عنده من علم وحكمة يجلس إلى بعضهم كما يجلس التلميذ إلى الأستاذ ، وكان هؤلاء العلماء يعيشون فى عصرهم بما تعنيه هذه الكلمة ، فهم مطلعون على سير الحوادث وحالات المجتمع ، يدرسونها ويتشاورون فيها ، ويتخذون فى جميع ذلك القرارات اللازمة ...

وفى قرية « القصير » التى كانت محل استراحة واستجمام بين « جادو وجناون » كان يجلس أبو الليث فى صعوده إلى جادو أو فى منحدره إلى جناون ، فيصلى لله ما شاء ، ثم يعقد مجلس العلم فى ذلك المكان الجميل الذى تظلله أشجار البطوم العظيمة ، فيحضر إليه الناس ويقبلون عليه إقبال العطاش ، ولا يزال الناس إلى اليوم يذكرون تلك المجالس العلمية العامرة بالإيمان ؛ ولكنهم بدلا من أن يشغلوها بالدراسة ، وإحياء السيرة ، وبث المعرفة ، ونشر الفضيلة ، أصبحوا يشغلونها بالصدقة والإطعام مرة أو مرتين فى السنة ، وهكذا عندما أقفرت الرءوس من العلم جادت الجيوب بالمال ، وفى هذا دليل على أن القلوب مفعمة بالإيمان وحب الخير ولكنها فى حاجة إلى تعليم وتنوير .

أما « يوجلين » التى أنجبت « أبا يوسف وجدليش بن فى » وأضرابه ، فقد كانت ملاذ المشائخ ومزار الصالحين ، ومقصد العلماء العاملين ، حتى قال بعض المؤرخين إن العلامة أبا محمد عبيدة بن أفلح اليُوجَلانى إنما تعلم العلم فى بيته ، لكثرة من يغشاه من العلماء الأعلام ، ولطول ما يقيمون عنده ، وكان من أكثر العلماء إقامة فى يوجْلين وأخصهم بأبى محمد العلامة أبو عبد الله بن جلداسن ، وعليه أخذ أبو محمد عبيدة وغيره من علماء يوجلين ، وقد أسندت إمارة الجبل إلى أبى عبيد الله بن جلداسن ، فكان يقسم وقته بين لالوت وجادو ، وفى الفترة

التى يقيمها فى جادو كان يسكن يوجلين ، ومنها يحضر إلى جادو ليقوم بمهام الحكم ، أما الدروس فكان يلقيها أحياناً فى يوجلين وأحياناً فى امسراتن مسجد نفوسة .

لقد كان عبيدة بن أفلح غنياً كريماً ، ولذلك فقد كان يطعم هؤلاء المشائخ الذين يقيمون فى يوجلين، فيطيلون الإقامة من خالص ماله ، ولا يقبل مساعدة من أحد ، ولم يكن يشابهه فى ذلك إلا العالم الثرى أبو على الفساطوى الذى كان ينفق من غير حساب وكان من أخص الناس به وأقربهم إليه أبو الخير الزواغى حتى ارتفعت الكلفة بينهما ، وكانا يتحدثان فى كل جليل وحقير من أمرهما .

زاره عدد كبير من المشائخ ، فأقاموا عنده وأطالوا الإقامة، فاختص بضيافتهم، ولم يسمح لأحد أن يساعده ويشاركه ، وكان يذبح كل يوم شاة لعشائهم وشاة لغدائهم ، فخجل المشائخ وخافوا أن يكونوا أثقلوا عليه ، فكلموا أبا الخير الزواغى راجين منه أن يترك اللحم على الأقل فى إحدى الوجبتين ، وفى اليوم الثانى من حديثهم مع أبى الخير زاد أبو على ، فجعل على كل وجبة شاتين ، وعاتب المشائخ أبا الخير فقال لهم : لقد أبلغته رجاءكم ولكنه استشارنى واستنصحنى فنصحته بالزيادة فى الخير . . .

أما طرميسه التى أنجبت عدداً من فحول العلماء مثل، أبى محمد التِّنْكَنيصى ومحمد بن بَرْكين وأضرابهم فيكفى أنه نشأ فيها من يستحق أن يلقب بأستاذ الجيل فى القرن السابع الهجرى ، ذلك العلامة أبو موسى عيسى بن عيسى الطرميسى .

لقد كانت جادو بما تشتمل عليه من ضواح وقرى هى الحصن المنيع طيلة عدد غير قليل من القرون، وقد بقيت مركزاً للحكم ،وعاصمة سياسية للجبل، يتوالى

عليها الأمراء أميراً بعد أمير، لم تخضعها القوى التى كانت تتكالب على احتلال الجبل من الشرق والغرب، وصمدت فى بطولة للضربات العنيفة التى وجهت إليها. ولم تؤثر عليها حتى الجريمة النكراء التى ارتكبها الميورقى يوم أحرق غابة الزيتون التى كانت تظلل مدخل الوادى فى «جناون» فكان عمله ذلك أفظع من عمل « داهيا » الكاهنة الوثنية، لأنها كانت تحسب ذلك حيلة من حيل الدفاع، أما هو فقد اتخذ ذلك وسيلة من وسائل الهجوم ضارباً بعرض الحائط تعاليم الإسلام، ووصايا أمراء المؤمنين بعدم حرق الشجر، حتى أيام الفتوح فى البلاد التى لم ترتفع فيها كلمة الإسلام.

# وادى الآخرة

واد عميق ، كثير الأشجار ، غزير المياه ، تنبع من أماكن مختلفة منه عدد من العيون والآبار ، وهو ينحدر من الجنوب إلى الشمال كما تتجه جميع الأودية التى تشق جبل نفوسه فى أماكن كثيرة .

وعلى جانبى هذا الوادى من الشرق والغرب تنتثر مجموعة من القرى والمدن كان لها الأثر القيم فى التاريخ العلمى لهذه البلاد ، والأراضى المنبسطة من شرق هذا الوادى وغربه تكون غابات جميلة من الزيتون ، كثيفة الأشجار ، دائمة الخضرة ، خصبة التربة ، والقسم الواقع منه إلى الغرب كان يسمى أرض بنى زمور ، وهو ما يطلق عليه اليوم اسم الرجبان ، وفى أرض بنى زمور هذه تقع عدد من المدن والقرى ، كانت منشأ فطاحل من العلماء ، قدموا للأمة ما هى فى حاجة إلى مثله اليوم .

وفى الجهة الغربية من هذه المنطقة تقع مدينة «أُشْفِى» على منبسط فسيح فوق الجبل الشامخ ، قريباً من حافته .

وإلى هذه المدينة لجأ العلامة طاهر بن يوسف ، وقصة هذا الشيخ فى الواقع إحدى المآسى التى تنتج عن عهود البغى والظلم والعدوان ، واستحلال ولاة الأمور لما صانه الإسلام من أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم .

نشأ طاهر بن يوسف فى وطنه «ساحل المهدية» ، فى أسرة مؤمنة أنعم الله عليها بالكفاف من الرزق ، وكان يلى أمر البلاد التونسية حينئذ الطاغية المعز ابن باديس ، وزار المهدية ، وجمع الناس ، وصار يفرض عليهم الضرائب الباهظة

دون رجوع إلى حكم الإسلام ، ولا تقدير لما يملك الناس من أموال ، فكان يدعو الرجل فيفرض عليه مبلغاً من المال فإذا بادر الرجل إلى شكر السلطان سكت عنه وأخذ منه ما فرض عليه ، وإذا لم يبادر إلى شكره ضاعف عليه وهكذا ، ودعا أعوان السلطان الشيخ فيمن دعوا من الناس فقرأ الكاتب ما يلي :

على طاهر بن يوسف سبعون قفيزاً من الزيت ، فسكت الشيخ ، وأمر السلطان الكاتب أن يعيد القراءة ، فبقي الشيخ ساكتاً ، فغضب المعز وأخذ الكشف من الكاتب وقرأ : على طاهر بن يوسف سبعمائة قفيز من الزيت ، ولكن الشيخ بقي مطرقاً ساكتاً لا ينبس بكلمة ، فكاد السلطان ينفجر من الغضب ، وقام يفكر في وسيلة للانتقام تذل هذا الرجل الصموت الوقور .

أما الشيخ فقد حسب جميع ثروته الصغيرة فوجدها لا تفي بهذا المبلغ ، وكان قد سئم من هذا الجور الذى لا يقف عند حد ، فجمع ماخف لديه من مال وركب البحر هو وزوجه المخلصة ، وكان ذلك المال القليل مع ما عندها من الحلى قد جعلتها فى صرة واحتفظت بها .

ولما كان المركب ببعض الطريق أرادت أن تغسل يديها فسقطت الصرة فى البحر واستراح ابن يوسف من المال ، وهكذا هاجرت هذه الأسرة الكريمة من ساحل المهدية إلى طرابلس ، ثم إلى جبل نفوسه ، وليس لديها من حطام الدنيا إلا ثياب مهلهلة على ظهور أفرادها ، وقصد الشيخ جبل نفوسه معقل الأحرار حينئذ ، ونزل أول ما نزل فى « تاغمة » إحدى ضواحى « يفرن » المدينه البيضاء كما كانت تسمى فى التاريخ القديم وتسابق الناس إليه يجمعون له الأموال ويقدمون له المساعدات ، ولكن الشيخ طلب إلى الناس أن يمسكوا أموالهم ،

ويحتفظوا بها لأنفسهم حتى يزور بقية الجبل ، ويرى بقية إخوانه من العلماء الأعلام ، ثم يختار لنفسه بلداً يسكنه .

وهكذا بدأ رحلته فى الجبل ، واجتمع بأقطاب العلم والدين ، يأخذ منهم ويأخذون منه وأخيراً ، اختار مدينه أشفى ، فاتخذها وطناً ، وقرر الإقامة بها ، وحينما استقر بأشفى ذهب العلامة عيسى بن محرز ، وكان فى تاردية إلى مسجد أمسراتن الذى يشبه أن يكون دار ندوة يحضرها كل علماء نفوسة فصلى صلاة الصبح ، ثم أخبر الناس باستقرار الشيخ طاهر بن يوسف فى أشفى ، وجمع الناس له فى ذلك المقام ستة وخمسين ديناراً وبعث اليه علماء جناون أربعين قفيزا من الزيت ، وبعث إليه إخوانه فى شروس أربعين ديناراً ؛ وبهذه الثروة المتواضعة استطاع ذلك العلامة الكبير أن يعيش فى أشفى عيشه المؤمنين وهو آمن على حريته . . .

إلى الشرق من أشفى تقع مدينة كبيرة أخرى هى «تاردية» وقد جثمت على منبسط من الأرض فوق جبل شامخ ترنو منه إلى « قصر الحاج »، القرية الصغيرة عند السفح ، كما يرنو العملاق الطويل إلى قزم يلعب بين قدميه . وفى هذه المدينة يقوم مسجد أبى يحى ، بمئذنته الضاربة فى الهواء ، كالمنارة الحدباء ، مائلة قليلا إلى الغرب كأنها تنحنى لتهمس فى أذن صومعة أبى زيد ، تشكو إليها أحداث الزمان وتغير التاريخ ، وإعراض الناس عن دين الله وعمارة المساجد والقيام بأمر الله ...

وإلى الشرق من هذه المدينة لمسافة ليست طويلة تقع مدينة «سنتوت» متكئة على صدر هضبة ترنو إلى الشمال فى غير مبالاة .

وفى هذه المدينة المسترخية اليوم ، نشأ أبو الشعثاء السنتوتى ؛ قمة شامخة من قمم العلم ، وعلما من أعلام الفضل ، دأب على التدريس . وهذا خلق طبع عليه جميع

رجال العلم فى ذلك الحين ، على أن الذى امتاز به أبو الشعثاء إنما هو عنايته بتعليم الفتاة، فقد كان يخصص لهن دروسا فكن يتلقين عنه العلم ويستمعن منه إلى النصيحة ، ولم يكن مجلسه يقتصر على الفتيات من « سنتوت » بلده ، أو القرى والمدن القريبة منه فقط ، وإنما كان يحضر إليه الفتيات الذكيات الراغبات فى العلم من الأمكنة البعيدة التى يقطعن فيها المسافات الطويلة حبا فى الثقافة ، ورغبة فى توسيع المدارك ، حتى لقد تحضر إليه الفتيات من « تِـدِينتْ » . وإذا كان هـذا إقبال المرأة عليه ، واهتمامه بأمرها ، فإن إقبـال الرجال عليه أعظم ، ورسالته فيهم أوسع ، وعمله بينهم أكثر إثماراً ، وأوسع إنتاجاً ، وأعود بالفائدة . . .

وحياة أبى الشعثاء حافلة بالعلم والتعليم ، والقيام لله بالأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، والفهم الصحيح لدين الله .

كانت أم الخطاب امرأة صالحة ، رغب فيها أخو زوجها السابق ، فجاء يخطبها فرفضته ، فألح ، فأقسمت بعتق رقيقها أن لا تتزوجه ، وأكثر عليها الناس فيه القول واللوم ، وألحوا فى النصيحة حتى لانت واستجابت ، وراجعت نفسها وفكرت فى قسمها ، فقال لها أولئك الذين يحتالون على الدين ، ويلتمسون الفتوى من الطرق الملتوية ، ولا يهمهم أن يحللوا ما حرم الله ، قالوا لها : لو وهبت مما ليـكك لأحد الناس ثم تزوجت فردهم عليك أو رد بعضهم لجاز لك ذلك ، ولـكنها لم تطمئن ، فذهبت إلى أبى الشعثاء تسأله عن موضوعها وتخبره عن فتوى الناس ، فقال لها فى استنـكار وتأنيب : أتخادعين من خلق الخداع — يا أم الخطاب ؟ . . .

فرجعت مسرعة إلى دارها ، فوجدت الإماء ينسجن فقالت لهن : إنـكن معتقات ، فقمن ولم تزد واحدة منهن خيطا فرحاً بالحرية ، وكن ثلاث عشرجارية .

وعلى مسافة قريبة من سنتوت إلى الشرق تقع مدينة « إشارن » بلد أبى اسحاق العالم الزاهد الذى كان لا يفتأ يقول لأهل بلده : اضمنوا لى أربعا أضمن لـكم أربعاً .

الأذان ، والصلاة ، وتعليم الخط ، وحفظ القرآن الـكريم . يسلم مسافركم ، وَيَنْمُ رزقـكم ، وتطفأ نار الحرب عنـكم ، ويرتفع القحط ؛ فإذا جاء إلى المسجد ولم يجد أحداً غضب لله وشدد الإنـكار ، وأسمعهم قوارع التأنيب وربما قال لهم يا أهل : إشارن صرتم ( إشارن )(١) .

كانت أرض بنى زمور المنبسطة الممتدة ما بين وادى الآخرة والأراضى التابعة لجادو متصلة العمران، كثيرة القرى، يعمرها العلم والعمل الصالح ، وكانت ترتفع فى وسط هذه الأراضى العامرة مدينة «ميرى» على عدد من الهضاب المشرفة على المنطقة . وعلى قمة عالية من إحدى هذه الهضاب لا يزال يجثم مسجد الإمام العظيم عبد الوهاب بن عبد الرحمن كما يجثم الصقر على صخرة ضاربة فى الهواء ، ينظر إلى ما تحته من حشرات وخفافيش فى احتقار وازدراء .

مكث عبد الوهاب بن رستم سبع سنوات كاملة فى هذه المدينة ، فـكانت بذلك عاصمة للامامة فيما بين سرت والمغرب الأقصى وكان يرجع إليها الولاة من سرت وودّان وزويلة وفزان ، كما يرجعون إليها من تونس والجزائر .

واتسعت المدينة العظيمة للإمام العظيم فـكانت حلقة اتصال بين الشرق والغرب والجنوب ، واليوم وقد عدا الزمان على المدينة وأصبحت خرائب

---

(١) اشارن الأولى: اسم البلد، واشارن الثانية: يعنى بها معناها البربرى، وهو الأظافر.

وأطلالا لم يبق منها إلا ذلك المسجد، يروى للتاريخ عبر الماضين ولا يزال إلى اليوم حرما آمنا يضع فيه أبناء الرجبان اليوم زرعهم وزيتونهم فلا تمسه يد ، ولا يعتدى عليه معتد، كأنما لا يزال أمير المؤمنين عبد الوهاب يقيم فيه حدود الله ؛فيقطع أيدى السارقين، وينزل حكم الله على الخائنين ...

وإلى الجنوب من ميرى بنحو ميلين تنبسط «أدْرَفْ» التى تقع على مشارف غابة الزيتون . . فإلى شمالها الشجرة المباركة ، وإلى جنوبها تمتد سهول مزارع القمح والشعير . . .

وقد أنجبت هذه المدينة أعلاماً قل أن يجود بهم الزمان ، وفيها نشأ عدد من العظام الذين اختيروا لحكم جبل نفوسة ، ومن بينهم أبو داود الذى أستقل بحكمها فقيل عنه : إن نفوسة لم تر مثل أيام أبى داود .

أقيمت حدود الله ، وصُد عدوان المعتدين ، فانتشر الأمن وعم الرخاء ، واستقرت الحياة بالناس ، فكان عصره عصر خير وبركة .

على الضفة الشرقية لوادى الآخرة تمتد أراضى « تَاغَرْمِينْ » الفسيحة الخصبة ، وقد كانت تلك الأراضى الفسيحة عامرة بالمدن والقرى ، آهلة بالسكان ما بين حافة الجبل ومَطـكوداسَنْ ، على حوافى الجبل يظللك شجر الزيتون الضخم ، وعند ما تبتعد عنها إلى الجنوب تمتد أمامك مغارس شجر التين ، فإذا تجاوزتها انبسطت أمامك مزارع القمح والشعير تلك المزارع التى لا يصل إلى مداها البصر، ولا تحدها رؤية العين ، تبدأ ضيقة فى رؤوس الهضاب ، ثم تنفسح تدريجياً ، فإذا نزلت الأمطار انسكب عليها الماء من المرتفعات فأرواها وانعشها .

و «تاغرمين» هذه التي أصبحت اليوم تسمى «الزَّنتَان» كانت مقر علم وفضل ودين ، ومنبت رجولة وبطولة وأخلاق .

وفيها نشأ عدد غير قليل من فطاحل العلماء ، مثل أبي يعقوب ، الذى حكم جبل نفوسة ، فكان من خيرة الحكام اتباعا للحق ، ورجوعا إلى دين الله فى كل صغير وكبير، وتواضعا للمؤمنين، قال فيه أبوالعباس : «أتاه رجل بنميمة فقال : فلان لا يقول هذا : بل هو منك . فقطع عن نفسه النمائم(١)» .

أما أبو محمد عبيدة بن زارور فقد كان فى المرتبة السامقة من العلم والورع والاستقامة .

جلس يوماً إلى المشايخ يتحدث عن نفسه ويراجع حسابه مع ربه فقال : عملت ثلاثا يُشْبِهن الفضول : أعطيت حمارا فارها أركب عليه من مكان إلى مكان فأعجبنى سيره فقلت: ما أحسن سير هذا الحمار فقال الرفاق إنه لليتيم الفلانى .

وحين عرف أبو محمد أن الحمار ليتيم نزل وأتم الرحلة على رجليه ، ولولا الفضول لبقى راكبا دون أن يجد فى نفسه شيئاً .

ومر على بستان تين فدعاه صاحبه إلى الأكل ودخل العالم الورع فأعجب بنضارة التين وطيبه فقال: ما أحسن هذا التين ، فقال له صاحب البستان عندما سالت الأمطار انكسرت إليه تلك الساقية ، وأشار إلى ساقية تجلب الماء إلى بستان ثان، فقال أبو محمد: ولمن الساقية ؟ فقال صاحب البستان: إنها لليتيم الفلانى ، وكان هذا كافيا فى حرمان أبى محمد من هذا التين الطيب ، ولولا الفضول والسؤال لأكل أبو محمد دون أن يعلق به إثم .

---

(١) السير : ص ٢٥٣ .

ومرت به أمة نشيطة خفيفة جميلة فسلمت عليه فرد السلام وقال لها : ما أحسنك إن عرفت توحيدك ، فتعلقت به وطلبت إليه أن يعلمها توحيدها ، واضطر أبو محمد أن يلقى درساً طويلا مسهبا فى التوحيد لهذه الأمة المسلمة ليعلمها أمور دينها ، ولولا الفضول لما اضطر إلى هذا العناء .

قال أبو محمد: وعملت ثلاثا يشبهن الكذب :

كان يسير مع رفاق له فأبصر ذئباً فقال للرفاق: ألا ترون ذلك الذئب، وهو لا يعرف إن كان ذكراً أو أنثى . وخرجت سيدة البيت لشأن من الشئون تاركة طفلها الصغير ، فأخذ الطفل يبكى فكان أبو محمد يقول للطفل هذه أمك مقبلة ولم تكن كذلك ، فكان أبو محمد يرى من نفسه أنه كذب على الطفل البرىء ..

ونفرت بغلته فأخذ مخلاة فارغة يدفعها أمام البغلة النافرة حتى رجعت إليه ، أليس هذا خداعا للحيوان الغافل ...

لقد ارتكب أبو محمد هذه الجرائم : وكان لا يفتأ يذكرها ويستغفر الله منها ، ويحاسب نفسه عليها ، فما رأى القراء الكرام فى رجل هذه أعاظم ذنوبه وأكبر أخطائه ...

ولعل الكاتب الذى ينقل عبرة التاريخ وجمال الذكر لا يستطيع أن يمر على «تاغرمين» دون أن يذكر قصة المرأتين الصالحتين : أم جلدين وأم زعرور ، أما أم زعرور ففتاة درست على أم يحيى، وتزوجت أبا محمد التغرمينى، ورحلت معه إلى بلده ، فكانت له نعم الزوجة ، والقارىء الكريم يقع على أخبارها فى أثناء هذا الكتاب؛ أما أم جلدين: فامرأة صالحة نشأت «بيفرن» وتزوجت هناك، إلا أنها لم ترزق أولاداً ، وفى آخر أيامها كانت تدعو الله أن لا يرفعها إليه حتى ترى زيتون «تاغرمين» وتلتقى بأم زعرور ثم تتوفى ويصلى عليها أبو محمد، وفى إحدى السنوات

نزل المطر الباكر على أراضى تاغرمين ، وتأخر عن يفرن، فرأى أهالى تلك المنطقة أن ينتجعوا الكلأ فى منازل الغيث ، وارتحل زوج أم جلدين فيمن ارتحل إلى أراضى تاغرمين . وذهبت فتاتان من الحى إلى الزنتان لشأن من الشؤون، فساقتهما الصدفة إلى بيت أم زعرور، فكن يلاحظنها وتهمس إحداهن للأخرى قائلة : هذه العجوز تشبه جدتنا ، ويقصدن ( بجدتنا ) أم جلدين ، فهذا هو اللقب الذى يطلقه عليها الناس ، وسمعت أم زعرور ما تتهامس به الفتاتان ، فسألتهما عن جدتهما : فأخبرتاها ، فذهبت معهما لزيارتها والتقت المرأة الصالحة بالمرأة الصالحة، وتواصتا بما فيه الخير ، ثم قالت أم زعرور لأم جلدين : ادعى لنا ، فقالت أم جلدين: لقد سألت ربى كثيراً وإننى استحيي أن أزيد، فدعت أم زعرور ورجعت إلى منزلها فأخبرت أبا محمد ، فذهب هو الآخر ليزور العجوز الصالحة ، ولكنه وجدها قد توفيت فصلى عليها ، ورجع ينقل الخبر إلى صديقتها الوفية ، وهكذا تحققت مطالب أم جلدين : فرأت زيتون تاغرمين، واجتمعت بأم زعرور ، وصلى عليها أبو محمد ...

وفى تاغرمين مصلى أم الخطاب الذى كان محل اجتماع لأعاظم الأمة ، وحسبك أن يكون مقصداً لأبى مرداس وأضرابه .

أما مصلى أم جلدين ، فلا يزال معروفا إلى اليوم فى يفرن .

لقد كانت تاغرمين فى المرتبة التى لا تدانى من كثرة العمران ، ووفرة السكان ، وخصب الأرض ، وانتشار العلم والصلاح ، وتزايد الأبطال ، أبطال العلم وأبطال الكفاح .

# وادي الروميـــــــة

واد يتجه من الجنوب إلى الشمال كما تتجه جميع أودية الجبل، وينحدر انحداراً تدريجيا خفيفاً حتى يصل إلى قطاع من الجبل، فيـكون شلالا عظيما ربما كان أعلى شلال فى جبل نفوسة ، والمنطقة التى فوق الشلال تـكون روضة مستطيلة قليـلة النظائر، تشتبك فيها الأشجار المختلفة من مثمرة وغير مثمرة ، وتسيل خلالها المياه الدائمة ، وتنبع فى كل جهة من جهاتها عيون وآبار تجعل منها منطقة خصبة دائمة الخضرة ، وأعظم هذه العيون وأعذبها ماء هى عيون الرومية .

وقد سحب قسم من مائها فى أنابيب إلى مدينة يفرن على مسافة ستة أميال تقريبا ، ومنها تروى هذه المدينة العظيمة .

أما المنطقة التى تحت الشلال فتـكون غابة جميله من الزيتون والنخيل تختبىء فى أحضان الجبل العظيم ، وبين تلك الأشجار الباسقة فى حضن الجبل الدافىء وحول مصب الشلال العالى تنام قرية أولاد عطية فى هدوء واطمئنان .

إلى غرب هذا الوادى الخصيب الجميل تمتـد أراضى خصبة تـكوّن مزارع للقمح والشعير تارة ، وتـكوّن أجنة وبساتين شجر التين تارة أخرى ، فإذا اقتربت من حافة الجبل كونت غابة فسيحة خضراء من شجر الزيتون ، حتى تصل إلى جبل « شماخ » الذى يرتفع فى شموخ بين الربا والمرتفعات .

وتاريخ هذا الجبل كان يمر كتاريخ بقية الجبال والمرتفعات فى حياة الطبيعة ، لو لم ينشأ عليه آل شماخ الأماجد، ورغم أن هؤلاء الرجال العظام انتقلوا فى سكناهم

من شماخ إلى يفرن إلى أنهم بتاريخهم الحافل، وأعمالهم المجيدة ، رفعوا من شماخ ويفرن على السواء ، ويندر جداً أن تجد بلداً أمد الإسلام برجال تناسلوا فى أزمنة طويلة من التاريخ وهم يحملون أعباء الرسالة المقدسة فى حرص وأمانة ، كما فعل آل شماخ ، وآل البارونى ، وآل أبى منصور إلياس .

ولو كان للبقاع أن تفتخر ، لحق لشماخ وتندميرة وتملوشايت أن ترتفع بين الربا والوهاد .

وليس معنى هذا أن بقية البقاع لم تقدم من الرجال مثل هؤلاء : إنى لوقلت مثل هذا لوقفت كثير من البقاع محتجة ، ولصرخت فى وجهى أدرف، وجادو ، وتوكيت، وأرجان، وجناون، وونزريف، وويغو، وكباو، وفرسطاء ، وتمصمص، ولالوت ، وعشرات غيرها ، ترد على هذا القول وتبطل هذا الزعم، ولكن الفرق بين تلك القرى الثلاثة التى أنجبت عمالقة عظاماً وغيرها من القرى، أنها لم تحتفظ بهم لنفسها ، وإنما آثرت بهم غيرها من المدن والقرى .

إن جد الأسرة البارونية أبا هارون موسى ما أسند إليه حكم الجبل حتى هجر تملوشايت التى أنجبته ، وجعل مركز حكمه فى « أيباناين » ثم انتقل أبناؤه من أيبانابن بعده إلى كل مكان ، وعمروا كل بلد إلا تملوشايت مدينتهم الأولى .

وكما فعل آل البارونى فعل أبناء أبى منصور، فما أسند الحكم إلى أبى منصور حتى انتقل إلى جادو، وقد عمر أبناؤه من بعده كل القرى والمدن إلا تندميرة، مدينتهم التى أنشأت أبا منصور .

وعلى هذا المنوال سار آل شماخ ، فقد انتقلوا إلى يفرن ، واستفاد من علمهم وخلقهم ودينهم كل مكان فى الجبل ، ولكن جبل شماخ لم يعد مأوى لهم .

إن هذه المدن الثلاثة تملوشايت وتندميرة وشماخ أنجبت أبر الأولاد ، ولكنها آثرت بهم غيرها ، وتسلسلوا فى بلدانهم الجديدة ، ولكن أعمالهم كانت للأمة جمعاء ، إن المدن الأخرى التى أنجبت عظماء مثل هؤلاء أو أكثر أو أقل احتفظت بأبنائها ، وإن كانت أعمالهم للجميع .

وكأن أسرة الشماخى لم تتسكون فى هذا الجبل إلا لتدخله فى حساب التاريخ دون آلاف من الربا والوهاد فى مختلف البلاد .

وعلى الجهة الشرقية لهذا الوادى تقع مدن كثيرة متناثرة بين هضاب قليلة الارتفاع ، ووهاد قليلة الانخفاض ، ذات تربة خصبة ، تزدان بحدائق غناء من أشجار الفواكه المختلفة .

تلك المدن المتناثرة تتقارب فى بعض الجهات حتى تصبح مدينة واحدة ، وتتباعد فى جهات أخرى حتى تصبح ضواحى لتلك المدينة ، ويطلق عليها اليوم اسم يفرن ، وهو اسم القبيلة البربرية التى سكنتها فى بعض أدوار التاريخ ، أما الاسم التاريخى لهذه المدينة قبل الإسلام ، فهو البيضاء ، واستعمل الإسم الأخير حتى فى بعض العصور الإسلامية ، وذكرها به بعض الكتاب ، ومن المفارقات : أن هذا الإسم كان يطلق على طرابلس أيضاً ، فيسميها بعض الرحالين بالمدينة البيضاء ، قال التيجانى : « ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشى الأبصار ، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء » .

وتاريخ يفرن الإسلامى حافل بالمجد والعظمة ، وقد بقيت مدة غير قليلة مركز إشعاع ، ومنذ القرن الثامن تقريبا حملت رسالة العلم والتعليم فى الجنوب الليبى ، وكان لها فضل عظيم فى نشر الثقافة الإسلامية ورعايتها ، والدعوة إليها إلى زمن الاحتلال الإيطالى وحتى فى عصور الانحطاط أيام حكم الدولة العثمانية على البلاد بقيت

يفرن فى مقدمة البلاد التى حافظت على التراث الإسلامى الصافى محافظة لا تساهل فيها ولا تفريط .

وقدكانت زاوية البخابخةمقصداً لطلاب العلم، ومأوى لعشاق الثقافة يقصدها نجباء الطلاب من كل مكان تقوم برسالة التعليم المقدسة باستمرار ، مرة بقوة ونشاط ومرة بضعف وفتور، حتى جاءها فى أواخر العصر التركى الإمام العلامة عبدالله ابن يحيى البارونى ، فجدد بناءها ، وجدد أسلوب التدريس فيها ، فاقتبس طريقة التعليم والاصلاح الاجتماعى، ومكافحة الأمراض التى بدت تسرى فى كيان الأمة من دين الله ، ومن سيرة السلف الصالحين الذين سبقوه فى هذا الميدان ، فكان لمجهوده العظيم أعظم الأثر، لا يقل عما تركه أبو موسى عيسى الطرميسى وأبو ساكن عامر بن على الشماخى .

أما المدرسة التى أسسها أبو ساكن عامر الشماخى فقد بقيت هى الأخرى تؤدى رسالتها ، تارة فى التعليم المنهجى والإصلاح الاجتماعى، وتارة تقتصر على الإصلاح الاجتماعى، وكان فى أغلب الأحيان يعمر هذه المدرسة بعض أبناء هذه الأسرة الكريمة التى لم ينقطع منها الفضل والشرف والعلم . .

وقد نشأ فى يفرن عدد غير قليل من العلماء أمثال عبد السلام بن صالح ، وعمروس اليفرنى ، وأبى يحيى زكرياء بن عبد الرحمن ؛ وكان من العمالقة الذين أنجبتهم يفرن فى أواخر العصر التركى ، العلامة قاسم بن سعيد الشماخى ، نزيل مصر ، وقد كون هذا العلامة رجة فى مصر شغلت أرباب الفكر والعلم والأدب ردحاً من الزمن، وكان إلى جنبه الأديب الصحفى المصرى مصطفى بن إسماعيل، وكان الرجلان يكونان ثنائيا مندفعا فى كفاح الأباطيل والخرافات والبدع بقوة وعزم ، وحينما ثار الجامدون فى وجه الإمام محمد عبده . كان هذا الثنائى من أعظم

الأنصار الذين وقفوا فى وجه الجمود يردون كيد الخصوم ، ويحاربون منطق التخلف الذى يمليه فى أغلب الأحيان حسد ، مبعثه القصور والعجز ، فكانت لهما مقالات رنانة متآزرة فى الصحف ، وكتب متآخية فى نصرة الحق ، أما المحاضرات والمناقشات التى كانا يقومان بها فى النوادى والمجتمعات ، فقد سمعنا عنها ، ولم يصلنا منها شىء . أما والده سعيد الشماخى الذى كان يحتل مكاناً مرموقا فى الأوساط العلمية فيكفى للدلالة على مكانته أن الحكومة التونسية قد اختارته وكيلا لها على شؤونها فى مصر ، على ما لتونس من الرجال فى ذلك الحين . .

# تآزر جهود الفرد والجماعة والدولة

فى الفصول السابقة عرضت إلى الحديث عن عدد من العلماء الليبيين الذين نشأوا فى أجزاء من ليبيا ، ودرسوا فى أجزاء من ليبيا ، وقاموا بالتدريس والإصلاح فى أجزاء من ليبيا ، ولو كنت من دعاة القوميات لحسبت ذلك شرفا لهـذا الوطن الـكريم ، أو لهذا الشعب النبيل ، ولـكننى لا أؤمن إلا بالأمة الإسلامية الـكبرى ، التى تذوب فيها الشعوب والقوميات والأجناس .

ولا أحب إلا الوطن الإسلامى الـكبير دون حدود أو تقسيم ، ذلك الوطن الذى يجمع أولئك الناس الذين يؤمنون بالله ربا وبمحمد رسولا وبالقرآن كتاباً ، وبالإسلام ديناً « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » وأن أى عمل مجيد يقوم به فرد أو طائفة فى أنحاء هذه المملـكة الإسلامية الواسعة إن هو إلا من أمجاد الأمة جمعاء ومن مآثر الإسلام على البشرية .

وأن أى انتكاسة تصيب جزءاً من أطراف هذه المملـكة الواسعة ، إن هو إلا انحراف عن سبيل الله أو بسبب الانحراف عن سبيل الله .

تحدثت عن هؤلاء العلماء كمثل للـكفاح الإسلامى فى واجهة دقيقة وميدان شديد الخطر ، لأنه يتصل بالفـكر والعقل ، ولست أقصد بالأسماء التى ذكرتها سواء كانت أسماء رجال ، أو أسماء أمكنة أن أحصر الـكفاح فى أولئك الأشخاص أو فى تلك الأمكنة ، فإن هذا لا يجرى فى خاطرى ، وإنما ذكرت هؤلاء كمثل لعشرات

مثلهم أوخيرمنهم ، نشأوا وعاشوا فى هذا الجانب من الوطن ، وقاموا بمثل هذا الـكفاح الطويل المقدس فى سبيل الله .

وكمثل لآلاف من العلماء المخلصين الذين ينبثون فى كل ركن، وكل زاوية ، وكل جهة من الوطن الإسلامى الـكبير ، يكافحون هذا الـكفاح الدائب المخلص؛ إيمانا برسالة الله ، واحتسابا لله ، وحفاظاً على التراث المجيد الذى خلفه المهتدون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن الأمة الإسلامية ، ورجال الأمة الإسلامية ، لم يعتمدوا قط على الدول فى بناء المشاريع العظيمة منذ انحرفت تلك الدول عن النظام الإسلامى فى الحـكم ، سواء كان هذا الانحراف بعيداً أوقريباً . والأعمال الخالدة ، والمشاريع الضخمة ، والـكفاح الدائب المستمر ، إنما كان يقوم كل ذلك على كواهل أفراد أوجماعات من الأمة ، لايسندهم الحـكم ، ولايقدم لهم يدالمساعده إلاحينما يجد فى ذلك دعاية له ، أو تأييداً لحـكمه ، أوجلباً لأنصار جدد يتأيد بهم سلطانه ، ويقوى نفوذه .

وحينما كان العاملون فى الأمم الأخرى تغدق عليهم الأموال ، وتفتح لهم الأبواب ، وتحشر أمامهم الإمكانيات ، كان رجال الإسلام يقومون وسط الدول المنحرفة بأعمالهم إما منفردين أومؤيدين بأهل الفضل والإحسان من أبناء الأمة ، ومع ذلك فقد استطاع أولئك الأبطال أن يقدموا للبشرية ما لم يقدمه غيرهم ، وذلك لأنهم بنور الله يبصرون ، وبروحه يعملون ، إنهم يعملون فى ضوء الإسلام الذى أنار آفاق الحياه للإنسان .

ارجع إلى معاهد العلم فى الوطن الإسلامى الفسيح ، وإلى الدراسات التى قام

بها جبابرة العقل وإلى الرحلات الطويلة التى اكتشف فيها المسلمون كثيرا من مجاهيل الأرض ارجع إلى ذلك وإلى أكثر من ذلك فانك سوف تجده قد قام على كواهل أفراد أو جماعات ، وكثيراً ماتجيء الدول فتحتضن مشروعا من تلك المشاريع بعد أن يثبت ويستقر ، وأكثر المعاهد العلمية إنما كانت على هذا النمط بناها أصحاب الخير والفضل أفراداً أو جماعات ، وأوقفوا عليها أوقافا تدر عليها ما يكفيها من النفقات ، وبعد أن يقوم هذا العمل ويؤدى رسالته كأحسن ما تؤدى الرسالات تأتى الدول فتدخل المعهد تحت نفوذها ثم تسحب أوقافه إلى ميزانيتها وتنفق عليه من بعد فى حرص وتقتير ، وتزعم للعالم وللناس أنها تشجع العلم وترعى معاهده .

إن الذى أريد أن أقوله فى هذا الصدد أن حركة الإصلاح بأوسع ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى لم تتوقف يوماً واحداً فى الأمة الإسلامية ، وعندما كانت الدول تنحرف عن صراط الله أو تعجز عن القيام بمهامها ، أو تشتغل بأمور أخرى بعيدة عن واجباتها ، أو تستخذى لسلطان دولة أخرى فإن دبيب الحياة فى الأمة يستمر ، ورسالة الإصلاح لا تتوقف ، والمؤمنون المخلصون يدأبون على ماعاهدوا الله عليه من جهاد فى سبيله وذود عن رسالته وقيام بأمره .

ولست أعنى بهذا الحديث أن الدول المتعاقبة فى تاريخ الإسلام لم تقدم للبشرية مثل ما قدمت الدول الأخرى أو أكثر أو أقل فإن كثيرا من المشاريع الضخمة قامت بها دول يدين القائمون عليها بالإسلام ولكننى أعنى أن المجهود الشعبى للمسلمين كان أكثر آثاراً وأعظم إنتاجاً وأدوم حركة .

وهذا الكفاح الفردى أو الكفاح الشعبى لا يعفى الدولة من المسئولية

ولايجعلها فى معزل عن الإصلاح فى شتى ميادينه ولايباعد بينها وبين الأمة ، لأن الدولة فى الإسلام هى التعبير العملى عن فكرة الأمة ، بشرط أن تكون هذه الفكرة متمشية على هدى من الدين القويم .

وعندما تكون الدولة ملتزمة لنظم الإسلام ، عاملة بشرائعه ، مستوحية منه الهداية ، فإن الغايات من الكفاح الفردى والشعبى والدولى أو الحكومى تكون واحدة . ويكون الوصول إليها سهلا ميسوراً ، لأن الإسلام كما لم يُعْفِ الدولة من الإصلاح ، كذلك لم يعف الفرد ولم يعف الجماعة .

فإذا تآزرت هذه القوى — قوة الفرد وقوة الجماعة ، وقوة الدولة — التى هى العناصر المكونة للأمة ، إذا تآزرت هذه القوى كان ذلك اندفاعا محموداً فى تحقيق الرسالة التى تسعى إليها الإنسانية فى نور الشرائع السماوية .

ولن تفترق هذه الجهود فى دولة إسلامية عاملة بكتاب الله محافظة على دينه.

فإذا وجدت أن أعمالا عظيمة ومشاريع ضخمة تقوم عل مجهود فردى أو مجهود شعبى دون أن تعنى بذلك الدولة فإنها حينئذ تكون منحرفة عن سبيل الله .

أما الفرد أو الجماعة من الأمة فإنها لا تستطيع الإنحراف فى دولة إسلامية وهذا يعنى أنه إذا وجد انحراف سواء كان هذا الانحراف عن دين الله من فرد أو جماعة ، فإن الدولة أيضا لم تقم بأمر الله ولم تسر على الإسلام .

وإذا كان لا يحل للفرد العادى المسلم أن يسكت عن المنكر يقوى على

تغييره فكيف يقع المنكر من فرد أو جماعة ترعاهم دولة مسلمة ، وتتولى تنفيذ أحكام الله فيهم .

إن الدولة لا تكون إسلامية إلا إذا كانت جميع الطاقات والقوى فيها — سواء كانت هذه الطاقات فردية أو جماعية — موجهة إلى خير الإنسانية ، سائرة فى النهج القويم الذى دعا إليه كتاب الله ، وأوضحته سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار فيه المهتدون من سلف هذه الأمة ...

# المرأة الإباضية في ليبيا

كان موقف المرأة الإباضية فى ليبيا هو موقف المرأة المسلمة المؤمنة من الأسرة والمجتمع والأمة ، لا يقعد بها ظلام الجهل عن مكانها ، ولا يطغى بها الغرور العلمى عن مكانها ، فهى عماد الأسرة فى التربية والتوجيه ، وهى عماد الأمة فى النصيحة لله ولرسوله ، وهى ظهيرة الرجل فى كفاحه من أجل دينه ومن أجل وطنه ، تثبت فى الصف الثانى دائما لتكون ردءاً للرجل ومرجعاً له ، إن استشارها نصحته ، وإن رجع إليها من عنت العمل ومشاق الكفاح ، غمرته بالمحبة والحنان ، ووطأت له كنف المنزل فوجد الراحة لنفسه ، ووجد الراحة لبدنه ، ووجد الراحة لقلبه ، تقوم على شئون البيت قيام العارفة ، وتتصرف فى مال الزوج تصرف المخلصة الأمينة .

وتتلقى عن الأب والأم أسس السلوك الذى يحمدها عليه عشراؤها طول الحياة . هذه الصورة هى الإطار العام لحياة المرأة الإباضية على العموم ، أما الصورة التفصيلية لآحادهن فهى أروع وأجمل .

فَــهِمَــتْ قواعد المذهب الإباضى الذى لا يجيز التقليد فى الدين ، وفهمت قواعد المذهب الإباضى الذى يوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفهمت قواعد المذهب الإباضى فى وجوب الولاية والبراءة الشخصيتين .

فحملتها القاعدة الأولى على أن تدرس ، وتحضر مجالس العلم ، وتشترك فى النقاش الحاد لتأخذ دينها عن فهم واقتناع لا عن محاكاة وتقليد .

وحملتها القاعدة الثانية أن تعرف كل شىء فى مجتمعها ، وتطلع عما يجرى

حولها ، وتزن أعمال الناس وأخلاقهم حتى تستطيع أن تصرخ فى قوة لتستنكر المنكر ، وتدعو فى حرارة إلى المعروف .

وحملتها القاعدة الثالثة أن تنظر إلى سلوك الأفراد فتعلق محبتها ورضاها لمن يستحقون الولاء ، وتعلن غضبها وبراءتها من أولئك الذين يتمردون عن الحق، ويجابهون الله بالمعصية ، أو يخالفون عن سيرة المسلمين ، فينطلق صوتها من وراء الحجاب المسلم المصون يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويدعو إلى الإيمان بالله ، ويندد بالعصاة والمنحرفين .

١ — فكم كان رائعاً حين انطلق صوت المرأة المسلمة (١) من قسم النساء فى مسجد غاص بالمصلين يأمر الإمام بالتأخر لأنه ليس أهلا لأن يصلى بالمسلمين، ويستجيب ذلك الإمام لصوت الحق الذى انطلق من فم امرأة فى مسجد غاص بالرجال، فيتأخر ويتقدم من هو أولى .

وتقضى ظروف الحياة أن تلتقى هذه المرأة المؤمنة فى مضيق من الطريق بهذا الرجل الذى آذته فى الله ، فتوجس فى نفسها خيفه ، وتخشى أن تلقى منه بعض ما تكره ، ويحس الرجل بما يعتمل فى نفسها فيقول لها : امضى راشدة ، لولاك لهلكنا ، يسر الله لك سبل الجنة (٢) .

لقد خفت صوت المرأة بعد أمهات المؤمنين ومن تأدب بأدبهن فى المساجد ومجامع الصلاح ، وإن ارتفع فى مجالس الغناء والشراب، وفى المراقص والملاعب، وفى الشوارع والمكاتب، ولكن هذا المجتمع الذى يعمل بقاعدة الولاية والبراءة ويرتفع فيه صوت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا تزال فيه المرأة

---

(١) هى أم يحى زوجة أبى ميمون : صاحب المدرسة الشهيرة فى أمسين .

(٢) راجع السير ٢٣٣ .

تحتفظ بآداب الإسلام ، لا تغرها المظاهر الخادعة من الحياة الزائفة ، ولا تزال المرأة تعمر المسجد ، وتشترك فى مجالس العلم من وراء حجاب وتصدع بالحق ...

٢ — رجع أبو يوسف حجاج بن وفتين إلى بيته بعد نقاش طويل حاد فى المؤامرة التى يدبرها خلف بن السمح لقلب نظام الحكم ، وتكوين دولة جديدة تحت حكمه ، وكان أبو يوسف يميل إلى مؤازرة هذا الزعيم الجديد ، فلما أراد الدخول إلى داره ووضع رجله داخل العتبة ، صاحت به زوجه المرأة المؤمنة التى تتمسك بالحق وتتبعه قائلة : إليك يابائع دينه[1] .

وصدمت كلمة الحق سمع الرجل فوقف فى مكانه لا يتقدم ولا يتأخر يوازن بين الموقفين ، ويقارن بين المصيرين ، وأطال الوقوف حتى تبين له الحق ، وأدرك فداحة الجرم الذى كان مقدما عليه ، وعرف صدق النصيحة فى هذه الزوجة الوفية التى تحبه وتحب له الخير ولنفسها ولأولادها ، وللأمة من ورائهم ، فأعلن إذعانه للحق ، وتوبته إلى الله ، ورجوعه إلى صفوف المسلمين ، وحينئذ انفتح له القلب الكبير الذى أحبه وغمره بالعطف والحنان وهداه بالنصيحة السديدة المخلصة .

إن المرأة فى ذلك العصر لم تكن أقل من الرجل علما وفقها فى الدين ، ومعرفة بأسرار الشريعة واستمساكا بالحق .

٣ — ارتحل أبو معبد الجناونى إلى قنطرارة « تيجى » والتحق بمدرسة سعيد بن أبى يونس الطمزينى ، ودرس حتى ظن أنه بلغ الغاية عن العالم الكبير ، وقفل راجعا إلى مدينته جناون فمر فى طريقه بقرية « تَنْدْبَاسْ » ، هذه القرية التى تقع على الضفة الغربية لوادى الزرقاء الجميل ، والتى تستقبل قبلة الشمس عند البزوغ كل صباح .

---

(١) راجع السير : ص ١٨٧

وتبعث بتحاياها الرقيقة إلى زميلتها « مزو » المقابلة لها على الضفة الشرقية من الوادى فوجد أمة تسقى الماء من صهريج خارج القرية ، وكان قد بلغ منه الجهد والعطش ، فاتجه اليها وطلب منها أن تسقيه ، فنظرت إليه فى استنكار ، وقالت له : أتستخدم أموال الناس ياجاهل (١) ؟

وصدمه الجواب العنيف ! أبعد كفاحه الطويل فى طلب العلم تعيره أمة بالجهل؟ ورجع إلى نفسه ، وتاب إلى رشده ، وأذعن للحق، وعرف أن دراسته نظرية بحته ، وأنه فى حاجة إلى المزيد، ورجع من مكانه ذلك إلى المعهد الذى كان يدرس به ، فأقام فيه وأطال الاقامة حتى أصبح علما بين العلماء ، ومرجعا للنبغاء .

إنه فضل المرأة التى تعرف حدود الدين ومنتهى الحقوق .

وشبيه بهذا الموقف موقف بهلولة مع أبان :

٤ — كانت بهلولة (٢) امرأة عالمة صالحة وكان أبو ذر أبان بن وسيم مثلها علما وصلاحا ، فكان يزورها يقتبس من علمها وخلقها ، وتقبس من علمه وخلقه ، وأعجب بها فخطبها إلى وليها .

وجاءها يوما فرحا مستبشرا فاستأذن فأذنت له ، وفتحت الباب وبادرها يخبرها أنه خطبها من وليها ، وأن الولى وافق وعقد العقد. فاغلقت فى وجهه الباب ثم قالت له : كنت تدخل الينا بأمانتك ففتحنا لك ، والآن صرت مدعيا ، فإن أتيت ببينة رضينا بك زوجا ، والا فانصرف ، ثم قالت له : إنك أمين ولكنك احتجت إلى الأمناء ولو كنت أبانا .

---

(١) راجع السير: ص ٢٤٢
(٢) راجع السير: ص ٢١٧

واضطر العالم الشيخ الورع ، أن يثبت دعواه بشهادة الشهود ، وإقرار الولى حتى رضيت به بهلولة زوجا ، وكانت له نعم الزوجة وكان لها نعم الزوج ، فما عرف أن زوجين تشابها خلقا وعلما ودينا كما تشابه هذان الزوجان .

وقد دلت الحادثة السابقة أنها أملك منه لزمام نفسها وأكبح لعاطفتها ، وأرسخ قدما فى الوقوف عند حدود الشرع وتطبيقه ، فلما استخفه الفرح بموافقة الولى على خطبته لها لم يجعل لشىء آخر حسابا ، أما هى فقد طبقت عليه أحكام الشريعة السمحة تطبيق العالمة المؤمنة ، التى تراعى الدقة والحق فى الأحكام ، فلم تعتمد على معرفتها الشخصية لإبان ، ولم تستجب لثقتها منه ، وإنما رجعت فى تلك القضية إلى حكم الله ، ذلك لأنها كانت عالمة بحكم الله .

وإذا اجتمع العلم والإيمان فى قلب إنسان — ذكراً كان أم أنثى — أكسباه مناعة خلقية تسمو به عن العواطف والحظوظ الصغيرة للنفس البشرية ، والتفكير المحدود المنغلق المحصور فى ذات مشبعة بالأنانية .

٥ — كان أبو عامر التصرارى رجل علم وعبادة ، وكانت زوجه أمة الواحد[1] امرأة مؤمنة صالحة ، يجمعها إلى زوجها حب وعطف وحنان ، ويقارب بينهما اشتراك فى الميول والعواطف والأعمال ، وجاءت عجوز من « تندميرة » إلى « تَصَرَّار » تشكو إلى أبى عامر بنتها الشابة ، قالت العجوز : لقد توفى زوجى منذ أمد طويل ، وترك لى بنتا صغيرة سميناها « توزين » وحبست نفسى على هذه البنت فعلمتها وربيتها أحسن تربية ، ولما بلغت سن الزواج تهافت عليها الشباب الأكفاء يطلبون يدها ، ولكنها رفضتهم جميعا دون سبب ، وكلما راجعتها فى ذلك أجابتنى بأنها لا تريد الزواج ، لأنها تخشى حقوق الزوج وتخاف مسئولية

---

(١) راجع السير : ص ٢١٨

الأسرة ، وهذا الزمن يتقدم بى ، وإنى لأخشى أن أتركها فى يوم من الأيام دون رعاية أحد .

استمع الشيخ إلى شكاية العجوز وعطف على قضيتها ووعدها بأن يزورها مع جمع من المشائخ لعلهم يستطيعون اقناع البنت بما ترجوه أمها .

واجتمع الشيخ بعدد من العلماء وذهبوا إلى « تندميرة » ، وقصدوا بيت العجوز ودعوا اليهم الصبية التى تمنعت عن الزواج ، ولم يزالوا بها حتى لانت واقتنعت ، ولـكنها اشترطت عليهم شرطا واحداً معقولا ، وهو أن تختار زوجها بنفسها .

فوافق المشائخ بالإجماع على هذا الشرط ، لأنه حقها الطبيعى الذى منحتها إياه الشريعة السمحة ، وكانوا ينتظرون أن تعلن إليهم اسم أحد أولئك الشباب الذين تقدموا لخطبتها ، ولـكن الفتاة أعلنت إليهم أنها اختارت أبا عامر القصرارى .

هذا الشيخ العالم الزاهد المسن .

إنها لا تفـكر بالشباب ولا بالقوة ولا بالمـال . واستجاب المشائخ لها ، كما استجابت لهم من قبل، ورجع أبو عامر إلى زوجه الحبيبة أمة الواحد بأسوأ خبر يمـكن أن ينقله زوج إلى زوجه ، ورجاها أن تستعد للقاء الزوجة الثانية ، فتلقت الخبر بصبر المؤمنة وأعدت فى منزل الشيخ مايعد للعروس فى أول الزفاف ، واستقبلتها استقبال أخت محبة ، ولما أوى الشيخ إلى الزوجة الثانية ذكرت أمة الواحد أن العروسين ينقصهما شىء سهت عنه عندما أعدت لهما الغرفة ، فناولتهما إياه من تحت الباب ورجعت إلى فراشها لتبيت فيه منفردة .

إن لهذه المرأة قلبا كما لسائر النساء ، ولها عاطفة قوية جياشة ، وهى تحب زوجها ، ولكن لها مع ذلك دين يعصمها من النزق و يوقفها دون أن تتعدى حدود شرع الله وحقوق الناس وعاشت الزوجتان تحت كنف أبى عامر يرعاهما بلطفه ، ويغمرهما بحبه ، و يساوى بينهما بعدله ، وذات يوم خرجت أمة الواحد إلى بعض البساتين تجمع حطبا ، وعندما همت بأخذ الحطب وسوس لها الشيطان فخطر لها أن الشيخ قد تغذى مع الزوجة الشابة وتركا لها لقمة باردة فى ناحية من البيت ، وعرفت أن هذا الخاطر من الشيطان فاستعاذت بالله ورمت حزمتها إلى الأرض ، ثم زادت فيها حطبا لترغم أنف الشيطان .

ورجعت إلى البيت ، ودخلت الدار ، فوجدت الزوجين قد تغديا وتركا لها نصيبها فى إناء . فرجع اليها الخاطر من جديد وأحست بالغيرة تدب فى نفسها ، واصفر لونها .

وكان أبو عامر ينظر إليها فى شوق وحنان ، فلما رأى وجهها متغيرا عرف حديث نفسها وقام اليها فامسك بطرف كمها وقال كمن يخاطب الشيطان : اخرج ياعدو الله من جسد طاهر ...

وكان لهذه الكلمات الأثر المطلوب على نفس المرأة المؤمنة .

فقد خرج الشيطان من جسدها الطاهر، وزالت الغيرة من نفسها . ورجعت إليها الثقة فى زوجها ، وعاشت الأسره المتكونة من امرأتين ورجل فى منزل يغمره الحب والتفاهم والتعاون .

ومع هذا الخلق السامى الذى تتحلى به أمة الواحد، لم تسلم من نقد الزميلات، فقد أعلنت شيئا مما تحرص النساء على اخفائه ، فبعثت إليها زينب اللالوتية تقول

لها فى استنكار وتأنيب : « لو أمكن لنا أن نستر قبورنا بين القبور لفعلنا » فتابت أمة الواحد . واستمعت إلى النصيحة التى وردت إليها من أخت مؤمنة تحب لها الخير وتحرص على سلامة دينها وسعادتها فى آخرتها .

لقد كانت المرأة المسلمة فى تلك العصور تقف إلى جانب الحق لا تتعداه . وما دام الشارع الحكيم يوجب عليها أمراً من الأمور فهى تسمع له وتطيع غير ناظرة إلى إساءات الناس أو احسانهم .

٦ – أبو عثمان المزاتى : عالم من كبار العلماء ، ومؤمن من أصدق المؤمنين ، كان يسكن قرية «دَجِّى» هذه القرية التى تجثم على صدر جبل شامخ إلى الشمال من « تنزغت » و «غفسوف» ، وكان لأبى عثمان بنتان أحسن تربيتهما وتعليمهما : الكبرى منهما تسمى « منزو » [1] . وكانت قبيلته تسكن إلى الجنوب عند بئرها المعروف اليوم « ببئر مزاته» فجاءه بعض أقربائه يخطب إليه منزو ولم يضن أبو عثمان بهذه الفتاة اللطيفة الأديبة الصالحة عن أجلاف البادية فاستجاب له ، وما تم العقد حتى نهض الرجل ومر بجانب البيت الذى فيه العروس ، وقد كثر فيه لفظ النساء فصاح بصوته الغليظ الجافى قائلا ، إن كانت منزو بينكن فلا آذن لها أن تبقى .

وقامت الفتاة المؤمنة الصالحة اللطيفة قبل أن تستكمل زينتها وسارت وراء هذا الزوج الجافى الغليظ الطبع ، وكان راكباً جملا . . .

وسارت الفتاة ، وطال بها المسير ، حتى حفيت قدماها ، وسالت منها

---

(١) راجع السير : ص ٢٠٦

الدماء ، ولـكنها مع ذلك لم تَـشْـكُ ولم تتبرم ، فإذا نزل زوجها فى مكان للمبيت أو المقيلْ ، بادرته فوسدت له رداءها ، ووطأت له مجلسه ، ثم عالجت له طعاماً، فإذا قامت له بجميع شؤونه وقدمت له ما يحتاجه رجعت إلى نفسها وأدت حقوق ربها ، ولم يزل هذا دأبه ودأبها حتى وصلا إلى وطنهما . فبنى لها بيتاً بعيدة على الناس ، فـكانت تشبه أن تـكون سجينة لا تزور ولا تزار . . .

إنها لا ترى أحداً من خلق الله غير هذه الطلعة الـكريهة الجافية ، وكانت مع ذلك تبالغ فى الإحسان و يبالغ فى الإساءة،وذكرها المشائخ بعد طول غياب ، ذكرها العلامة أبو زكرياء يحيى بن يونس السدراتى ، فدعا أباها وجماعة من المشائخ إلى زيارتها .

وسار المشائخ يقطعون ألوية الرمال ليزوروا أختا فى الله . . . وشاءت المصادفة أن يصلوا إليها وهى تصلح بيتها من الخارج متفضلة(١) . فـكانت أول كلمة وجهها إليها أبو زكرياء هذه التحية : « إنى لأختار أن أجد جنازتك خارجة ، ولا أراك خارج بيتك متفضلة » ، واستتابها فسارعت إلى التوبة والاستغفار ولم تعتذر بأنها منفردة ، وأنه لا يوجد فى المنطقة غريب ، وأنها تمر عليها الشهور ذوات العدد لا تسمع حساً ولا ترى شخصاً؛ لم تقل شيئاً عن ذلك ولم تشك ولم تتبرم . لقد كُـتب عليها أن تتزوج هذا الرجل وله عليها حقوق ، فعليها أن تصبر وأن تؤدى ما عليها من حق غير ناظرة إلى صاحبها أيستحق هذا التـكريم أم لا يستحقه ، ومكث القوم ثلاثاً ثم قفلوا راجعين .

ولقد أثرت حالة منزو هذه على أبى عثمان ، فـكان يحس لها من الألم شيئا كثيراً ، ولـكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لها . واستفادت بنته الصغيرة

---

(١) لابسة الثوب المبتذل للمنزل .

« تـكفا » من نفسية أبيها بعد قصة منزو ، فـكانت تلقى منه من العطف والتدليل فوق ما كانت تجده قبل ذلك ، حتى كانت تفضى إليه بأسرارها العاطفية وتحادثه عن زينتها ، وما تخشاه من فسادها وهى تزف إلى زوجها الحبيب فى ليلة العرس . . .

فـكان يرفق بها ويساعدها ويستمع إليها فى حنو بالغ . . .

إن الذى يقرأ الحوادث السابقة قد يحسب أن مجهود المرأة الإباضية فى ليبيا قد يقف بها عند الصبر والاحتمال ، والخضوع المطلق للزوج ، أو الأب ، أو الولى ، وهو حسبان ليس له ظل من الصواب ، فإن المرأة فى تلك العصور ، رغم أنها لم تزل حجابها ، ولم تمتهن نفسها ، ولم تستعرض مفاتنها على العيون ، ولم تنحدر بكرامتها إلى سوق المساومة ، إنها رغم ذلك كانت تشترك اشتراكا فعلياً فى أحداث الحياة ، وكثيراً ما وجهت سياسة الأمة من جهة إلى جهة ، ولم ينقص كفاحها عن كفاح الرجال فى جميع الميادين .

٧ — كانت أم يحيي[1] العالمة الفاضلة ، والمربية القديرة ، تسكن مدينة « أمْـسِـيِينْ » بين « جِيطال » و « تمِـجَـارَ » . وكانت ترى أن الفتاة لاتتم دراستها فى المدارس التى يدرس بها الطلبة الذكور ، ورأت أنها لو فتحت مدرسة خاصة بالفتاة لأتاحت للمرأة المسلمة فرصة الدراسة إلى آخر المراحل التعليمية ، وما اقتنعت بهذه الفـكرة حتى شرعت فى تنفيذها،وتأسست المدرسة الخاصة بالبنات ، وفتح بها شبه ما يسمى اليوم بالأقسام الداخلية ، فـكانت الفتيات يقبلن عليها للتعليم ، وكانت البعيدات منهن يقمن فى المدرسة ، وهى تقدم لهن الأكل وتشرف على تربيتهن،ولم تـكتف بهذا ، فقد كانت توجه الفتيات

---

(١) هى زوجة أبى ميمون،وقد سبقت الإشارة إليها فى هذا الفصل رقم (١) .

حسب استعدادهن وميولهن ، فكانت تربى الجميع تربية إسلامية صالحة ، وتوجههن فى الحياة ، فمنهن من تفتح لها أبواب العمل ، ومنهن من تسهل لها طريق تكوين أسرة ، ومنهن من تحرص أن تستمر فى دراستها حتى تصل إلى درجة النبوغ . . .

ولست أدرى والله ما الذى صنعه علم النفس الحديث فوق ما صنعت هذه المرأة ، ولا المآثر التى بلغتها المرأة اليوم فوق ما فعلته امرأة الأمس دون أن تعلن عنها الجرائد وتتحدث عنها الإذاعات وتصفق لها الأكف . . .

إنها كانت تعمل ساكتة صامتة وإن كانت نتائج عملها تظهر باهرة فى أمثال شاكرة الزعرارية وأم زعرور وأضرابهما . . .

ومن المؤسف أن تقف فتاة اليوم تلعن ماضيها المشرق لأنها تنظر إليه بعين مغمضة ، وتناقشه برأى مستورد ، وتاريخ مزور ، ولو أنها ألقت عن نفسها هذا التبجح ، وتنازلت عن قليل من الغرور المصطنع والتمست طريقها القويم بين الحقائق التى خلفتها لها جدتها ، لوجدت فى ذلك من الشرف والنبل والكفاح مالم تبلغه هى فى هذا العصر مع الأسباب الميسرة والوسائل المتاحة . . .

٨ — كانت أم ماطوس[1] فتاة ذكية جريئة يسكن أهلها فى المدينة المنبسطة فوق جبل « جَارْ إصْرَا » شرقى كباو ، ودرست على علماء بلدها حتى لم تجد عندهم جديداً ، فرغبت فى الالتحاق بمدرسة أبى محمد خصيب ابن ابراهيم التمصمصى جنوب طمزين ، وليس بالمدرسة قسم داخلى للبنات

(١) راجع السير : ص ٣١٧ .

وبين المدرستين مسافة طويلة لا تقل عن أربعة أميال، وكان طبيعياً أن تجد معارضة من أهلها لا سيما من أخيها الغيور، فهل يسمح لفتاة فى عمر الزهور أن تقطع هذه المسافة الطويلة بين البلدين منفردة فى كل يوم، ولكنها صممت على بلوغ الغاية، وتحدت الأهل والأقارب . . .

فكانت تأخذ أدوات الدراسة وتتسلح بمزراقها ثم تذهب إلى المدرسة فتحضر مجالس أبى محمد، وتستمع إلى دروسه، وتشترك فى المناقشات، وترجع إلى قريتها فتجد الناس قد آووا إلى مضاجعهم واستغرقوا فى النوم العميق، فتشتغل فى دروس الغد، وتحضر ما لديها من واجبات حتى إذا اطمأنت إلى أنها قامت بواجبها أحسن قيام أوت إلى فراشها، فأراحت ذلك الجسم المكدود، ولم تزل كذلك حتى بلغت الغاية، وأصبحت من الأعلام التى لا يستغنى عن حضورها فى مجلس من المجالس العلمية. وكتب لها أن تزوجت فى « مَـرْساوَنْ » قرب تِميجارْ فكان المشائخ لا يعقدون مجلساً إلا بحضورها، فتحضر المناقشات، وتستمع إلى آراء الأعلام وتنتقدها، وقد تسببت لها هذه الشهرة فى مشاق وأتعاب . . . وكثيراً ما تكبدت أهوال السفر وهى حامل لتحضر المجامع التى تعقد فى جناون أو تندوزيغ أو غيرها من الأماكن التى يختارها المشائخ للاجتماع .

أذكر أننى التقيت فى الجامعة الأمريكية فى بيروت بسيدة كانت فخورة جداً، لأنها كانت حسبما تقول أول فتاة عربية دخلت الجامعة، وكانت تعيد ذلك فى كل مجمع ولكل مناسبة، فكنت أقول فى نفسى : هذه فتاة ربيت فى بيت مسيحى، وهى تعيش منذ خلقت سافرة، ولا تجد أى عنت فى مجالسة الرجال فى البيت والمقهى، ولا بد أن يكون أتيح لها — قبل دخول الجامعة —

أن تراقص عدداً من الشبان على الطريقة الغربية على الأقل فى أعياد الميلاد ، ميلادها أو ميلاد المسيح ،هذا إذا كانت أسرتها محافظة ،ثم هى تعيش فى بيروت وفى القرن العشرين ، ومع ذلك تحسب أنها كسبت مجداً ، لأنها دخلت مدرسة للذكور منفردة .

ضع إلى هذه الصورة — الصورة الأخرى — صورة هذه الفتاة المسلمة التى تعيش بين أفراد أسرة مسلمة ، محتفظة بالحجاب ، لا تسمح لنفسها أو يسمح لها الناس أن تخالط الرجال غير المحارم ، هذه الفتاة المسلمة بخلقها ودينها وحجابها استطاعت أن تقهر كل الظروف ، فتحقق لنفسها أمنيتها الغالية وهى الالتحاق بجامعة أبى محمد خصيب ، وتدرس فى هذه الجامعة رغم معارضة الأهل وتشددهم فى هذه المعارضة ، ورغم المسافة الطويلة التى لا تقل بحال عن أربعة أميال . ما مقدار بطولة فتاة العصر إلى أم ماطوس التى كانت تعيش فى القرن الثالث الهجرى ؟ أضف إلى ذلك أن تلك الفتاة كافحت ذلك الكفاح العظيم من أجل العلم فقط ، ولم يكن فى حسابها شىء مما يزدحم به رأس الفتاة فى هذا العصر ، إنها لم تكن تدرس لتحصل على شهادة ، ولا على زوج ، ولا على عمل ، ولا لتتيح لنفسها المتعة واللهو .

اذكرى تاريخك يا فتاة اليوم ، وانظرى إلى أعمال جدتك فى الماضى ، فستجدين فيه من العظمة ما يحق لك أن تفخرى به دون أن يمس شرفك أو تمتهن كرامتك ، وليس صحيحاً ما يلقيه فى روعك دعاة الانحلال والتفسخ بأن ماضيك كان مظلماً ومظلوماً فمنذ تشرفت خديجة بنت خويلد بالإسلام تغير حال المرأة ، ووضعها فى التاريخ والمجتمع ، وقد أكرمها الإسلام أمًّا وزوجة وبنتاً وأختاً .

وأهانها بغياً وداعراً ، وليس هذا الحكم قاصراً على المرأة ، ولكنه حكم منطبق على الرجل أيضاً ، وكما تسلح الرجل بالإيمان والعلم ، كذلك تسلحت المرأة بالإيمان والعلم ، وما بلغنا من دين الله عن الرجال ليس أكثر كثيراً مما بلغنا عن النساء ، ولم ينقص من علم عائشة أبداً أنها لم تكن سافرة ، ومع الحجاب الشديد الذى كان يلفها فقد كانت من أعلم الناس ، وعنها أخذنا نصف ديننا . . .

وهذه الفتاة أم ماطوس التى تلتفع بثوبها ثم تجاس بجانب المجلس تستمع إلى الشيخ وتسائله وتستجيب لنقاش الطلبة وترد عليهم ،لم يمنعها ذلك الحجاب أن تتفوق على أكثر زملائها ، ولم يدعها علمها إلى أن تلقى عنها ثوب الحياء وترمى بفتنتها بين الناس .

وليست أم ماطوس هى الفتاة الوحيدة التى انتهجت هذا المنهج العلمى وبلغت ما أرادت ، وإنما سُقت قصتها لما فيها من عنت السير وبعد المسافة ، وإلا فالعلم كان متاحاً للجميع فى ذلك العصر . . .

٩ — كان أبو حفص عمروس المساكنى من فطاحل العلماء ، وكانت أخته(١) الفجيية الذكية ترافقه فى دراسته ، وتستمع إليه ، وتأخذ عنه ، حتى بلغت مبلغاً قل أن تصل إليه فتاة . وعندما كان يقوم بالدراسة أو بالتأليف كانت تقدم إليه من المساعدة ما هو فى حاجة إليه . فتجمع له مادة التأليف ، وتلخص له مواضيع البحث ، وتعد له مناهج الدراسة ، وتساعده فى الكتابة ، فتملى عليه ، أو تتلقى عنه الإملاء فتكتب ، وهكذا وجد منها « سكرتيرة » ذكية بارعة .

---

(١) راجع السير: ص ٢٢٨ .

وعند ما ذهب إلى الحرب فى وقعة مانو رافقته ، وقتل أخوها ، وقتل أكثر الجيش، وأخذت أسيرة مع بعض زميلاتها نخافت الفساد ، فقالت لزميلاتها : أما وقد وقعنا أسيرات ولا قدرة لنا على الخلاص من أيدى هؤلاء الوحوش فلتستخلف كل واحدة منكن من يزوجها بمن يريد بها سوءاً .

وهكذا حتى فى أسوأ الأحوال ينجدها العلم والدين . . .

هذا نموذج يمثل جانباً من جوانب الفتاة فى ذلك الحين ، وفى تاريخ هذه الفتاة نماذج أخرى، لها من الروعة ما يبعث على الإعجاب . . .

١٠ — كان أبو مسور يَصْلِـتَـين يسكن «أدُونَـاطْ» هذه القرية التى تقع بين «تميجار» و«حيطال» فى منتصف الجبل ، متجهة إلى الغرب ، وكان كما قال فيه أبو الربيع : عظيم القدر فى الإسلام ، علماً وعملا وورعاً ، وكان الإمام فى تاهرت يعتبره من المراجع العلمية الحية .

نشأت فى كنفه ورعايته بنته(١) الذكية النجيبة ، ودرست عنه وعن غيره من العلماء ما أبلغها رتبة سامقة من العلم ، وكانت بارعة فى النقاش ، قوية الحجة، حاضرة البرهان . . .

جاءت إلى أبيها يوماً تسأله عن مسائل الحيض وتصف له بعض ما أصابها ، فقال لها العالم الكبير : ألا تستحين ؟ فقالت : أخشى إن استحييت منك اليوم أن يمقتنى الله يوم القيامة ! . فألزمت الشيخ الحجة ، ولم يجد لها رداً ، وأجابها عن أسئلتها .

---

(١) راجع السير : ص ٢٣١

وتحدث جمع من المشائخ وكانت حاضرة تستمع إلى نقاشهم ، فقال أبوها : المسلمون أفضل من أقوالهم ، فقالت هى : بل أقوالهم أفضل ، فإن المسلمين يذهبون ، ولكن أقوالهم تبقى إلا أن تريد فضل الأجسام على الأعراض وإلا فليس هناك شيء أفضل من العلم .

وهكذا استطاعت أن تأخذ زمام المجلس وهى فى سن المراهقة .

وجلست ذات يوم إلى أبيها بعد أن فرغت من غسل ثيابها ونشرها تتحدث إليه حديث الطفلة المحبوبة إلى والد حنون ، ونظر الأب إلى الثياب النظيفة البيضاء ، فقال : تمنيت أن الله يطهر قلبي مثل هذه الثياب ، فقالت : أتمنى لو جعل الله تطهير قلبي إلى يدى فأغسله مثل هذه الثياب وأبعثه إلى خالقه نظيفاً ، فقال الشيخ معجباً بينته الذكية : إنك أبلغ منى حتى فى الأمانى ...

وتدللت عليه يوماً فغاظته ، فقال لها : لأزوجنك بمن له عليك سبعون حقاً . . . ولم تفر هاربة ، كما قد تفعل بنات اليوم ، ولكنها أجابته فى ظرف وكياسة : إذن أردهن إلى ثلاث : إن دعا أجبت ، وإن أمر امتثلت ، وإن نهى اجتنبت . . .

هذا نموذج من فتاة الأمس المتحجبة ، فهل منعها الحجاب أن تصاول فطاحل العلماء وتقارعهم بالحجة ، وتفحمهم بالبرهان ، وتتغلب عليهم بالأدب والبر والكياسة .

لقد استعرضت عدداً من النماذج عن حياة الفتاة . . . فما هى حياة المرأة الكبيرة ؟ وما أثرها فى المجتمع ؟ وما هو سلوكها فى البيت والأسرة ؟ . .

١١ — كان أبو يحيى الأزدالى رحمه الله من العلماء العاملين لم يتزوج حتى تقدم

به العمر ، ودخل ذات يوم إلى بستان من بساتينه يجمع العنب ، فمر به رجل نصرانى يسكن البلدة ، فدعاه ليأكل العنب ، وسر النصرانى بالدعوة فجاء معه بأهله ، وكان له بنات ينبىء مظهرهن عن الجمال والأدب وكمال العقل ، فأعجب بهن أبو يحيى، وحدثه فى شأنهن ، فقال له النصرانى : إن جاز فى دينكم زوجتك إحداهن ، واختار أبو يحيى أم الخطاب(١) ، وكانت أجملهن وجهاً وأكملهن عقلا .

فلما أوى إليها فى الليل حدثها عن الإسلام ، وشرح لها قواعده وأصوله ، ثم خيرها بين الإسلام والرجوع إلى أهلها ، وكانت قد أعجبت بالرجل وبخلقه ودينه ، وفهمت من الإسلام ما لم تعرفه من قبل ، وتذكرت أنها حتى لو بقيت مسيحية فإن المسيحية لا يجوز لها أن تفارق زوجها .

وهكذا شرح الله صدرها للاسلام ، وجاءت أمها تزورها فى الصباح فوجدتها مسلمة ، فقالت لها : كنت أرغب أن لا تتركى دينك أبداً ، أما وقد فعلت فكونى من خيار أهل دينك الجديد . . .

وبدأت هذه المرأة التى أسلمت حديثاً فى حفظ كتاب الله ، فلم يمض عليها زمن طويل حتى عرضت على زوجها سورة البقرة وآل عمران فى حفظ جيد ، أعجب به أبو يحيى ، وجدت فى دراسة الإسلام ومعرفة أسراره حتى أصبحت مرجعاً من مراجعه ، ومقصداً للعلماء الأعلام ، يزورها أمثال أبى مهاصر وأبى زكرياء وأبى ميمون .

وقد كانت تروض نفسها على أنواع من العبادة لا يقوى عليها إلا أصحاب

---

(١) راجع السير : ص٢٤٧ ، ص ٢٥٦

العزائم من المؤمنين الصادقين ... ومعبدها فى تغرمين من أشهر المعابد فى التاريخ ولعل للاسم الذى اختارته له دلالة على اتجاهها فى عبادة الله ، فقد سمت ذلك المعبد «اغرم إيمان» ، ومعنى هذه الكلمة البربرية ، كما فسرها العلامة الشماخى: قصر النفس فى مجلس الذكر .

وقد يناسب هذا المقام أن ننقل قصة أخرى تمثل كفاح المرأة من أجل العلم والحق ، وتعطى صورة واضحة لما تكون عليه المسلمة حين تكون طالبة ، وحين تكون زوجة .

١٢ — كان أبو محمد التغرمينى يعيش عيشة العلماء الزاهدين ، لا يحفل بالدنيا ولا بما فيها من متع ، فكان يقضى وقته بين مذاكرة العلماء وعبادة الله وزيارة الإخوان والقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحل المشاكل التى تنجم بين الناس ، فكان لا يجد فراغاً من الوقت لغير هذه الأعمال . . .

زار ذات يوم أم يحيى فى أمسين وحدثها عن نفسه وعن عمله ، فلم ترض له حياة العزوبة الطويلة ، وذكرته أن الإسلام لا يدعو إلى الرهبنة ، واقتنع برأى الناصحة الأمينة واستشارها فى أمره .

قالت المربية الكبيرة للشيخ : بين طالباتى فتاة(١) نشأت فى جيطال بين أسرة فقيرة ، وفى سنة من سنوات القحط والجفاف ارتحل أهلها طلباً للمرعى والتحقت الفتاة بالمدرسة وأقامت بين الطالبات المقيمات التى تشرف المدرسة على جميع شئونهن من التعليم والتربية ، إلى النفقة والإقامة والكسوة . . . وهى إلى ذكائها وأدبها وجدها فى الدراسة وتفوقها على أكثر الزميلات ذات جمال

(١) راجع السير: ص ٢٤٩ .

فرغب من العالمة أن تتيح له التعرف على هذه الفتاة التى قد يقدر فتكون له زوجة .

ورحبت المربية العارفة بأحكام دين الله وما يعطيه من الحقوق للناس ، فدخلت وأمرت الطالبة أن تأتى لها بجرة ماء من صهريج بجانب المدرسة .

وذهبت الفتاة إلى الصهريج تحمل جرتين إحداهما لها ، والثانية لمدرستها ، فما شرعت فى الاستسقاء حتى وقف إلى جانبها رجل يرسل إليها تحية الإسلام ويطلب إليها أن تملأ له جرة كانت فى يده،فردت عليه السلام ولم تضطرب لهذا الطلب من رجل غريب ، واستمرت كأن شيئاً لم يحدث ، فملأت جرة استاذتها أولا ، ثم ملأت جرة نفسها ، ثم أخذت جرة الغريب .

وأعجب أبو محمد بهذا الخلق ، وهذه الرزانة ، وهذا الثبات وقال لها : هل لله مزرعة يا جارية ؟ فقالت نعم ! . . فقال : وهل له من يحرثها ؟ قالت نعم ، قال : وهل له من يحصد ذلك الحرث ؟ قالت نعم ! قال : وهل له مخازن ؟ قالت نعم ! ثم شرعت تشرح له جوابها فى فصاحة وبيان ، قالت:المزرعة الدنيا ، والحراثون الناس ، والحاصد الموت ، والمخازن الجنة والنار .

وعلم أبو محمد أنه عثر على درة نادرة المثال ، وأن أم يحيى لم تأله نصحاً ، وأن هذه الفتاة قد جمعت بين الجمال وكمال العقل ، والأدب والعلم والذكاء والثبات ، وهى صفات قلما تجتمع فى شخص واحد . . .

وذهب أبو محمد إلى عم الفتاة يخطبها ، ولكن أقارب الفتاة مانعوا فى أن تتزوج فتاتهم بعيداً عنهم فى تاغرمين ولهم فى بنى عمها فتيان أكفاء ، ولما رجعوا إليها أخبرتهم أنها لن تتزوج إلا من يرضى عنه عمها . وكان عمها

عرف ميولها إلى أبى محمد وإعجابها به فوقف إلى جانبها وأصر أن لا يفرضوا عليها زواج من يحبون هم ، ولكنها يجب أن تتزوج من تحب ، وانتصرت على تعنت الأهل والأقارب وتزوجت أبا محمد التغرميني ، وعاشت مع هذا الزوج الحبيب حياة مليئة بالسعادة والحب والفهم المشترك ، وكان من خلقهما أنهما ما نزلا عن فراشهما قط إلا وتحاللا ، حتى لا يبقى على أحدهما من حقوق الزوجية شيء ، إنه أدب سام تحلى به أولئك المؤمنون والمؤمنات الذين يعرفون قداسة الحقوق .

ظفر أبو محمد فيها بزوجة محبة ، وزميلة عالمة ، ومربية قديرة ، وسيدة بيت من الطراز الأول ، فوثق بها وألقى بين يديها كل مشاكل البيت والأسره ، فكان لا يعرف منها شيئاً .

ولما خطب أبو زكار إلى أبى محمد فتاته الحبيبة وطلب إليه أن يجهزها للعرس احتار فى أمره وصار يدخل ويخرج دون أن يعرف ما يصنع ، وتولت الزوجة الحازمة إعداد ما يلزم ، فكلما أحضرت شيئاً سألها : أهذا لنا ؟ فتجيبه نعم ، فيدعو لها وتطمئن نفسه ، حتى أتمت تجهيز العروس وزفت إلى بيت الزوجية وهى راضية مستبشره .

ومع هذه الشخصية القوية التى كانت لأم زعرور زوجة أبى محمد ، ومع ثقته الكاملة فيها كانت لا تعمل شيئاً دون إذنه واستشارته . . .

زارتها المؤمنة الصالحة أم زيد فأفاضت عليها من علمها وخلقها ودينها ، ولما أرادت الرجوع طلبت إليها أن تشيعها وأن تفيدها مقابل ذلك ثلاث فوائد ، وقبل أن تستجيب أم زعرور لمطلب ضيفتها ، ذهبت تستأذن زوجها ، وأذن الزوج بل حضها على ذلك فقال لها : شيعيها ولو مت فى الطريق ودفنت فى « أديرن » وأديرن موضع فى طريق أم زيد وفيه مصلى لأبى محمد .

ولما كانت بالطريق قالت أم زيد لأم زعرور : من شيع أخاه فى الله كتبت له بكل خطوة حسنة ، ومحيت عنه سيئة ، ولا ينبغى للمسلم أن يبقى بغير صديق يفشى له سره ويشركه فى همومه ، فإن لم يجده الرجل فى الرجال اتخذه فى النساء ، والمرأة بالعكس ، وإذا اتفق رجلان على نكاح فتاة ثم رجع الخاطب أو المخطوب إليه من غير سبب بعد مافشا أمرهما ، فلا يلقى خيراً ، ولا يجد بركة . . .

هذه امرأة لم يعقها الفقر عن الدراسة، ولم يعقها استبداد الأهل عن الحصول على الحق الذى خوله لها الدين وهو اختيار الزوج الكفء المثالى . وهذا لعمرى كفاح لو قامت ببعضه إحدى بنات اليوم لملأت الصحافة والإذاعة تبجحا ودعوى . ولكن المرأة فى ذلك الحين كانت تعمل كما يعمل الرجل ، يستهدفان الحق ، ويعملان للمصلحة ، ويقومان بالواجب المقدس نحو النفس أو نحو الأمة . . .

ولعل فى القصة الآتية دليلا على إخلاص المرأة لرسالتها المقدسة ، رسالة خدمة المجتمع الإسلامى بنشر العلم والثقافة والخلق القويم . . .

١٣ — كانت أم الربيع[1] الوريورية عالمة فاضلة وكان الله قد أنعم عليها بثروة طائلة ، ومال وفير ، وكانت إلى هذا المال وهذا العلم طيبة القلب ، سخية الكف ، حية الضمير . تشكر نعمة الله بالإنفاق منها ، وتصلح المجتمع بإنشاء المشاريع النافعة ، وكان المشائخ يستطيبون الإقامة عندها والاجتماع لديها . للمشاورات والمناقشات العلمية والدراسات الاجتماعية ، وقد يطيلون الإقامة فكانت تنفق عليهم فى مدرستها العامرة التى يتولى الإشراف عليها أبو محمد بن سنتين ويقوم

---

(١) راجع السير: ص ٣١٠ .

بالتدريس والإرشاد فيها وينقطع إلى عبادة الله مع الأخيار بين عرصاتها وسواريها ، وكثيراً ما لجأوا إليها للنصيحة ، فأنارت أمامهم السبيل وأرتهم طريق الهدى والخير .

والمتحدث عن المرأة الإباضية فى ليبيا لا يستطيع أن يمضى دون أن يذكر تلك العجائز التى يطلق على كل واحدة منهن جدة المشائخ ، ولعله من الخير أن أذكر فى أواخر هذا الفصل الذى عقدته للحديث عن المرأة بعض تلك العجائز ...

١٤ — « نَانَّا مَارَنْ »(١) — نانا كلمة بربرية معناها الجدة، ومارن هو العَلَم الذى أطلق على هذه العجوز التى نريد أن نشير إلى حادثة تاريخية كان لها فيها الموقف الحازم الذى يحق للمرأة أن تفتخر به .

عاشت نَانَّا مَارَن فى قرية الجمارى، هذه القرية الجميلة التى تقع على الضفة الغربية لوادى الزرقاء الجميل ، إلى الجنوب من ندباس بمسافة قصيرة . ودرست على العلماء الأعلام هناك، وبلغت مرتبة قل أن تبلغها امرأة، واشتهرت بين الناس بالعلم والصلاح والرأى السديد . ولا يزال مسجدها إلى اليوم مشرفا فوق ربوة عالية يصارع الزمن ويطاول التاريخ .

وفى مدينة جَنَّاوَن التى لا تبعد عن الجمارى بمقدار خمسة أميال كان يعيش أبو عبيدة عبد الحميد الجناونى .

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن يعرف ليبيا ويعرف رجالها فقد بقى فيها سبع سنوات، وأراد أن يختار واليا على ليبيا فوقع اختياره على أبى عُبيدة الجناونى ، وعزز هذا الاختيار اتفاق المشائخ عليه .

---

(١) راجع السير : ص ٣١٠ .

ولكن أبا عبيدة رفض هذا المنصب الذى يُلقى عليه، وألح عليه الإمام وألح عليه المشائخ ولكن دون جدوى، وطالت المحاولة وشغلت فكر أبى عبيدة، وأخيراً وجد الحل . . قال للمشائخ الذين كانوا مجتمعين عنده يبذلون محاولة أخيرة لاقناعه إنه سيستشير، وغداً يسمعون الكلمة القاطعة. ونظر المشائخ بعضهم إلى بعض علهم يعرفون هذا الرجل الذى يركن أبو عبيدة إلى رأيه ويستمع إليه أكثر مما استمع إلى هؤلاء الأعلام وإلى رجاء الإمام . . .

وانفلت الشيخ بعد صلاة العصر يصعد جبلا شامخا إلى جهة الغرب حتى بلغ القمة، فظهرت له ربوة مرتفعة نتأ عليها مسجد يشرف على مناظر الزرقاء الساحرة، وقصد المسجد وكانت نانا مارن بجوار المحراب تناجى ربها، فسلم أبو عبيدة وجلس وأفضى إليها بذات نفسه، وحدثها عن مشكلته، واستمعت إليه كما تسمع الأم الحازمة إلى مطالب الولد المدلل، ثم قالت له: إن تقدمت وأنت تعلم أنه يوجد من هو أكفأ منك فأنت فى النار، وإن تأخرت وأنت تعلم أنه لايوجد من هوا كفأ منك فأنت فى النار! وفكر الرجل الكبير واستعرض الرجال واحداً واحداً ثم رفع إليها رأسه وقال فى احترام عظيم: أما فى الرجال فلا، ورجع إلى جناون واجتمع فى اليوم التالى بالمشائخ وأعلن إليهم قبوله لذلك المنصب فقال أحدهم: هيا بنا نزور وقاية هى خير من عمائمنا. وكان لهذا الموقف الحازم من الجدة أثر فى تاريخ بنيها لا يزال إلى اليوم يذكر بالفخر والاعتزاز، إن المرأة فى ذلك الحين كانت واعية، وكانت عارفة بمجرى الأحداث والتيارات السياسية المعارضة، وكانت تعمل على توجيه الأمة إلى الوجهة الصالحة دون أن تملأ المجالس بالثرثرة، وتشغل الأسماع بالخطب الرنانة، وتقارع الأحزاب على المنابر لتظهر براعتها فى الحذلقة لا فى نصر المبدأ . .

وجدير بى فى هذا الفصل أن أذكر أمثلة من وصايا العجائز لتكون عبرة وموعظة لهذه الأجيال .

١٥ — « نانـَّا تابرْ كانتْ السدْراتـِيـَّـة » أعظم امرأة عاشت فى تلك العصور الطافحة بالإيمان والعلم والخير ، وقد اشتهرت بين العلماء بشهرة لم يبلغ إليها أحد فى زمانها ، وإذا أطلق لفظ العجوز أو لفظ الجدة أو لفظ جده المشائخ فى كتب الفقه وكتب السيرة ، فالمعنى بذلك إنما « هى تابر كانت » العالمة الفاضلة الصالحة .

زارها جمع من العزابة فقالوا لها أوصنا يا عجوز ؟ . .

فقالت : وكيف أوصيكم وأنتم الرجال ، منكم الرسل والأنبياء ، ومنكم الأمراء والوزراء ، ومنكم المؤذنون والأئمة ، قالوا : لا بد من ذلك فإن الذكرى تنفع المؤمنين :

قالت : إياكم وكثرة الكلام لئلا تكذبوا ، وإياكم وكثرة الأيمان لئلا تحنثوا ، وإياكم وكثرة الإدلال لئلا تسرقوا ، وإياكم والتهمة لئلا تظلموا .

قالوا : زيدينا . . .

قالت : زيارتكم طلب حوائجكم ، ومصافحتكم مقارعة ، وأكلكم أكل النهما ، ومشيكم مش المرضى ، ونومكم نوم الموتى . . .

قالوا زيدينا ...

قالت : شر الصدور صدر لا رأفة فيه ، وشر الأقدام قدم لا تزور فى الله ، وشر البيوت بيت لا يدخله المسلمون ، وشر المال مال لا ينفق منه .

ثم ترجمت لهم إلى اللغة البربرية قول بعض الحكماء . نقِّ العمل فإن الناقد بصير ، جدد السفينة فإن البحر عميق ، كثر الزاد فإن السفر بعيد ، خفف الحمل فإن العقبة كؤود ،

---

(١) راجع السير : ص ٢٩٥ وادرس عنها فى « الملحقات » « واللقط » .

أعتقد أن هذه الأسطر كافية للدلالة على مركز هذه المرأة العظيمة، واتساع علمها ، ودراستها لمجتمعها ، ومعرفتها لأسرار الشريعة ، وأسرار النفوس .

وإنه لمن المناسب أن أنقل فى هذا المقام تلك الوصية الغالية التى بعثتها نفوسية إلى زميلة لها فى تاهرت فقالت لها :

لا يأكل خير ما فى بيتك غير زوجك ، ولا تكشفى عن رأسك فى بيت غيرك ولو كان صاحبه فى العراق ، ولا تجعلى مدراك فى أندر غيرك أرادت بذلك أن لا تبدأ فى إشاعة الأخبار قبل أن يتناقلها الناس .

وفى الوصية الأخيرة عبرة يجب أن تفكر فيها فتاة اليوم ، وذلك ما طبعت عليه المرأة من كثرة الحديث ونقل الشائعات من مكان إلى مكان .

هذه لقطات أخذتها حسب الصدفة من حياة المرأة الإباضية فى ليبيا ، ولم أقصد من التقاط هذه الصور إلى كتابة قصص ، أو استهواء القراء الكرام بجمال الخيال ، ليستطيع كل مشتغل بالقصة أن يجد مادة خصبة فى حياة المرأة وكفاحها الطويل فى سبيل الحق،ولو فعل لأمد المكتبة الإسلامية العامرة بثروة رائعة من قصص الواقع .

أما أنا فى هذا الكتاب فإننى أحاول أن أصور للقارىء الكريم حياة هذا القسم من الأمة العظيمة ، وأن أطلعه بقدر الامكان على سيرة أهل هذا المذهب الذين عاشوا فى هذا الجانب من الوطن الكريم ، وطبيعى أن حياة الأمة وتاريخها لا يتمثل فى مظهر دولة لا تحكم بكتاب الله، ولا يستمد من أعمال قواد جيوش يفرحون بما لديهم من قوة فلا يفرقون بين الحق والباطل ، ولا فى ترف عدد قليل من أصحاب الثروة والمال الذين لا يزنون القيم الانسانية إلا بالذهب .

ولكن تاريخ الأمة يتمثل فى سلوك الفرد العادى ، فى عمل المدرس والفلاح والعامل والتاجر أولئك الذين يَقدمون على أعمالهم بوحى من ضمائرهم، و بضرورة مصالحهم ومصالح أسرهم ومصالح أمتهم — لا فى أعمال أولئك الذين تأتى إليهم الأوامر فينفذونها كأنهم آلات صماء .

إن تاريخ الأمة يتمثل فى الكلمة الحرة ، والفكرة الحرة ، والحركة الحرة فى البيئة الحرة ؛ لم يقلها صاحبها وآلات التسجيل تنتظر ما يقول ، ولم يعملها وآلات التصوير تواجهه من كل ناحية ، ولم ينمقها ليكسب بها مزيداً من الأصوات ، ولم يزينها لتعرض فى المعارض أو فى المتاحف .

وارجع معى أيها القارىء الكريم إلى بعض الفصول السابقة فستجد صوراً دون رتوش تمثل لك حقيقة الحياة ، وحقيقة التاريخ فى بساطته وواقعيته

هذه فتاة متعلمة تناقش أباها فى دلال و براعة، وهذه بنت فى أوائل البلوغ تزف إلى بيت الزوجية فى فصل شتوى ممطر فتخشى على زينتها ، وتشكو حالها إلى أبيها المحب و ترجوه مساعدتها ، وهذه امرأة كتب عليها القدر أن تتزوج من أحد أجلاف البادية ، فتتبعه حافية القدمين ، وتصبر على فظاظة الزوج الخشن ، وقساوة الصحراء — رغم رقتها ولطفها وثقافتها ، وهذه امرأة مؤمنة ترى رجلا يتقدم إلى الصلاة بالناس وفيهم من هو أولى منه، فيرتفع صوتها من ركن النساء تنهاه عن التقدم ، كما كان يرتفع صوت أم المؤمنين آمرة بمعروف أو ناهية عن منكر ، وهذه عجوز قد درست العلم واختبرت الحياة ، وعرفت حلو الزمان ومره ، تلقى بالنصائح الغالية إلى أبنائها ، وهذا عالم من العلماء يدعو إليه جماعة من زملائه ، و ينتقل من بلد إلى بلد ليحل مشكل فتاة أعرضت عن الزواج ، وهذا خلاف ينشب بين أخ غيور وأخت تحب أن تستكمل دراستها ، وهذه

امرأة تهمها قضية المرأة فى ذلك التاريخ ، فتنشىء مدرسة خاصة بالبنات ، وتنشىء فيها قسما لسكنى الغريبات منهن ، وهذا جمع من أعلام الفكر يعقدون مجلساً لشأن من شؤون الدولة ، فلا يوفقون حتى تعرض قضيتهم على امرأة فتجد لهم الحل . . إلى آلاف من الصور التى تمثل الحياة الطبيعة بما فيها من واقعية . . .

لقد حاولت أن أضع بين يديك صوراً من التاريخ الحقيق ، كما تجرى به الحياة ، بعيداً عن ضوضاء السلطان ، وطغيان المال ، وبما أن الأمة تتكون من العنصرين الأساسيين : الرجل ، والمرأة فقد حاولت أن أجلو لك صوراً من حياة كل منهما . ولست أدرى هل استطعت أن أقدم إليك المادة الحقيقية لحياة المرأة الإباضية فى ليبيا — حياتها وهى تقوم برسالة الأمومة كأحسن ما تقوم بها أم ، وتعمل بدين الله كأحسن ما تعمل مؤمنة ، وتطلب العلم كأحسن ما يطلب العلم ، وتثبت حقها الطبيعى فى اختيار الزوج بإصرار ، وتشترك فى مجالس العلم وندوات الاجتماع بأوفر نصيب ، وتقوم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما تقوم مسلمة غيورة على دين الله : أم أن قلمى الضعيف ترنح قبل أن يتم هذه الصورة التى أردت أن أضعها بين عينيك .

# مقارنات

فى هذا الفصل أريد أن أضع بين يديك أيها القارىء الكريم أحداثا تاريخية وقعت فى عصور مختلفة من تاريخ الإباضية فى ليبيا — وكانت حين وقوعها أموراً طبيعية لا تثير الاهتمام ولا تبعث على الأعجاب ...

فلما وقعت أشباهها فى هذه العصور، اعتبرت بعض تلك المواقف بطولات، واعتبرت تلك الأحداث أوائل تاريخية تكسب المجد العظيم .

## ١ — الاكتفاء الذاتى :

اعتبر غاندى من أبطال التاريخ فى كفاحه السلبى للاستعمار الانجليزى . وذلك لأنه اقتصر فى غذائه على نتاج الهند، ودعا مواطنيه إلى الاقتداء به، حتى لا يجد المستعمرون فى الهند سوقا رائجة يشحنون اليها بضائعهم، ويتخذون ذلك ذريعة للسيطرة عليه، وهو موقف عظيم قدره له التاريخ، ولكن التاريخ حين يشيد ببطولة غاندى ينسى بطلا آخر سبق غاندى إلى هذه الفكرة بعشرة قرون . لقد كان العلامة الكبير أبو الليث الجناونى يقتصر فى غذائه على حليب بقرة يرعاها أو ترعاها زوجه فى أراضى جناون الخصبة، وكان يقتصر فى كسائه على ما تنتجه أيدى الجناونيات من أنسجة الصوف المتينة، وكان يدعو إلى الاقتصار على الإنتاج المحلى، حتى لا تتسرب البضائع المستترابة إلى البلاد، وحتى لا يجد الظالمون وسيلة لدخولها، وكان هذا الرجل فى مقام من التعظيم والاحترام لم يصل اليه أحد، فإذا تكلم أنصت العلماء، وطأطأ الحكام رءوسهم، إنه لا يقل عن غاندى فى عظمة التفكير، ويزيد عليه بكرامة الإسلام، وكل ما ينقصه انما هو وسائل النشر والدعاية والاتصال .

٢ — الثورة البيضاء[1] :

ثار الضباط الأحرار فى مصر ، وخلعوا الملك فاروق من العرش ، وطوحوا به إلى المنفى ، وحرروا الشعب المصرى من ظلم طويل ،وهذا عمل عظيم،والتاريخ اليوم يشيد بهذه البطولة التى تقلب نظام الحكم ، وتعزل ملكا دون أن تريق قطرة دم ، ولكن التاريخ الذى يشيد اليوم بهذا العمل المجيد يمر مرًّا سريعًا بحادث مشابه يقع فى ليبيا منذ اثنى عشر قرنا .

كان يحكم ليبيا تحت ظل الخلافة العباسية حكام لا يقلون عن فاروق ظلما واستبدادا وبعدا عن أحكام الإسلام فى ذلك العهد القريب من مطلع الإسلام، وكانت الأمة تتألم فى صمت تحت ذلك الحكم المستبد .

وتداعى جمع من المؤمنين الأحرار وقرروا الإطاحة بالظالمين ، فاحتلوا المدينة — طرابلس — واستولوا على مركز الحكم ، دون أن يريقوا قطرة واحدة من الدم ، ثم دعوا اليهم الحاكم العباسى وخيروه بين البقاء بينهم فردا عاديا من أفراد الأمة أو الخروج من ليبيا آمنا موفورا ، وكل ما هنالك من فرق بين الثورة البيضاء التى قام بها مؤمنون أحرار فى مطلع الثورة البيضاء التى قام بها ضباط أحرار فى هذا العصر ، أن الأولى قامت بتدبير نفر عاديين كل ما لهم من قوة إنما هو محبة الأمة وتأييدها ، وأن الثانية حين قامت كانت تعتمد على سلطة الجيش وقوته ، التى أسكتت المعارضة قبل استعمال السلاح .

٣ — من قضايا المرأة :

تحتل قضية المرأة فى العصر الحاضر مكانا مرموقا من تفكير الإنسان ، وقد

---

(١) قام بهذه الثورة حملة العلم إلى المغرب وبايعوا أبا الخطاب بالإمامة .

دأبت الصحافة والإذاعة على تمجيد نفر من الفتيات استطعن أن يثبتن قوة شخصيتهن وصلابة إرادتهن حين التحقن ببعض الجامعات لاتمام دراستهن رغم معارضة أهلهن، وانتقاد البيئة لمسلكهن، وكم صدرت صحف تشيد بفلانة أوفلانة التى حطمت التقاليد ، وكانت أول فتاة دخلت كلية كذا أو جامعة كذا. والتاريخ حين يشغل نفسه بهذه الأحداث فى العصر الحاضر، يمر مرا سريعا على أحداث أخرى قبل عشرة قرون، حطمت فيها الفتاة الليبية قيود التقاليد ، واشتركت فى الدراسة إلى جنب زميلها ، تشاركه فى المناقشة وقد تفوقه ذكاء ، وجدا ، ومثابرة. فى مدينة منبسطة على جبل «جار إصرا» كانت تسكن الفتاة الذكية عافية التى سميت فيما بعد «أم ماطوس» ، درست هذه الفتاة فى مدارس مدينتها وعن مشائخها حتى لم تعد تجد عندهم ماتستفيده ؛ فرغبت أن تلتحق بالمدرسة الكبرى التى يديرها المربى الكبير العلامة أبو محمد بن ابراهيم فى تمصمص .

والمسافة بين المدينتين بعيدة لا تقل عن أربعة أميال ، وفى المدرسة قسم داخلى ولكن للذكور فقط . فماذا تعمل هذه الفتاة لتلتحق بذلك المعهد فتتم دراستها وتبلغ غايتها ؟

عرضت أمرها على أهلها فعارضوها ، ولما الحت فى الطلب ثار ثائرهم ، وقرروا أن يمنعوها حتى بالقوة ، وكيف يسمحون لفتاة فى عمر الزهور أن تقطع يوميا مسافة لا تقل عن أربعة أميال منفردة ، وكان أصلب الجميع فى الموضوع أخوها الغيور، وتطوع أن يحبسها وأن يقوم بوظيفة السجان ، ولكن جميع هذه الوسائل العنيفة لم تستطع أن تصد الفتاة عما رغبت فيه ، والتحقت بالمدرسة ، ودرست فيها حتى تخرجت منها، وكانت فيما بعد مرجعا من مراجع العلم والفتوى، وقل أن يعقد مجلس علمى لا تدعى اليه .

وكان رأيها دائما في مقدمة الآراء ، وكثيرا ما اضطرت إلى قطع مسافات طويلة لحضور اجتماعات وهى حامل أو مرضع .

ليست أم ماطوس الفتاة الوحيدة التي درست فبلغت هذه المرتبة السامقة من العلم . . . إن الفتيات اللاتى بلغن مثل هذا المكان المرموق لا يبلغهن العد، ولكن أم ما طوس من أولئك القلائل اللائى لم يبالين نقد البيئة ، ومعارضة الأهل لبلوغ الغاية العظيمة ، وقد فعل فعل أم ماطوس عدد من الفتيات ، ومن بينهن من تحضر مجلس العلم بين الشباب فتدير على نفسها حصيرة ثم تشترك فى الدرس اشتراكا حيا واعيا وهى بين الطلاب . . .

على أن هذه الفتاة التي حطمت التقاليد وأغضبت الأهل ، وحضرت مجالس العلم، كانت أولا تسلك سلوكها هذا تحت مراعاة مربين قدراء ،أمثال « أبى محمد خصيب » ثم كانت تحافظ على سترتها ولباسها وحشمتها ، ثم كانت لا تفتح المجال للاختلاط الحر، ولا تشترك فى نقاش أو حديث مع أحد إلا فى قاعة الدرس

وهناك فرق كبير بين أن يفتح المجال للفتاة كى تستمر فى الدراسة حتى تبلغ غايتها تحت رقابة الدين والخلق وحسن التربية ومثالية السلوك،وبين الدعوة التى ينعق بها اليوم كثير من الناس الى اشتراك الفتى والفتاة فى تجربة فرص الحياة بما تحمله كلمة التجربة من معان ، ويدعون إلى أن تبدأ هذه التجربة من المدرسة . . .

٤ — من قضايا المرأة أيضا :

إن مشكلة تعليم المرأة من أهم المشاكل فى العصور الأخيرة ، وقد تضاربت فيها الآراء وأختلفت وجهات النظر، وكان بعض المفكرين يرون أن الفتاة يجب أن تدرس بجانب الفتى ابتداء من روضة الأطفال إلى نهاية المراحل الدراسية،

ويرى مفكرون آخرون أن الفتاة يجب أن تستقل بمدرستها ومنهجها وأسلوب تربيتها فى جميع مراحل التعليم ، ويتخذ آخرون مواقف متأرجحة بين الموقفين السابقين، وأنا فى هذا الفصل لا أريد أن أعلن عن رأى خاص فى الموضوع ، وإنما أريد أن أضع بين يدى القارىء الكريم رأيا أعلنته امرأة ثم نفذته ، وقد وافق عليه أعلام يحسب لهم حساب فى مجال التربية والتعليم، وذلك قبل عشرة قرون .

اهتمت أم يحيى فى ذلك العصر بقضية تعليم المرأة ، وكانت درست على كثير من فحول العلماء ، منهم زوجها أبو ميمون ، ولكنها رأت ما تلاقيه الفتاة من المشقة والتعب فى الدراسة مما يضطر الكثير منهن الى الانقطاع، ولذلك فقد قررت أن تنشىء مدرسة خاصة بالبنات ، وأنشأت هذه المدرسة فعلا فى مدينة «أمسين» ، وجعلت فيها أقساما داخلية تأوى إليه الطالبات الوافدات من بعيد، ولم تكتف بهذا بل كانت توجههن توجيها اجتماعيا واعيا ، ففى الحين الذى تشجع البعض منهن على الاستمرار فى الدراسة والتبحر فى العلم ، كانت تشير على أخريات بالدخول فى معترك الحياة بتكوين أسر، أو ترشدهن الى بعض الأعمال النسوية المعروفة فى ذلك الحين ولكنها غالبا ما تمسك الفتاة فى مدرستها حتى تطمئن إلى أنها فهمت واجباتها الدينية والاجتماعية وتم فيها البناء الخلقى ، واكتمل لديها مقومات المرأة الفاضلة .

ذلك ما فعلته المرأة المسلمة منذ عشرات السنين، وهذا نفسه ما نقتبسه اليوم من علماء النفس والتربية فى الغرب ، حاسبين أنهم سبقونا إليه ، وأن لهم الفضل علينا فى ذلك ، ولو رجع المسلمون الى تاريخ أمتهم ، وراجعوا ماضيها البعيد والقريب، لوجدوا فيه ثروة صالحة لأن تكون أساسا لما وصلته حضارة الإنسان فى القرن العشرين .

## ٥ — تكوين الجمعيات العلمية :

إنه لمن دواعى الشرف لى أن أبدأ الحديث عن هذه النقطة بكلمة للإمام العلامة أبى أسحاق أطفيش ، أمد الله فى عمره ، وأبقاه ذخراً للإسلام ، قال فى مقدمته عن كتاب الوضع صفحة ٩ :

« ولم يمر عصر منذ القرن الثانى للهجرة إلا وتجد من مؤلفات علمائه مايبهر العقول ، فبين أيدينا اليوم منها ما يدل على تلك الذخائر الهائلة ، كديوان الأشياخ الذى ألفه سبعة من العلماء فى خمسة وعشرين جزءاً ، وديوان العزابة الذى ألفه عشرة من الفقهاء ، وكل منهما يعتبر دائرة معارف فقهية ، وناهيك بتأليف قد اجتمع على تحريره هذا العدد من العلماء الأجلاء . »

إن تكوين الجمعيات العلمية وتأليف الموسوعات تعتبر ظاهرة عصرية ، ويحسب كثير من الناس أنها نشأت فى الغرب ، وسواء صح هذا الحسبان أو لم يصح فإن المسلم فى ليبيا يستطيع أن يرجع إلى أسلافه الأماجد ليجد فيهم أولئك القوم الذين يسبقون إلى كل فضيلة ، ومن هذه الفضائل تكوين الجمعيات العلمية لتأليف الموسوعات ، ولست أجزم بأن الجمعية التى ألفت الديوان هى أولى الجمعيات العلمية فى الشرق الإسلامى ، ولكننى لا أعرف جمعية أخرى سبقتها .

ولذلك فلو طلبت إلى أن أتحدث عن أول جمعية تأسست لتأليف موسوعة علمية فإنى سوف أقرر أنها جمعية الديوان التى تتكون من هؤلاء العلماء : أبو عمران موسى ، أبو عمرو النميلى ، عبد الله بن مانوجْ ، أبو زكرياء يحيى ابن جَرْناز ، جابر بن سَدْرِمام ، كباب بن مصلح ، أبو مُجْبِر تُوزِّين .

وبعد أن ألف هؤلاء العلماء موسوعتهم الفقهية ، انتشر تكوين الجمعيات العلمية فى مختلف فنون الثقافة ، كأنما كان الباب مغلقاً ففتحه أولئك الأعلام ، ثم اندفع إليه الداخلون من بعدهم . . .

والذى أريد أن أعرضه على القارىء الكريم فى هذا الفصل هو أن يعرف الليبى أن أسلافه الكرام قد سبقوا العالم إلى هذا النضج الفكرى ، وفى الحين الذى يتحدث التاريخ عن هذه الظاهرة الفكرية فى الغرب بكل إجلال واحترام، نراه يمر بأمجادنا مراً سريعاً ، لأن هذه الأمجاد لم تُتح لها أقلام تكشف عنها وتبرزها للناس . . .

## ٦ — من قضايا التربية والتعليم :

يهتم الناس فى هذا العصر بقضايا التربية والتعليم اهتماماً كبيراً ، وتفتح أقسام داخلية لإيواء الطلاب فى كثير من المدارس ، حتى فى المرحلة الابتدائية ، وذلك لتيسير التعليم لجميع الطبقات ، ثم للإشراف على تربية الشباب إشرافاً كاملا ، وهى خطوة مباركة . ويحسب كثير من الناس أنها فكرة عصرية ، غير أن الواقع التاريخى لا يوافق على ذلك .

فقد اهتم علماء الإسلام بقضية التربية والتعليم ، وعملوا على تيسيرها للجميع، وذلك بفتح أقسام داخلية فى كثير من المدارس يأوى إليها الطلاب الفقراء مجاناً ، فيجدون المأوى والمسكن والإشراف التربوى النظيف ، ويأوى إليها الأغنياء على أن يدفعوا النفقات ، ولم تكن الحكومات هى التى تشرف أو تنفق على هذه المشاريع ، وإنما كان يشرف عليها المصلحون من الأمة ، أما النفقات فتجمع عن طريق التبرعات ، وقد تكون لبعض المدارس الكبرى أوقاف فى هذا السبيل .

وفى بعض فصول هذا الكتاب عدد من المدارس التى كانت تتبع هذا النظام ، فيسرت التعليم وأفادت البلاد فائدة علمية اجتماعية لم تصل إليها بعض الدول فى هذا العصر .

## ٧ — من قضايا التعليم أيضاً :

تقوم المدارس والمعاهد فى هذا العصر برحلات علميه واستطلاعية يشرف عليها بعض الأساتذة وينظمونها ، وقد يظن بعض الناس أن هذه الفكرة وليدة العصر الحاضر ، أو أنها مستوردة من الفكر الغربى ، ولكن التاريخ يثبت عكس ذلك .

فقد كانت الرحلات المدرسية ضمن المناهج الدراسية عند أسلافنا العظام فى ليبيا ، فكان المربون ينظمون رحلات يذهب فيها فريق من الطلبة أو كل الطلبة تحت إشراف مدرسين قديرين يراقبون الطلبة ويوجهون أنظارهم إلى ما تجب ملاحظته ، ويحسن الاطلاع عليه ، ويدرسون نفسياتهم ويراعون سلوكهم فى حالتى السفر والإقامة ، ويعفونهم من قيود النظم فى بعض الأحيان لتتاح لهم دراستهم ومعرفة نفسيتهم عند ما ينطلقون فى حرية كاملة ، ولعله من المؤسف أن تقترن إحدى تلك الرحلات بحادث أليم .

فقد كان أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتى من فطاحل العلماء ، وكبار المربين ، وكان من أنشط المربين فى القيام بهذه الرحلات التى يدرس فيها نفسية طلابه ، ويدربهم على العمل والحياة .

ونزل الشيخ الكبير مع طلابه ليبيتوا بعيداً عن ضوضاء المدن ، وكان بنو تيجن — إحدى القبائل الضاربة حول الجبل والتى تعيش على النهب

والسلب — كان بعض أهل تيجن قد شاهدوا هذه القافلة الكبيرة التى تنزل المبيت ، فهجموا عليهم على حين غفلة ، وقتلوهم جميعاً ، وخسرت ليبيا علماً من أعلامها لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره ، ورغم ذلك فقد درس عليه عدد غير قليل من فطاحل العلم ، والكتب مشحونة بآرائه وأقواله .

أحسب أن فيما نقلته من هذه المواضيع الكفاية ، وتاريخ الأمة الإسلامية مشحون بمثل هذه الأمجاد ، ومثل هذا السبق فى مختلف ميادين الحياة .

وكثير مما نحسبه اليوم وارداً من الغرب ، أو وليداً للعصر إنما سبق إليه المسلمون ، ولكنه أغفل فى بعض زمن الانحطاط ، وبالرجوع إلى تاريخ هذه الأمة العظيمة فى سير رجالها ونسائها نستطيع أن نكشف عن تراث رائع عظيم ...

# الزاوي ينحرف عن الحق

الأستاذ الطاهر الزاوي مؤلف مكثر ، وقد عنى بالتاريخ الليبي فأصدر فيه فيما علمت ثلاثة من الكتب المتوسطة الحجم ، هي جهاد الأبطال ، وتاريخ الفتح العربي في ليبيا ، وأعلام ليبيا ، وعناية الأستاذ الزاوي بالتاريخ الليبي جهد مشكور ، وعمل نبيل ، وقد حاول أن يظهر في كتبه بمظهر الرجل المنصف السليم الطوية ، إلا أن قلمه خانه فكانت تصدر منه اللمزات الخفيفة ، والطعنات الخفية ، كأنه خائف لا يقوى على الظهور ، فهو يستتر خلف عبارات ملتوية أو إشارات بعيدة ، ولكنها موفية بالغرض .

وإذا كانت ليبيا جزءاً من الوطن الإسلامي الكبير ، تسكنها أمة مختلفة الأجناس والألوان ، فيها البربر والعرب ، وفيها السود والبيض .

وكانت هذه الأمة التي تسكن هذا الجزء من الوطن الإسلامي تدين بالإسلام على مذاهب عدة تنبع جميعها من كتاب الله .

فإن المؤرخ المسلم يجب أن ينظر إلى الأحداث التي تقع في هذه البلاد نظره إلى أحداث تقع من أفراد أسرة واحدة ، فإن الإسلام ليس له لون ولا جنس . وكما أن الثورات والحروب لم تقف في جميع الممالك حتى تلك التي تتكون من جنس واحد ولون واحد — ما دام هناك ظالمون ومستغلون — فإن الثورات هنا أيضاً لم تتوقف . والمؤرخ المنصف يجب أن ينظر إلى السبب الحقيقي المباشر لكل ثورة أو حدث أو فتنة ، والباعث عليها ، فليس الثائرون هم المخطئين دائماً ، وليس حقاً أن من تولى شأناً من شئون المسلمين يكتسب بذلك حصانة يستطيع أن يفعل داخلها ما يشاء من استغلال مجهود الناس .

وإنه لتحريف لدين الله أن يفسر قوله تعالى : « **اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** » بهذا المعنى . فإن أولى الأمر الذين ينحرفون عن دين الله ويحكمون بغير ما أنزل الله ، ويتخذون عباد الله خولا ، وأموالهم دولا ، ليسوا منا أى ليسوا من المسلمين الذين تجب لهم الطاعة ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والأحاديث التى تخرج الفساق والعصاة من المسلمين كثيرة متوافرة : « من غشنا فليس منا »(1) فالحاكم الذى لا يتقيد بنصوص الشرع الشريف وأحكامه غاش للمسلمين ، فهو ليس منهم ، ولا تجب له عليهم طاعة ، والذى يحمل عليهم السلاح فيقتل منهم بغير حق ، أو يأخذ أموالهم بغير عدل ، ليس منهم ، ولا تجب له عليهم طاعة .

ولكن الأستاذ الزاوى لم يكلف نفسه هذا العناء ، فهو من أول كتابه « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا » قسم السكان إلى قسمين : عرب وبربر ، ثم جعل العرب كتلة واحدة ، وجعل البربر كتلة واحدة ، ثم جعل يضع على كواهل البربر جميع أخطاء التاريخ ، ويلقى عليهم كل أعبائه ، وينسب إليهم جميع النقائص التى يمكن أن تنسب إلى شعب . وهذا منطق غريب ليس أبعد منه عن الصواب ، وأوغل فى الخطأ ؛ فإن البربر باعتبارهم جنساً ، ليسوا أسوأ من العرب ، وأن العرب باعتبارهم جنساً ليسوا خيراً من البربر ، وأن البربر والعرب جميعاً باعتبار أجناسهم ، ليسوا خيراً أو أسوأ من غيرهم من الشعوب .

ولقد كنا نعتقد أن خرافة الجنس الأعلى « السوبرمان » فكرة

---

(1) راجع مسند الربيع : الجزء الأخير : ص ١٧ .

ولدت فى دماغ هتلر وذهبت معه إلى غير رجعة ، وبقيت كل الشعوب متساوية باعتبار أجناسها ، وإن تفاوتت فى أخلاقها وأعمالها ودينها . . .

ثم لم يكتف الأستاذ الزاوى بذلك ، فتحدث عن الخوارج ، وجعل مبادئهم تتسرب إلى المغرب الإسلامى ، ولما كانت هذه المبادىء هدامة — فى نظر الأستاذ الزاوى — فقد تلقفها البربر ، وتمسكوا بها ، واتخذوها وسيلة لمحاربة العرب .

وعلى هذا النمط سار الأستاذ الزاوى فى كتابه أو فى كتبه ، ولم يشفع للبربر عنده أن فكرة الخوارج إنما نشأت فى قلب الجزيرة العربية ، وأن العرب دافعوا عنها بأكثر مما دافع عنها البربر ، وأن البربر فى المغرب كانوا كما كانت بقية الأمة الإسلامية فى بقية الوطن الإسلامى ، فيهم عدد غير قليل من الطوائف والمذاهب ، فقد كان فيهم شيعة وخوارج ومعتزلة وإباضية وأشاعرة وظاهرية وغيرهم .

ولقد اعتاد الأستاذ الزاوى فى كتابه عند ما تثور طائفة من طوائف البربر أو قبيلة من قبائلهم بحق أو بباطل أن يسند ذلك العمل إلى البربر جميعاً ، فهو نادراً ما يسند العمل إلى القائمين به ، ولكن يسهل عليه جداً أن يقول : « فعل البربر كذا » ، وطبيعى عند الزاوى أن البربر مخطئون على طول الخط ، وأنه ليس لهم الحق لا فى الحكم ولا فى الثورة ، ولا حتى فى التوجع والأنين .

وهذا فيما أعتقد ظلم للتاريخ وظلم المبادىء وظلم للعقائد ، وظلم للناس ، وإذا ساغ مثل هذا التفكير عند أمثال الرحالة التيجانى وأضرابه من خدم الولاة الظالمين ، أو عند المستعمرين الغربيين الذين كانوا يرون أن الناس إنما خلقوا ليخضعوا لهم ، إذا ساغ هذا التفكير عند أولئك ، فما يسوغ هذا التفكير

فى عقل رجل عالم مسلم ، يعيش فى القرن العشرين ، ويدعو إلى الرجوع إلى دين الله والعمل بكتاب الله ، واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه الكرام ، رضوان الله عليهم .

قد يخيل للقارىء الكريم ، وهو يقرأ السطور السابقة ، أننى بصدد الدفاع عن البربر ، والحقيقة التى أريد أن يعرفها القراء الكرام أنه لا يعنينى جنس العرب أو جنس البربر ، أو غيرهم من الأجناس فى قليل أو كثير ، فأنا أومن أن إرادة البارى سبحانه وتعالى ، عند ما خلقت الإنسان ، ثم جعلت منه شعوباً وقبائل ، قد أعطت كل شعب أو جنس أو لون من بنى الإنسان خصائص ومواهب تساوى ماعند الآخرين، ولا يكون التفاوت إلا فى الأفراد، ولذلك نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن تهجى قبيلة بأسرها ، فإن أى قبيلة مهما كان جنسها أو لونها لها من المواهب والاستعداد والفطرة والخصائص التى تمنحها القدرة الإلهية مثل ما لغيرها من القبائل ، وإن تفاوتت قيم الأفراد فى القبيلة نفسها ، وفى خارج القبيلة .

وأنا فى هذا الكتاب أتحدث عن فرقة من المسلمين ، تدين لله على مذهب إسلامى ، له قواعده وأصوله المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة ، عاشت فى ليبيا ولا زالت تعيش ، ولا يعنينى مطلقاً جنس أفرادها أو لونهم ، وأنا أيضاً لا أتحدث على هذه الفرقة ، إلا لأنها تكون جانباً من الأمة المسلمة الكبرى ، وقد تناولت هذا الجانب بغير الحق أقلام مخطئة وأقلام مغرضة .

وإنه لواجب على رجال الإسلام أن يكشفوا آثار تلك الأقلام المغرضة والمخطئة عن جميع فرق الإسلام .

ومن المؤسف أن الانسياق فى تيارات معينة شوه جمال الإسلام عند بعض الفرق . والذى يلتمس الشواهد على هذا الحديث ، يستطيع أن يرجع إلى بعض كتب التاريخ ، و بعض كتب الرحلات ، فإنه سوف يجد من التناقض فى الكتاب الواحد ما يبعث على الاستغراب ، وقد يجد اختلافاً يخجل منه عقل يحترم نفسه ، ومن هذه الكتب مثلا كتاب الاستبصار فى غرائب الأمصار ، ورحلة التيجانى وأمثالها .

ومن المؤسف أن بعض من يوثق بهم وبعلمهم مثل ياقوت الحموى يقع فى الخطأ الفاحش ، لأنه يستمد معلوماته من بعض المؤرخين الذين لا يتحرون الحق ، ولا يلتزمون الصدق .

# لمزات من الزاوى

فى هذا الفصل أريد أن أتحدث مع الأستاذ الزاوى عن لمزات كان يجب أن يتنزه عنها قلم عالم، وكتاب مؤرخ أمين، فإليك أيها القارىء الكريم بعض تلك اللمزات الواردة فى كتابه « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا » قال :

١ — صفحة ١٠٤ :

« ومنذ أن خرجوا على سيدنا على انفتح باب الفتنة فى المسلمين فلم يسد بعد، ولن يسد ما دام لهم أنصار على وجه الأرض . »

هذه الكلمة من المغالطات التاريخية التى يحمل فيها وزر بعض الناس على غيرهم استغلالا لمشاعر العامة والدهماء، و إلا فما نصيب هذه القصة من الحق ؟

ولقد كان فى القديم أسباب سياسية باعثه على مثل هذا الكلام، ولكن تلك الأسباب لم تعد موجودة اليوم، فلماذا يندفع الأستاذ الزاوى مع مغالطات ذهبت الدوافع إليها .

إن الفتنة قد وجدت فى الأمة الإسلامية قبل أن يوجد من يسميهم الزاوى بالخوارج، أى قبل أن يختلف أمير المؤمنين على بن أبى طالب مع بعض أنصاره ويقتتل معهم و إن العدد الهائل من القتلى الذين ذهبوا فى وقعة «الدار» وفى وقعة «الجمل» وفى وقعة «صفين» أكبر كثيراً من القتلى الذين ذهبوا فيما بعد بين الخوارج وعلى، والفتنة التى وقعت بين بنى هاشم وبنى أمية لم يدع إليها الخوارج، والحروب الطاحنة التى وقعت بين بنى أمية و بين بنى العباس لم يقدها الخوارج، والمعارك

المتتابعة التى كانت تقع بين عمال بنى العباس أنفسهم و بينهم و بين مركز الخلافة واستقلالهم عنها . إن تلك المعارك لم تكن من تدبير الخوارج . وتتبع التاريخ الإسلامى فإنك ستجد سلسلة من الثورات والحروب فى كل ركن من الوطن العظيم، وليست تلك الحروب والثورات من تدبير الخوارج .

فلمـــاذا نلقى على الخوارج إثم تلك الدماء التى أريقت فى مختلف أدوار التاريخ — ولا تزال تراق إلى اليوم — بحق أو بباطل ، وقد انقرض الخوارج وذهبوا فى ذمة التاريخ ؟

ولماذا نجعل باب الفتنة بأيديهم ؟ ونحن نعلم أن باب الفتنة إنما كان فى يد أولئك الذين غرتهم الحياة ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، فاستبدوا بالأمة ، وعبثوا بالأمانة ، وخانوا الله ورسوله ليحتفظوا لأنفسهم بعزة السلطان .

وليس ذلك من مبادىء العقائد أو الفرق الإسلامية ، ولـكنها فرص أتيحت لأفراد من الأمة انحرفوا عن سبيل الله ، فلجّ بهم الطغيان فى الباطل والجبروت .

وأنا حين أقول هذا الـكلام لا أريد الدفاع عن الخوارج ولـكنها كلمة حق أهمس بها فى أذن مؤلف معاصر جرفه تيار أحداث سـابقة ، ثم إننى أريد أن أشير إلى اللمزة الصغيرة الخفية التى تنطلق من قلم الزاوى كأنها خائفة فتتوارى. هذه الـكلمة : « ولن يُسد ما دام لهم أنصار على وجه الأرض » . من هم أنصار الخوارج الذين يقصدهم الزاوى فى كلمته هذه ؟

وماذا يوحى بها ؟

إن المرمى الذى يطوح إليه الأستاذ الزاوى فى هذه الجملة سوف ينكشف

فى لمزات آتية ، وإننى أدع مناقشته فيها إلى ذلك الحين فى بعض نقط هذا الفصل.

٢ — صفحة ١١٥ :

« وما زال العرب إذ ذاك يخافون ثورة البربر ، وتدبير مكائدهم ، وكان رئيسهم فى طرابلس عبدالله التجيبى رئيس الإباضية ، فقبض عليه إلياس وضرب عنقه » : ولست أدرى ما الذى حمل الأستاذ الزاوى على تكديس البربر وحشرهم فى هذه القضية ؛ إن هذه القضية تتعلق بالإباضية ، والإباضية مذهب ومبدأ وليسوا جنساً أو لوناً ، وأعمالهم فى ذلك الحين إنما قاموا بها من أجل الدين أو من أجل المبدأ ، وهم حين يقومون بتلك الأعمال لا ينظرون إلى أجناس الناس ، لأن الأجناس عندهم متساوية .

ولكن الأستاذ الزاوى لا يريد ذلك ، إنه لا ينظر إلى دين القوم ولكنه ينظر إلى جنسهم ، وما دام الإباضية يثورون على الحاكم الظالم ، وماداموا ، بربراً فلا بد أن يكونوا من مدبرى المكائد ، وهو منطق غريب لا يجد عليه الأستاذ الزاوى شواهد حتى من المؤرخين المغرضين ؛ فإن تاريخ الإباضية فى ليبيا لم يسجل عليهم تدبير ثورة واحدة قبل أن يستحل إلياس بن حبيت دماء الأبرياء منهم.

فلما ارتكب إلياس جريمته فى طرابلس ولم يزد أخوه عبد الرحمن عن نقله من ليبيا ليوليه أعمالا فى جهات أخرى ، ولم يستجب إلى حكم الله فيقتل القاتل ؛ لما وقف عبد الرحمن بن حبيب هذا الموقف يحتضن أخاه ، وينصره على الباطل ثار الإباضية ، وحق لهم أن يثوروا .

وإلياس هذا الذى ثار الإباضية عليه ، وطلبوا القصاص منه ، رجل رفعته الظروف إلى أن أصبح والياً على طرابلس ، فقتل عبدالله بن مسعود التجيبى ، وأراد

أخوه عبدالرحمن أن يحول دون القصاص منه ، فدعاه إليه فى القيروان وولاه على بعض الأعمال ، ولـكن هذا الرجل المتعطش للدم لم يقنع بهذا .

ومرض عبدالرحمن فذهب إليه إلياس يزوره ، فلما وجد منه غرة وثب عليه وأغمد خنجره الحاد فى صدره ، واحتز رأسه ، ثم خرج يعلن للناس قتله لأخيه وتوليه الحـكم عليهم .

وهكذا تنـكر لمبادىء الإسـلام ، والشرف ، والإنسانية ، والقرابة ، ولم يعرف أى حق للأخوة : أخوة الدين أو أخوة الدم ، أو حتى أخوة الجنس التى يقدسها الأستاذ الزاوى .

هذا هو الرجل الذى كان سبب أول ثورة للإباضية على الظالمين ، فهل يلام شعب يثور على حاكم ظالم يقتل الأبرياء بغير ذنب ، بل تصل به الدناءة إلى أن يغدر بأخيه الأكبر الذى طوق جيده بالنعم ، فيقتله غدراً فى داره لينصب نفسه حاكما ، ولم يكتب له أن يستمتع بالحـكم الذى انتهك من أجله أقدس الحرم فقُتل بخنجر ابن أخيه بعد أيام من حكمه .

أين الفتنة فى هذا ؟ وأين تدبير المـكائد ؟

أعند هؤلاء الذين يطالبون بتنفيذ أحكام الله ، أم عند هذا الوحش الذى يتنكر لأبسط مبادىء الإنسانية فيلغ فى الدماء كما يلغ الـكلب العقور ، و يبيح جميع ما حرم الله ليصل إلى الحـكم ؟

فهل يلام الإباضية أو غير الإباضية حين يضربون على يد هـذا الطاغية الظلوم ، ويحبسون شره على المسلمين ؟ وهل تعتبر ثورتهم هذه تدبيراً للمـكائد ؟ ونزوعاً إلى الفتنة ؟ ...

إن الأمة الإسلامية لو حافظت على مبادىء الإسلام ، فضربت على أيدى العابثين . وطهرت مناصب الحكم من الوصوليين والانتفاعيين لما نكبت بما نكبت به ، وإن المصائب التى أنصبت عليها فى جميع أقطارها كان السبب الأول فيها هو وصول غير الأكفاء إلى مناصب الحكم ، ثم استبدادهم به ، دون رجوع إلى دين الله ، واستخفافهم بحقوق الناس من أموال ، ودماء ، وأعراض .

وكان حقاً على الأستاذ الزاوى وهو يكتب التاريخ فى القرن العشرين ليجمع شتات الأمة فى وحدة الهدف الإسلامى . .

كان حقا عليه أن يسرد تلك الحوادث مجردة كما وقعت ، أما إذا أراد أن يبدى فيها رأيه فكان حقا عليه أن يعلق بما يمليه الحق والعدل ، ولكن قلم الأستاذ الزاوى ينحرف عن الحق فيسكت عن المجرم الذى أراق الدماء البريئة ، وتعدى حكم الاسلام ... ويرمى المظلومين الذين يطالبون بتنفيذ حدود الله بأنهم قوم يتلمسون أسباب الثورة ، وينزعون إلى الفتنة ، ثم يلجأ كما هى عادته إلى البربرية والعروبة ، فيقول :

« وما زال العرب يخافون ثورة البربر وتدبير مكائدهم » و « أخذوا يتلمسون أسباب الثورة للانتقام » . « وما زال الإباضية فى غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة » .

هذه لمزات ينثرها الأستاذ الزاوى فى غير موضع من كتابه ، وهو فى ذلك يمزج بين العنصرية والمذهبية ، فيربط بين الجنس والعقيدة ، ثم يرتب على ذلك أحكامه حسب العوامل النفسية ورواسب العصبية ، وتطغى عليه هذه الرواسب فلا يستبين الحق ، ولا يرجع إلى أحكام دين الله ، ولا يزن أعمال الناس بميزان

الشرع العادل ، وإنما ينساق فى موكب الظالمين ، يحدو لهم ، ويبرر أخطاءهم ، وينقد مخالفيهم ، كأنما كان يعيش فى تلك القرون و يتلقى العطايا من أيدى أولئك الظالمين المترفين .

وهذا موقف غير شريف يقفه عالم مسلم ، فإن امتداح الظلم وأهله ، والتصفيق للطغاة والجبابرة ، والسير فى ركاب المستعبدين الظالمين فى ذلة وهوان شنشنة ذهب بها الزمن فلن تعود ، وتنزه عنها حتى أولئك الذين لم يكرمهم الله بالإسلام .

٣ — و يقول الأستاذ الزاوى فى كتابه « الفتح العربى فى ليبيا » .

صفحة ١١٩ :

« وكان — أى أبو الخطاب — من أشد خصوم سياسة العرب فى أفريقيا ، وقاتلهم انتصاراً لمذهبه ، وقد أخلص للبربر إخلاصا جعله منهم فى محل التقدير والإعجاب » .

إن أبا الخطاب — الذى يتحدث عنه الأستاذ الزاوى بمرارة فى هذه السطور — عربى ثابت العروبة ، بايعه سكان ليبيا من الإباضية وغيرهم إماما ليحكم فيهم بكتاب الله .

وأبو الخطاب رجل يعتز بإسلامه ، ويعتز بأخلاقه ، إنه يعتز بدينه لا بجنسه ، وما الجنس عنده إلا خرافة لا يستمسك بها إلا المهازيل ، ولم يكن أبو الخطاب ينقم على العرب أو على البربر ، ولكنه كان ينقم على الطغيان عند أصحاب الحكم ، وعلى الانحراف عن الدين الحق ؛ إنه كان يثور على تلك السياسة التى ينتهجها ذووا النفوذ من العرب والبربر جميعاً ما لم تتقيد بقيود الإسلام ، وهذا الموقف من أبى الخطاب لا يعجب الأستاذ الزاوى ، لأن الأستاذ الزاوى لا يعير الحكم

الإسلامى أى اهتمام فى هذه الناحية ، فهو غارق إلى أذنيه فى قضية العصبية ، ويرى أن ما يعمله العربى يجب أن يكون مقبولا ، ومن عارضه اتهم بإحدى التهمتين الخطيرتين : أن يكون من البربر أو أن يكون من الخوارج .

ولما لم يجد الأستاذ الزاوى ما ينتقده على أبى الخطاب قبل أن يبايع بالإمامة على ليبيا ، وبعد أن تولى أمر المسلمين فيها — لما لم يجد ما ينتقده عليه لجأ إلى إثارة عواطف الدهماء واستنصر بقضية العرب والبربر كما هو شأنه فى كامل كتابه فقال : « وكان — أى أبو الخطاب — من أشد خصوم سياسة العرب فى أفريقيا »

إن الخصومة ليست بين العرب والبربر كما أراد أن يصورها الأستاذ الزاوى ، ولكنها بين طائفة من الناس استولوا على الحكم أما بطريق القوة أو الحيلة أو الوراثة ، وجمعوا إليهم كثيراً من الأنصار ، إما بطريق الإغراء أو التخويف أو التضليل بتمويه الحقائق فى نظام الحكم الإسلامى ، حتى أضفوا على أنفسهم شرعية الحكم ، وبين طائفة أخرى لم يؤثر عليها الإغراء ، ولم يرهبها التخويف ، ولم يجز عليها التضليل والتمويه ، فوقفت موقف المعارضة تطالب بالاستمساك بدين الله وتطبيق أحكامه . بالقول حين يجدى القول ، وبالثورة البيضاء أو الحمراء حين يصر المنحرفون عن دين الله على موقفهم . ومن ظلم الحقيقة ، ومن ظلم التاريخ . ومن ظلم الإسلام ، أن نقول إن هذا الموقف هو موقف البربر فقط ، أو موقف العرب فقط ، أو موقف أبى الخطاب مثلا ، إنه موقف الملايين من المسلمين الذين آمنوا برسالة الإسلام ، وتأدبوا بأدب محمد عليه السلام ، وعز عليهم أن يغلب الشيطان أصحاب الحكم فينحرفوا بدين الله عن مجراه . فوقفوا فى كل ركن من أركان الوطن الإسلامى يحاربون الباطل الذى استعلن فادعى لنفسه شرعية الحكم ، وخول لها الاستبداد والفساد ، وأرسل أبواق الدعاية تلفق

التهم وتختلق الأكاذيب ، وتحدث من الضجيج ما تود أن تستر به دعوة الحق والحرية المنبعثة من المؤمنين الصادقين فى كل فرقة من فرق الإسلام .

ومنذ اختار الله لمحمد صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وساوى بين الرومى والحبشى والفارسى والعربى، انصهرت القوميات والجنسيات فى الدين ، وأصبح الرباط الذى يربط المسلمين هو رباط العقيدة ؛ الرباط الذى اختاره خالق الإنسان ليكون العلاقة المتينة بين أفراد الإنسان ، واقتنع المؤمنين بذلك وآمنوا وعملوا به ، ولم يعد يلتجىء إلى الجنس أو القومية من العرب أو البربر أو الفرس أو غيرهم من الأجناس المسلمة إلا أولئك الذين يريدون أن يكسبوا مشاعر الدهماء من الناس ، وأن يستغلوا ذلك لأغراض دنيوية بعيدة عن الإسلام وعن روح الإسلام. وإن قلما يقسم الأمة فى أوطانها المختلفة ، فيجعل منها قوميات متباعدة ، أو يقسم الأمة فى دولة من دولها فيجعل منها أجناساً متنا كره لقلم أثيم .

وفى الفقرة السابقة يقول الأستاذ الزاوى فى حديثه عن أبى الخطاب : «وقد أخلص أبو الخطاب للبربر أخلاصاً جعله منهم فى محل التقدير والإعجاب» وهذا لعمرى تجن على التاريخ وظلم للحقيقة ، فإن أبا الخطاب أخلص لدينه ، وأخلص لإسلامه الذى يرتفع به عن وضاعة النظر إلى أجناس الناس وألوانهم ولقد كافح أبو الخطاب المنحرفين عن دين الله من العرب والبربر على السواء ، فقاتل الحكام الظالمين من ولاة الدولة العباسية ، وقاتل الحكام الظالمين من مذاهب الصفرية والمعتزلة ، لا ينظر إلى أجناسهم ولا إلى ألوانهم ، ولكن إلى أعمالهم . وسيف أبى الخطاب هو السيف الذى طهر القيروان من عبث عبد الملك الورفجومى هذا الرجل الذى لم يلامس الإيمان قلبه إلا قليلا ، فسولت له نفسه أن يعيث فساداً فى المدينة الصحابية الكبيرة ، ويربط الدواب فى مساجدها العامرة ،

فلو كان أبو الخطاب مخاصاً للبربر — لأنهم بربر فقط — لوضع يده فى يد عبد الملك وازداد بذلك قوة ونفوذاً . . .

إن أبا الخطاب مسلم قبل أن يكون عربياً أو بربرياً ، وهو لم يعمل للوصول إلى الحكم وإنما أرغمته عليه الأمة ارغاماً ، وهددته بالقتل إذا امتنع، وذلك حين ضج الناس من الظلم ، وأصبحت الحرم التى قدستها الشريعة منتهكة ، فقام بأمر الأمة ، ودافع المنكر فى أى مظهر ومن أى جنس . وحكم البلاد كما حكم عمر ابن عبد العزيز زمناً قصيراً ؛ ولكنه كاف لإقامة حجة الله على البشرية ؛ فقد ذاق فيه الناس النزاهة والعدل والمساواة واللجوء إلى كتاب الله فيما دق وجل من أمرهم .

فلماذا يأتى الأستاذ الزاوى بعد اثنى عشر قرناً ونصف ليلمز أبا الخطاب هذه اللمزات الجائرة . . .

٤ — يقول الأستاذ الزاوى فى نفس الكتاب صفحة ١٢٠ : « وهذه الكلمة — أى لا حكم إلا لله(١) — التى اتخذها الخوارج ذريعة للخروج على سيدنا على، وأصبحت شعاراً لهم، ولا ندرى كيف يقولها الإباضية وهم ينكرون أنهم من الخوارج . » إن الأستاذ الزاوى وهو يكتب تاريخ ليبيا كان أسير فكرة معينة ، هذه الفكرة تتلخص فى أن سكان ليبيا ينقسمون إلى قسمين : بربر وعرب ، وأن البربر تجمعهم جامعة واحدة هى أنهم خوارج ، فهم بين رذيلتين فى نظر الزاوى ، كونهم بربراً ، وكونهم خوارج ، وهم لذلك يجب أن يتحملوا جرائر التاريخ ، وعندما يثورون يقف الأستاذ الزاوى موقف القاضى الحازم دون

---

(١) قال تعالى فى محكم كتابه العزيز : « **قل انى على بينة من ربى وكذبتم به . ماعندى ماتستعجلون به . ان الحكم الا لله يقص الحق وهوخير الفاصلين** » الأنعام .

أن ينظر إلى الموضوع،أو أن يستمع إلى دعوى الطرفين ويصدر حكمه بإدانتهم ، وعندما يتنصلون من تهمة ألحقت بهم أو ضلالة نسبت إليهم و يقيمون على ذلك الأدلة والبراهين ، يبتسم الأستاذ الزاوى ابتسامة صفراء ، ويهز رأسه هزة خفيفة فيها مسايرة ظاهرة ، وفيها تكذيب داخلى قاطع ، فإذا بدرت من أحدهم كلمة أو إشارة ، مال فى جد ووقار إلى يمينه وإلى شماله يقول فى صرامة : ألم أقل لكم إن هؤلاء يكذبون ، إنهم بربر ، وإنهم خوارج ، أرادوا أو لم يريدوا . يا سبحان الله ، لماذا هذا التحامل كله ، إن هذا انحراف عن الصراط السوى ، وابتعاد عن إعطاء النصفة والحق . .

ماذا تعنى كلمة « لا حكم إلا لله » وما هى الظروف التى نشأت فيها ، ولماذا يغضب عليها الأستاذ الزاوى ؟ إننا لكى نجيب على هذه الأسئلة يجب أن نستعرض الفترة التاريخية التى ولدت فيها هذه الكلمة وموقف الأمة منها .

خالف معاوية بن أبى سفيان إجماع الأمة ، وأشعل نار الفتنة ، وجهز جيشاً لمحاربة الخليفة الشرعى الذى اختاره المسلمون ، وقابله أمير المؤمنين على بن أبى طالب بما يقابل به خليفة شرعى فئة باغية ؛ فجهز جيشا من أبطال الاسلام ، وقاده بنفسه والتقى الجيشان فى صفين ، وابتدأ القتال . وعرف معاوية أنه إذا لم يلجأ إلى الحيلة فإنه سوف يخسر القضية فى أقرب مما يتوقع ، ومهد لذلك بتكوين طابور خامس فى جيش على، ثم دعا إلى التحكيم .

وعرف على وعرف أصحابه مقصد معاوية من التحكيم ، وأنها إحدى المكائد التى تفتق عنها ذهن عمرو بن العاص،ولذلك قال على: إنما قاتلناهم بكتاب الله ، وأصر هو وأصحابه على الجهاد ، ولكن الطابور الخامس الذى كان يقوده أكبر صنائع معاوية الأشعث بن قيس كان قد عمل عمله فى الجيش ومالت الأغلبية

إلى قبول التحكيم ، وحينما كان على والمخلصون من أصحابه يكافحون لإقناع بقية الجيش بصواب موقفهم و نبذ الاستماع إلى هذه الخدعة الحربية التى لجأ إليها الفريق الباغى، لخص أحد أصحابه موقفهم هذا فى هذه الكلمة المشهورة «لاحكم إلا لله» وكانوا يصيحون بها فى جوانب الجيش ويرددها أنصار على فى كل موقف، وكان على يستمع إليها راضيا بها وهو يناقش الناس ويدعوهم إلى التمسك بمضمون هذه الكلمة ، وعدم الانخداع بحيل معاوية ، لأن قضيتهم واضحة ، وقد حكم فيها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات . . .

وشاءت إرادة المولى سبحانه وتعالى لحكمة يعلمها أن لا تستجيب الأغلبية لعلى ، وأن تميل أكثرية الجيش إلى دعاة الهزيمة ، وأن يتغلب الأشعث بن قيس — صنيعة معاوية — على المناضلين من أجل الحق ، فيجد الامام نفسه مضطراً إلى التخلى عن مبدئه ، وترك الصفوة من أصحابه ليحافظ على الأغلبية ، ويسير معها ؛ فرضى بالتحكيم مرغماً ، وإلى هذه اللحظة التى رضى فيها على بالتحكيم وموافقة الأغلبية ، كانت كلمة — لا حكم إلا لله — تعبيراً عن موقفه ، وشعاراً لمبدئه ، بل إنها تعبير وشعار لكل مؤمن يُحكم كتاب الله فيما شجر فيه خلاف بينه وبين الناس .

وانعزل معارضوا التحكيم إلى جانب ، واستمسكوا بموقفهم الذى كانت تعبر عنه هذه الكلمة أصدق تعبير ، ونشأ عن هذا الموقف موقف آخر متطرف كل التطرف ، فإن الكلمة حينما أطلقت وقصد منها أنه لا يجوز للناس أن يُحكموا فيما نزل فيه حكم الله ؛ وذلك ما فهمه الإمام على ورضى به ، وفهمه المعارضون وعملوا به ، ولكن ناساً من المتطرفين فيما بعد ، زعموا أنه لا حاجة إلى الإمارة ، وأنه لا داعى لأن يكون للمسلمين حكومة ، وحملوا كلمة « لا حكم إلا لله » هذا المقصد الهدام ؛ وهذا التطرف هو ما سخطته الأمة ، وردته عنهم . وتولى الإمام على شرحه بإسهاب و إيضاح ، لا يبقى بعده إشكال .

قال الإمام على يرد على أولئك المتطرفين الذين خرجوا بكلمة «لا حكم إلا لله» عن معناها الذى وضعت له(١) : «كلمة حق يراد بها باطل — نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله ، وإنه لابد للناس من أمير برٍّ أو فاجر ، يعمل فى أمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع بها الفيء ، ويقاتل بها العدو ، وتؤمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى ، حتى يستريح برٌّ ، ويستراح من فاجر» .

فهل يرضى الأستاذ الزاوى أن يكون الإباضية على رأى أمير المؤمنين على ابن أبى طالب ، فيعترفون أن كلمة «لا حكم إلا لله» كلمة حق كما يعترف بذلك أمير المؤمنين ، فقال نعم إنها كلمة حق . فإذا تنطع متنطعون فأرادوا بها الباطل وتطرف متطرفون فزعموا أن الأمة ليست فى حاجة إلى الإمارة ، فإن الإباضية يردون هذا الباطل كما رده الإمام ، ويدفعون هذا التطرف كما دفعه ولا يحملونها غير المعنى الحقيقى الذى وضعت له . . .

فهل يظن الأستاذ الزاوى أن أمير المؤمنين كان من الخوارج لأنه ينطق بكلمة «لا حكم إلا لله» ويعترف بأنها حق ، ويتخذها شعاراً ، وهو يحارب خدع المحتالين ، وكيد الكائدين ، فلما جاء قوم وخرجوا بها عن معناها وعن الغرض الذى قيلت فيه ، شرحها شرحه الخالد الذى حدد فيها حدود الحق والباطل ، فنص أنها كلمة حق، وأن الباطل فيها إنما هو هذا التطرف والغلو ، الذى يزعم أن الأمة لا حاجة لها فى الإمارة ، فرد عليهم رده الحاسم — ومن المؤسف أن المتطرفين من الجانب الثانى حملوا كلام الإمام على غير ما يريد .

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٥٩ .

وابتسروا منه جملة واحدة يؤيدون بها ما يريدون ، وعندما يسمعون كلمة « لا حكم إلا لله » يردون بسرعة « كلمة حق أريد بها باطل » ولا يحملون أنفسهم مشقة الفهم : فهم سياق الكلام ، الذى شرح به الإمام هذه الجملة ، فلا ينظرون إلى قوله : « نعم إنها كلمة حق » ولا إلى قوله الذى أوضح به موضوع النقد : « ولكن هؤلاء يقولون » : « لا إمرة إلا لله » .

إن أمير المؤمنين لم ينتقد كلمة الحق وإنما انتقد التطرف فيها ، والخطأ فى فهم معناها ، والإباضية كسائر المسلمين ينتقدون هذا التطرف وهذا الخطأ .

فهم لا يحفلون بآراء الناس فيما نزل فيه حكم الله ، وهم يدعون إلى تكوين دولة مسلمة ترعى الأمة المسلمة ، ويطالبون أن تكون الدولة مخلصة فى العمل بأحكام الله ، فإذا انحرف ولاة الأمر عن دين الله طالبوهم بالرجوع إلى دين الله .

ولو تأمل الأستاذ الزاوى سيرة الإباضيه فى مختلف أدوار التاريخ ، ووزنها بميزان الحق ، مبتعداً عن المؤثرات الخارجية ، التى تركت فى نفسه رواسب تحول دون الإنصاف ، لكان حكمه عليهم أنزه ، وموقفه معهم أشرف وأكرم ، وكفاهم وكفى نفسه هذه اللمزات المنتثرات . .

٥ — قال الأستاذ الزاوى فى كتابه السابق ص ١٢٢ :

واستولى أبو الخطاب على عسكره — أى عسكر أبي الأحوص العجلى — ورجع بغنائم كثيرة إلى طرابلس ، وكان ذلك سنة مائة واثنين واربعين هجرية.

هذه لمزة خفيفة ، قد يكون الأستاذ الزاوى استند فيها إلى مؤرخين لا يتحرون الحقيقة ، ولا يسجلون الوقائع كما هى .

وإلا فإن الأستاذ الزاوى يعلم أن أبا الخطاب لا يستحل أموال البغاة من المسلمين، ولا يسمح لجنده أن يغنموا منها شيئاً، وقضية أبى الخطاب مع جميل السدراتى واضحة الدلالة فى هذا الموضوع .

فإن أبا الخطاب بعد أن انتصر على ورفجومه فى القيروان، واستسلمت له المدينة، تفقد القتلى فوجد واحداً منهم مسلوباً وسأل عن السالب فلم يعرفه، فأصدر أمره فى الجيش أن يرد السلب الذى أخذ من القتيل، ولكن أحداً لم يبادر إلى رد ما سلب، وفى الطريق جرى سباق بين الفرسان واشترك فيه جميل السدراتى، فشاء له سوء حظه أن يسقط عن فرسه ويتكشف سرجه عن المتاع المسلوب، فأخذه الإمام وأجرى عليه الأدب، وغضب جميل وفر إلى العراق، وبقى سنة كاملة فى بغداد يحرض الخليفة أبا جعفر المنصور على أبى الخطاب لينتقم لنفسه .

هذه قصة جميل السدراتى ملخصة . وإن إماماً يعاقب فرداً واحداً من الجيش غره الشيطان فأخذ سلب قتيل، لا يمكن أن يغنم الغنائم الكثيرة، ويرجع بها إلى طرابلس .

على أن سيرة أبى الخطاب فى الحروب معروفة، وحكم الإسلام فى هذا واضح لا غموض فيه ولا إبهام .

وتاريخ الإباضية فى حروبهم مع الموحدين جرى على نسق واحد لا طغيان فيه ولا تعدى، ولا استحلال لعرض أو غنيمة لمال .

وكما نظفت يد أمير المؤمنين على بن أبى طالب من أموال أتباع طلحة والزبير وأموال معاوية، وجميع من حاربه من المسلمين؛ كذلك نظفت أيدى الإباضية من أموال محاربيهم، وإنك لتستطيع أن تضع كشفا بأسماء من ولى الحكم فى

ليبيا من الإباضية، فتكتب أسماء : الحارث بن تليد : أبى الخطاب عبد الأعلى : أبى حاتم الملزوزى : أبى منصور إلياس : أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى : أبى الحسن أيوب بن العباس : أبى زكرياء التندميرى : أبى زكرياء البارونى : أبى يحيى الأرجانى : أبى محمد الدرفى : أبى عبد الله اللالوتى ، وعشرات غيرهم ، فسوف تجد أن هؤلاء جميعاً يحرصون كل الحرص — عند ما ينتصرون على محاربيهم من الموحدين — أن لا يتعدوا فيهم حكم الله فلا يقطعون رأساً ، ولا يمثلون بقتيل ، ولا يجهزون على جريح ، ولا يتبعون مدبراً ، ولا يغنمون مالا ، ولا يهتكون ستراً .

وقد شهدالتاريخ أن أبا الخطاب عاقب الجندى الذى مد يده ليسلب قتيلا، وأن أبا حاتم هدد بترك القيادة إن لم يرد ما أخذ من المعركة ، وأن أبا منصور ترك أحمال الذهب تتناثر فى ميدان المعركة دون أن يلتفت إليها ، وأن أبازكرياء جمع ما تركه العدو الهارب من مال وسلاح فأوقد فيه النار ؛ وإن قوماً يقفون هذه المواقف لا يصح أن يقول الأستاذ الزاوى فى رئيسهم :

« ورجع بغنائم كثيرة إلى طرابلس » .

٦ — يقول الأستاذ الزاوى فى نفس الكتاب صفحة ١٢٢ :

« ومهما بلغت كثرة جيش يذهب من مصر ليغزو أفريقيا ، فلا يمكن أن يصل واحداً من عشرين من جيش البربر ، الذى يمكنهم أن يعدوه لمقابلة هذا الجيش ، ولكن النصر بيد الله والله مع الصابرين . »

هذه زاوية كثيراً ما يلجأ إليها الأستاذ الزاوى ، وهو يريد أن يوحى إلى القراء الكرام أن الثوار الذين يقاومون ظلم الاستبداد مبطلون ، وهو يزعم أن

الجيوش الثائرة أوفر عدداً من الجيوش الظالمة ، فإذا انتصر العدد القليل فذلك يعنى أن الحق بجانبهم ، ولندع النصر والهزيمة بيد الله ، فإن حكمة الله فى مداولة الأيام بين الناس لا يعلمها إلا هو .

ولكنه يحق لنا أن نناقش الأستاذ الزاوى — الذى يدعى أن الخلافة العباسية لا تستطيع أن تجهز جيشاً يبلغ واحداً من عشرين مما يستطيع البربر أن يعدوه — وأن نفند له هذا الزعم استناداً إلى منطق الواقع ، ودلالة التاريخ ، ومجرى الحوادث ، غير خاضعين للعواطف ، ولا متأثرين بالإيحاء .

كلمة الأستاذ الزاوى السابقة وردت تعليقا على الحروب التى وقعت بين محمد بن الأشعث القائد العباسى ، وأبى الخطاب الذى بايعه الليبيون إماماً .

فما هى إمكانيات كلا الرجلين ؟ وما هو عدد الجند الذى يستطيع أن يعده كل واحد منهما ؟

تتلخص إمكانيات أبى الخطاب فيما يأتى : —

( ا ) حكم أبى الخطاب يمتد ما بين القيروان وسرت ، ويشمل الجنوب الليبى التونسى .

(ب) كثير من القبائل البربرية لا تخضع لحكم أبى الخطاب حتى فى هذه البلاد ، ولا سيما من كان منها على مذاهب الإزارقة ، أو الصفرية ، أو المعتزلة .

( جـ ) عدد السكان فى هذه المملكة لا يكاد يبلغ ربع سكان مصر فقط .

( د ) ليس لأبى الخطاب جند تتكفل الدولة بالإنفاق عليه ويبقى مستعداً للحرب على الدوام ، وإنما يعتمد أبو الخطاب على المتطوعين الذين

يحاربون من أجل المبدأ ، أو من أجل العقيدة ، فإذا دعاهم داعى الجهاد ، زودوا أنفسهم وسلحوها ، وذهبوا إلى الحرب دون أن يكون لهم أمل فى مكسب مادى مطلقاً ، فلا أجرة ولا غنيمة ، فإذا انتهت الحرب رجعوا إلى أعمالهم الحرة .

هذه إمكانيات أبى الخطاب تقريباً ، أما إمكانيات محمد بن الأشعث فتتلخص فيما يلى :

( ا ) إن الجيش الذى جاء به محمد بن الأشعث إنما جهزه أبو جعفر المنصور

(ب) يخضع لأبى جعفر فى ذلك الحين : العراق والشام . والجزيرة العربية ومصر والمغربان : الأوسط والأقصى .

(ج) سكان مصر وحدها يبلغون أربعة أضعاف سكان مملكة أبى الخطاب

(د) لأبى جعفر جند تحت السلاح تدفع الدولة لهم مرتبات دائمة ، وعند اللزوم تلتجىء إلى التجنيد الإجبارى .

(هـ) جهز أبو جعفر هذا الجيش بقيادة محمد بن الأشعث بعد تحريض من خالد الزناتى الذى أراد الانتقام .

هذه بعض الإمكانيات التى كانت تحت يد محمد بن الأشعث ، وبالنظر إليها يتضح للقارىء الكريم أن ابن الأشعث يستطيع أن يجهز جيشاً يبلغ عدد سكان مملكة أبى الخطاب — لا عدد جنده فقط — ولا تزال هذه الحقيقة باقية إلى اليوم ، فإن سكان المغرب كله بما فيه ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الأقصى ، قد لا يزيدون عن سكان مصر وحدها ، فكيف تكون النسبة عندما يكون القسم الأول مقتصراً على بعض ليبيا وبعض تونس ، ويضاف إلى القسم الثانى : الشام ، والعراق ، وما يتبعها .

من هذا ترى أن الأساس الذى يبنى عليه الأستاذ الزاوى فكرته لاظل له من الحقيقة .

ولقد ينخدع القارئ البسيط من التهويل الذى يعتمد عليه الزاوى ؛ ولكن معرفة هذه البلاد اليوم وما تشتمل عليه من سكان ، وما هى الجيوش التى يمكن أن تعدها ينسف تهاويل الأستاذ الزاوى ، ويذيب الإيهامات التى يريد أن يوحى بها .

أما قضايا النصر والهزيمة بين الجيوش المتحاربة فتلك أمور بيد الله ، ولها أسبابها ودواعيها ، وليست الكثرة أو القلة ، والنصر أو الهزيمة هى دلائل الحق دائماً ، ولا سيما عند ما تكون الحروب بين فرق من المسلمين ، ولقد انتصر الأمويون على الحسين ولد بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلوه ، وقطعوا رأسه ، فهل يعنى ذلك أنهم على حق وأنه على باطل ؟

وفى هذه المعركة التى انتصر فيها ابن الأشعث على أبى الخطاب نستطيع أن نعرف الأسباب التى أدت إلى نتائجها التاريخية ، وتتلخص تلك الأسباب فيما يلى :

١ — ليس لأبى الخطاب جيش نظامى مقيم تدفع له المرتبات من خزينة الدولة ، ولا عمل له إلا الحرب .

٢ — يتكون المحاربون مع أبى الخطاب من المتطوعين الذين يحضرون عندما تعلن الحرب ، معتمدين على أنفسهم فى زادهم وسلاحهم ، وينصرفون عند نهاية المعارك ، ليقوموا بأعمالهم .

٣ — دعا أبو الخطاب الناس إلى ملاقاة محمد بن الأشعث فتكون له

جيش قوى ، ولما علم به ابن الأشعث أظهر أنه عدل عن محاربة أبى الخطاب ، وأمر جنده بالرجوع إلى مصر ، وقتل من عارضه فى فكرة الرجوع .

٤ — وليس ذلك كله إلا حيلة يفرق بها جيش أبى الخطاب ، ولما سمع أتباع أبى الخطاب برجوع ابن الأشعث ذهبوا إلى أعمالهم — لا سيما والوقت كان وقت حصاد زرع ، فلم يبق معه إلا عدد ضئيل ممن ليست لهم أعمال مستعجلة ، وما علم ابن الأشعث بانطلاء حيلته على جيش أبى الخطاب ، وتفرق الناس عنه ، حتى أغذ السير راجعاً ، وفاجأ أبا الخطاب فى قلة ، فأعمل فيهم السيف ، وكان الناس يتسامعون برجوع ابن الأشعث ووقوع الحرب بينه وبين إمامهم ، فيقبلون إلى موطن الحرب فرادى وجماعات ، فيتلقاهم ابن الأشعث وهو مستقر مطمئن ويبيد هذه الجماعات المقبلة ، حتى بلغ عدد القتلى فى بعض الروايات أربعة عشر ألفاً ، وليست هذه الوقعة حرباً كالحروب التى تقع بين جيشين متصادمين ، ولكنه حكم بالقتل على ناس يجهل أكثرهم الظروف التى هو مقدم عليها ، ولكى تتصور حقيقة الموقعة ضع فى حسبانك جيشاً يتكون من خمسين ألفاً على أقل تقدير ، يهجم على بضعة آلاف — على حين غفلة — فيقتلهم عن آخرهم ، ثم يبقى متربصاً فتقدم عليه شراذم من الناس فى جماعات تتكون من العشرات — لا من المئات — فيتلقفهم جماعة بعد جماعة ، حتى لا يجد المزيد ، وحينئذ يسير بهذا الجيش الكبير يتتبع السكان فى القرى ، وفى المدن ! وفى البادية ، يقتل ويسلب ويغنم .

٥ — تلك هى صورة الموقعة ، ولا داعى فيها للإيهام أو التضليل ، وتكثير بعض الجيوش ، وتنقيص غيرها ، فإن الكثرة أو القلة فى هذا الصدد لا قيمة لها .

٦ — ولعل أول من خطرت له فكرة الاحتجاج بالقلة والكثرة ، واعتبر انتصار القلة دليلا على الإيمان ، هو الشاعر الخارجى حيث يقول :

أألفاً مؤمن فيما زعمتم ويغلبهم باسك أربعونا
كذبتم ليس ذلك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا

فماذا يجيب الأستاذ الزاوى على هذا الشاعر ؟

إننى أرجو أن لا يضيق تفكير الأستاذ الزاوى هذا الضيق فيعتنق هذا الرأى .

٧ — يقول الأستاذ الزاوى فى نفس الكتاب صفحة ١٤٦ : « وإن دلت هذه الخرافة على شىء ، فإنما تدل على الطعن فى رواية الأخبار ، وقلة التحرى فى نقلها » .

يقول الأستاذ الزاوى هذا الكلام تعليقا على خبر نقله فى كرامة نسبت إلى العلامه الكبير الشيخ مهدى الويغوى النفوسى ، وقد نقل القصة الشماخى فلم يبد فيها رأيا ، ونقلها سليمان باشا البارونى فعلق عليها بقوله : «وإن لله خرق العوائد فلا غرابة» ويظهر أن هذا التعليق من سليمان باشا هو الذى أغضب الأستاذ الزاوى ، فعلق عليها بالتعليق السابق ، بل لقد اختبرها بمقياس العقل والمنطق ، فلم تثبت فى الاختبار .

ويؤسفنى حقا أن يحيد عن الإنصاف مؤلف مسلم فى هذا العصر ، فينصب نفسه حكما فى التاريخ يثبت هذا أو يسقط ذاك ، فالأستاذ الزاوى نفسه الذى يستكثر هذه الكرامة على مؤمن من المؤمنين ينقل عدداً غير قليل من هذه الكرامات لأشخاص آخرين رضى عنهم؛ بعضها أغرب من هذه الكرامة التى

يكذبها ويجعلها خرافة ، وأنا حين أتحدث عن الكرامة سواء منها مانقله الباروني أو مانقله الشماخي أو مانقله الزاوى أو ماوجد فى كتب التاريخ لغيرهم، احترس ، فلا أزعم أننى أكذبها مادام أصحابها مشهورين بالصلاح ، معروفين بالتقوى .

إن الأستاذ الزاوى الذى يستكثر أن تنسب الكرامة إلى مهدى النفوسى، ويحسب ذلك خرافة ويجعل ، نقلها سببا للطعن فى أخبار ناقليها وعدم تحريهم ، هو نفسه ينقل عدداً غير قليل مما يسميه كرامات فى كتابه « أعلام ليبيا » وينقل فى كتابه « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا » مايلى :

« جاء فى رياض النفوس : أن عقبة قال فى ندائه : أيتها السباع ؟ ادخلوا ! فإنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الناس فى ذلك اليوم إلى أمر عظيم نظروا إلى السباع تخرج إليهم من الشعراء تحمل أشبالها ، والذئب يحمل اجراءه والحية تحمل أولادها ، سمعا وطاعة » .

نقلت هذه القصة عن الأستاذ الزاوى لا لأكذبها ولكن لأبين للقارىء الكريم أن الأستاذ الزاوى لم يكن منصفا وهو يستعرض أحداث التاريخ ، فهو فى قصة مهدى يريد أن يخضع الكرامة للعقل والمنطق ، ولكنه فى كرامة عقبة ينسى العقل والمنطق .

وإلا فأى عقل اليوم يصدق أن رجلا يقف بجانب دغل ويأمر مابه من الوحواش بالخروج ، فتسمع له وتطيع ، ثم تبدأ فى تنفيذ الأمر والناس ينظرون ، فإذا بالسباع والذئاب تخرج من بينهم حاملة أجراءها ، وإذا بالحيات تحمل أولادها . فاذا صدق العقل هذه الهدنة التى وقعت بين الوحوش فكانت تخرج

أسرابا مع بعضها البعض لا يثب الذئب على الظبى ، ولا يعدو الأسد على الوعل، وقبل هذا الموقف الذى يصور الوحوش وهى تستعرض رشاقتها ؛ فتخرج بين صفوف من الناس الذين وقفوا يمتعون أنظارهم بهذا المنظر الفريد .

إذا قبل العقل كل ذلك وطلب إلى هذا الرجل الذى روى القصة وشاهد الحيات تحمل أولادها وهى منطلقة فى زحفها خارج الدغل أن يصف كيف تحمل الحيات أولادها ؟ هل تربطها على ظهرها وهى خارجة تتلوى ، وهل كانت تركبها على الطول أم العرض ، أم أنها تمسكها من أذنابها الدقيقة وتجرها معها ، وهل كانت عاطفة الأمومة عند الزواحف فى ذلك الحين أقوى منها الآن ، بحيث تحضن بيضها وتنتظره حتى يفقس فتتولى تلك الفراخ الزاحفة بالرعاية ، حتى إذا انتقلت نقلتها معها ؟ .

أليست هذه القصة مما لا يقبله العقل ، ألا يدل نقلها على عدم التحرى فى نقل الأخبار . . .

إننى لا أستكثر على عقبة بن نافع هذه الكرامة أو أكبر منها أو أصغر ، ولا أستكثر على غيره من المؤمنين الصادقين أن يفيض الله على أيديهم ما يشاء من الأسرار .

ولكننى أحادث الأستاذ الزاوى بالعقل الذى يحتكم إليه حينا ويتركه حينا آخر ، أما أنا فأحسب أن الكرامة غير خاضعة لمقاييس البشر ، فاذا أردنا أن ندخلها فى حساب التاريخ فعلينا أن ننقلها كما رويت لا نزخرفها بالخيال ، ولا نشوهها بالنقد ، ولا نستكثرها على رجل اشتهر بالتقوى والصلاح ، فإن ينابيع

رحمة الله وقبول أعمال شخص من الأشخاص ومنزلته عند الله مما لم يكشف عنه الغيب ، ولم ترفع عنه الحجب .

والعلماء الذين تحدثوا عن كرامة الأولياء ذهب أكثرهم إلى أن الكرامة لاتأتى مع التحدى فتنقلب معجزة . كما أنها لا تكون تابعة للرغبة والإرادة ، ولا تكون بحال من الأحوال لصاحب معصية . . .

وكيفما كان الحال فإن المؤرخ النزيه يجب أن يكون له خلق يعصمه من التجنى على عباد الله ، وأن يتخذ لنفسه مبدءاً يسير عليه ، ويحتكم إليه متجرداً عن رواسب العصبية المجنونة .

٨ — يقول الأستاذ الزاوى فى نفس الكتاب صفحة ١٦٤ :

« أما الإباضية فكان موقفهم من الشيعة هو موقفهم من أهل السنة ، موقف التحفظ ، وعدم الامتزاج ، والنظر إلى غير العنصر البربرى نظرة الغريب المحتل ، وعلى هذا دأبوا ، ولم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا » .

هذه لمزة لئيمة من الأستاذ الزاوى ، وهى تناقض نفسها ، فبينما يقرر فى أول هذا الفصل نفسه : أن دولة الشيعة دولة بربرية ، يقول : إن الإباضية يقفون معها موقف التحفظ وعدم الامتزاج ، ثم يزعم أن الإباضية ينظرون إلى غير العنصر البربرى نظرة الغريب المحتل .

لماذا ينظر الإباضية إلى الشيعة نظرة الغرباء ، ويقفون معهم موقف التحفظ وهم بربر ، لو كان للجنس عندهم حساب ؟

عجباً : إن الإباضية يقاتلون « ورفجومة ، وصنهاجة ، وكتامة » وهى أكبر قبائل البربر ، ومع ذلك يرميهم الأستاذ الزاوى بالتعصب العنصرى للبربر ،

ثم يزعم أنهم دأبوا على هذا التعصب العنصرى ، وأنهم لم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا ، وهو بهذا الكلام يناقض نفسه ، فبينما يزعم فى صفحة ١٦٤ : أن الإباضية لم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا يقول فى نفس الكتاب صفحة ١٢٦ : « وكان الإباضية أقرب طوائف البربر إلى العرب ، وأقل نزاعاً معهم ، ولذلك نجد أكثر الثوار على أمراء أفريقية العرب من الصفرية وغيرهم من النحل المتطرفة » . انتهى كلام الزاوى بحروفه .

إننى أضع هذا الكلام المتضارب المتناقض أمام القارئ الكريم ليعلم أن الزاوى حينما كان يكتب التاريخ الليبى لم يكن رائده الإنصاف والحق ، وأنه لم يحمل نفسه عناء التفريق بين أجناس الناس ومذاهبهم الدينية ، ومبادئهم الاجتماعية أو السياسية ، وأنه كثيراً ما يعمد إلى الغموض والإبهام للتمويه ، وأنه لم يصدق فى تعليل الأحداث التاريخية ، لأن قضية العنصرية كانت تشغل كل حيز فى تفكيره ، فهو لا يقيس حياة تلك العصور إلا بهذا المقياس ، لا يبالى فيها الحق أو الخلق أو الدين .

وإنها لحقيقة تاريخية أن يعرف الأستاذ الزاوى أن الإباضية لم يفكروا يوماً من الأيام فى الجنس البشرى الذى ينتسبون إليه ، ولم يفرقوا بين البربر والعرب وغيرهم من الناس ، فهم يعتبرون المسلمين إخوة ، يتولون من تثبت عندهم عدالته واستقامته ، ويبرأون ممن يثبت عندهم عصيانه وفسوقه ، ويقفون فيمن لا يعرفون موقف التحفظ؛ هذا الموقف المحدد الذى يقفه الإباضية مع العرب، ومع البربر ، ومع الترك ، ومع الهنود ، ومع غيرهم من الأجناس ، ولو راجع الأستاذ الزاوى أحداث التاريخ التى رواها هو نفسه ، ونزه قلمه وقلبه من الرواسب التى تركتها فيهما عنصرية بغيضة ، لرأى أن الإباضية لم يتأثروا فى أى يوم بجنسهم ، لأنهم هم أنفسهم يتكونون من عرب وبربر وفرس وغيرهم،

وأن تحفظهم إذا تحفظوا فى موقف مع فرقة من المسلمين تخالفهم فى المذهب، فذلك راجع إلى أصولهم الدينية فحسب ، كما تتحفظ كل الفرق بالنسبة إلى مخالفيها .

والحروب التى دفع إليها الإباضية فى ليبيا أو تونس أو فى الجزائر كان أكثرها مع البربر لا مع العرب ، كما أن الحروب التى دفعوا إليها فى عمان أو فى العراق أو الجزيرة كانت مع العرب .

ومن هذا يتضح أن ما يريد أن يوحى به الأستاذ الزاوى من تفريق كلمة الأمة باطل من أساسه ، وأن كلمته : «ولم تسنح لهم فرصة للثورة إلا ثاروا» لمزة لئيمة متجنية يكذبها الواقع والتاريخ أشد تكذيب ، ولعله من المناسب أن استشهد فى هذا المقام بالكلمة الرائعة التى علق بها أمير السيف والبيان سليمان باشا البارونى — أعظم رجل أنجبته ليبيا فى تاريخها الطويل — على « سلم العامة والمبتدئين » قال الباشا البارونى فى تعليق له على الانقلاب السلمى الذى قام به الإباضية بقيادة أبى الخطاب عبد الأعلى :

« ربما يفهم من لا علم له ، من مثل هذه الحركة ، أن الإباضية يوجبون الخروج على كل حال ، أو يوجبون أن يكون الإمام منهم لا بد فى كل وقت ، وغير ذلك ، مما هو من قواعد الصفرية والأزارقة ، والشيعة التى هى كثيراً ما نسبها متعصبو المؤرخين للإباضية ، وليسوا منها على شىء ، وكتب الإباضية تشهد بذلك » .

فالإباضية ليسوا منغلقى الذهن ، فيتجاهلون العالم الإسلامى الفسيح ، وما يضطرب فيه من آراء وأفكار واتجاهات وقوى ، ولذلك فعندما يكون السلطان منهم يوجبون عليه أن يسير سيرة العدول فى المسلمين باختلاف مذاهبهم ونحلهم ، وإذا كان السلطان من غيرهم من الفرق المسلمة يتعاونون معه فى إخلاص ، مادام محافظا على حدود الله ، قائما بدين الله على مذهبه ، فإذا انحرف عن ذلك فإن

الإباضية لن يتعاونوا مع منحرف عن دين الله ، فإذا بلغ به الطغيان إلى استحلال الدماء والأموال التى حرم الله ، فزع الإباضية إلى سيوفهم ، فردوا عدوان المعتدين إلا إذا لم يستطيعوا .

وهذا الموقف هو موقف الإباضية بالنسبة إلى ولاة الأمور : سواء كانوا أشعرية ، أو شيعة ، أو معتزلة ، أو إباضية ، أو من غيرهم من الفرق ، فهم إنما يطلبون من ولاة الأمور استقامتهم وعدلهم واهتمامهم بقضية الأمة ، ولا يهتمون لمذاهبهم وأجناسهم .

ومن رجع إلى جميع الثورات التى قام بها الإباضية فى ليبيا والتمس أسبابها فإنه لن يجد إلا ردًّا لعدوان أو طلباً لحق ، ولن يجد فى تلك الأسباب نزاعاً على سلطة أو طلب الدنيا ، أو رغبة فى مال .

٩ — يقول الأستاذ الزاوى فى نفس الكتاب صفحة ١٧٣ :

« وكان معه — أى مع المعز — جماعة من الإباضية، فهربوا إلى إخوانهم فى جبل نفوسة ، فلم يبالهم ، وحمد الله أن طهر جيشه من المنافقين » .

هكذا يقول الأستاذ الزاوى ، لا يخشى الله ، ولا يستحى من الناس .

إن المعز أذكى من أن يطمع فى أن يكون فى جيشه ناس من الإباضية يساعدونه على الظلم ، ويقومون معه بالعدوان ، ولذلك فهو لم يطالبهم بذلك ، ولم يرجه منهم ، وما حفظ التاريخ أن الإباضية دخلوا فى جند مرتزقة ، يعملون فيه بأجر دنيوى ، إنهم إما أن يحاربوا من أجل أعلاء كلمة الله فلا يتقاضون على ذلك أجراً من غير الله وحينئذ لا يكونون أعواناً لظالم كالمعز ، وإما أن يحاربوا دفاعاً عن أنفسهم .

أما أن يكونوا آلة يسيرهم طلاب الشهوات وعبيد الدنيا من ملوك الأرض فذلك ما لم يسجله عليهم التاريخ فى يوم من الأيام قبل الحروب الإيطالية فى ليبيا.

أما هؤلاء النفر الذين قبض عليهم المعز — وهو مرتحل إلى مصر — خوفا من أن يقوضوا دعائم ملكه من بعده ، فلما وصل طرابلس وجدوا غرة من حرسه ، ففروا إلى إخوانهم ، واعتصموا بالجبل المنيع الذى صمد للعدوان قروناً متطاولة — أما هؤلاء النفر فليسوا من جند المعز كما أراد أن يوهم الأستاذ الزاوى ، ولا من الذين يقبلون مساعدة الظالمين على الظلم ، ولكنهم كانوا من الشخصيات القوية ذات النفوذ ، وكان يخشاهم فى مغيبه ، ولذلك حرص أن يأخذهم معه ، فلما هربوا منه إلى الجبل أقض ذلك مضجعه ، ولكنه كان لا يستطيع صنع شيء مع أولئك الأبطال الذين يعتصمون بالقمم الشماء ، فإن الجبل كان ملجأ للأحرار عندما تضيق بهم مواطن الطغيان ، وفى هذه الحادثة التجأ إلى الجبل عدد غير قليل من عسكر المعز ، من مختلف المذاهب والطوائف ، كما التجأ إليه زعماء الإباضية .

قال الأستاذ أحمد النائب فى تاريخه « المنهل العذب » صفحة ١٠٠ :

« وسار — أى المعز — إلى طرابلس ، ومعه جيوشه وحواشيه ، فهرب منه جمع من عسكره إلى جبل نفوسة . فطلبهم فلم يقدر عليهم . »

وهذا نص يكذب زعم الزاوى: أن المعز لم يبال الجند الفار إلى جبل نفوسة، ولكنه طلبهم فعجز عنهم .

بقيت الكلمة الأخيرة التى انطلقت من الأستاذ الزاوى كما تنطلق كلمة السب من المغيظ المحنق ، وهى قوله : « وحمد الله أن طهر جيشه من المنافقين ».

هل فكر الأستاذ الزاوى قبل أن يرمى هؤلاء الناس بالنفاق ، وحاسب نفسه وضميره ، وعرف الحقيقة التى كان عليها القوم .

إن الحكم بالنفاق على رجل يؤمن بالله ليس أمراً سهلا ، فهل يسمح لنا الأستاذ الزاوى أن نستعرض الموقف التاريخى فى ذلك الحين على حسب ما يتصوره الزاوى نفسه ، ونرى ما هو الحكم الدينى الصحيح الذى يمكن أن نطلقه على أولئك الناس الذين تفصل بيننا وبينهم عشرة قرون ..

هذا ملك غرته الحياة الدنيا ونسى أنه بشر ضعيف ، وخدعه الشعراء بقولهم فيه :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

هذا الملك المغرور الذى يستمع إلى الكفر الصراح يمدح به ، يجهز جيشاً ينفق عليه الملايين من أموال الأمة ، ليحارب به المسلمين فى مصر وسوريا ، فإذا كان ببعض الطريق يفر جمع من هذا الجيش الذى يرغم على محاربة الإخوان فى الدين،ويلتجئون إلى حمى منيع لا تصله يد هذا الملك ، فما هو الحكم فيهم ياترى؟

إن الاستاذ الزاوى يحكم عليهم بأنهم منافقون ؟

فما هو الإيمان إذن فى نظر الزاوى ؟ إنه استعباد الناس ، واستحلال دمائهم وأموالهم ، ومشاركة الله فى ملكه ، والعدوان والبغى ، والظلم ، فتلك هى أعمال أولئك الذين يرى الزاوى أن الخروج عليهم نفاق ، ذلك هو المعنى الذى يسلم إليه منطق الاستاذ الزاوى .

ولكننا نظن بالأستاذ الزاوى خيراً ، ونحسب أن المقاييس لم تنقلب عنده

هذا الانقلاب ، ولكنه رجل مخدوع بالمظهر ، فهو يحسب أن مخالفة الحكام وعدم الانقياد لهم حتى فى ارتكاب المعصية أمر لا يصح ، ومن خرج عن طاعة ولاة الأمر — ولو كانوا ظلمة فاسقين — حكم عليه بالنفاق ؛ وهذه وجهة نظر ذهب إليها كثير من الفقهاء المرتزقة ، والسائرين فى ركاب الظالمين ؛ يبررون أعمالهم ، ويمهدون لسلطانهم .

وقد يكون الأستاذ الزاوى أحد هؤلاء الذين يعجبون بذوى السلطان كيفما كانوا .

لو كان هذا المعز يقود الجيش للجهاد فى سبيل الله ، ومحاربة أعداء الإسلام لوقفنا مع الأستاذ الزاوى نشيد بأعمال هذا السلطان ، ولكن هذه الجيوش موجهة إلى محاربة أمة مسلمة فى وطن مسلم ، تحكمها دولة مسلمة ، ليس سلطانها أسوأ من السلطان الغازى ، فكان معقولا أن يحكم على هذا الغازى بالنفاق ، وعلى من رغب من جيشه فى هذا العدوان ورضى به .

هذه لمزات قليلة أعرضها على القارىء الكريم من كتاب واحد من كتب الزاوى ، ولا يزال فى الكتاب عدد غير قليل من هذه اللمزات تدق ، حتى تكاد أن تختفى ، وتستعلن حتى تنطلق فى صورة سباب أو شتيمة ، وفيما اطلعت عليه من كتب الزاوى التاريخيه كثير من هذا التجنى على الحقيقة وعلى التاريخ .

ويؤسفنى وأنا أناقش الأستاذ الزاوى مناقشة الأخ لأخيه ، أن أضطر إلى العنف أحياناً ، فإن لؤم بعض العبارات ، وإيغالها فى إيقاد الفتنة ، ومحاولتها للتفريق بين عناصر الأمة ، لا تترك فى صدر الحليم مكاناً للصبر .

لقد كنت أرجو من الأستاذ الزاوى أن يوجه نظر الأمة إلى عدو الإسلام الخارجى ، وأن يدعو إلى تكوين كتلة واحدة من أمة واحدة .

**« وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدن »**

وإذا كان الكتاب الكريم يقرر أن جميع الأمم التى استجابت لرسل الله فى مختلف أدوار التاريخ هى أمة واحدة ، فكيف بالفرق التى استجابت لمحمد صلى الله عليه وسلم .

إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى هذه الأمة التى تنتشر ما بين الهندو المحيط الأطلسى ، بجميع أجناسها ، وألوانها ، وأشكالها ، ومذاهب أهلها ، لا يخرج منها إلا شخص لم يؤمن بالله أو برسالة محمد ، فهو لا يزال مرتهنا بكفره ، مرتكسا فى رجسه ، أو شخص غرته الدنيا فأسلم زمام نفسه للشيطان بعد أن آمن بالله ، فانحرف بعمله عن دين الله ، فالأمة تنتظر منه أن يهجر الموبقة ، ويعاود التوبة ، ويعود إلى صفوف الأمة .

وإنه لواجب على علماء الإسلام أن يطهروا قلوبهم من العصبية ، وآراءهم من السطحية ، وأحكامهم من التبعية ، وأن لا يحكموا بالخطأ أو الصواب الجماعى دون تفريق بين عمل الفرد ورأى المذهب .

وأن يدرسوا آراء جميع الفرق والمذاهب كما وردت فى مصادرها ، وأن يزنوها بالميزان الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . .

# المجتمع المسلم

فى الفصول السابقة من هذا الكتاب ، قدمت لك أيها القارىء الكريم صوراً حقيقية عن الرجل المسلم الإباضى ، انتزعتها من مجرى حياته اليومى ، وقد تتبعت سلوكه فى أحواله المختلفة ، عند ما يكون على رأس دولة مستقلة كاملة الاستقلال ، وعند ما يكون قائداً للجيش يدخل معامع الحرب فينتصر أو ينهزم ، وعندما يكون حاكما على قطعة من أرض الوطن ، ينفرد بها ، أو يرتبط برئيس أعلى ، وعندما يكون جندياً بسيطاً يسير مع الجحافل الجرارة لدفاع أو هجوم ، وعندما يكون داعية يحمل رسالة الإسلام ، وليس له إلا دينه وخلقه وعلمه ، وعندما يكون عالماً يغذى عقول الشبيبة بالمعرفة والعلم ، وقلوب الكهول بالوعظ والإرشاد ، ويذود عن دين الله جراثيم البدعة والخرافة والجهل ، وعندما يكون طالباً يتخطى رقاب الزملاء فى ميادين العرفان ، وعندما يكون عاملا يشتغل بالزراعة أو الصناعة أو التجارة ، وعندما كان يكافح فى أى سبيل من سبل الحياة ، وفى المخطط الذى وضعه الإسلام لأبناء الإسلام . . .

قدمت لك صوراً من حياة الرجل الإباضى فى جميع ميادين الحياة ، التى سار فيها أولئك الناس ، كأفراد وكمجموعات ، وكأمة . . .

وقدمت لك صوراً من حياة المرأة الإباضية فى سلوكها المستقل لنفسها ، وفى سلوكها فى نظام الأسرة ، وفى سلوكها فى مجتمعها الضيق ، وفى سلوكها باعتبارها فرداً من الأمة ، وبعد اطلاعك على الصور التى أخذتها لك من واقع

الرجل ، والصور التى أخذتها لك من واقع المرأة تستطيع أن تتبين ملامح المجتمع الإباضى ، وهو يشق لنفسه طريق الحياة فى موكب التاريخ الضخم .

و بعد أن وضعت بين يديك أيها القارىء الكريم هذه الصور من حياة الأفراد التى منها جميعاً تتكون الصورة الكاملة لحياة المجتمع ، بعد هذا أريد أن أتحدث معك عن موضوع تعرفه حق المعرفة ، لتقيس عليه تلك الصور التى وضعت بين يديك فى الأحاديث السابقة ، علك تستخرج من المقارنة بعض الحقائق التى تهم المفكر المسلم .

أريد أن أتحدث إليك عن المجتمع الإسلامى النظيف قبل أن ينحسر عنه ذلك المد الفياض من هداية النبوة والسيرة الرشيدة لخلفاء محمد عليه السلام ، فيتطرق إلى ذلك المجتمع فساد الحكم ، وظلام الظلم ، وانحلال الخلق ، وأدران الرفاهية والترف ، وما يجر كل ذلك من النكبات . .

فما هى الصورة التى يجدها الباحث لذلك المجتمع الذى كونه رسول الله صلى الله عليه ، وغذاه بهداية الوحى وأخلاق النبوة ؟

ما هى حياة الرجل ؟ . . وما هى حياة المرأة ؟ وما هى صورة المجتمع الذى يتكون منهما ؟

كان الرجل فى ذلك العهد الزاهر بطلا فى الميدان ، يكافح فى سبيل الله لنشر الإسلام والسلام ، وطالب علم يُقبل على حفظ ما تيسر من كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وربَ أسرة يشتغل فى تجارة أو زراعة ليمون أهله من أشرف سبيل . وعبداً من عباد الله يؤم المسجد ليعبد الله كأنه لم يخلق إلا للعبادة ، وأخاً عطوفاً يمتلىء قلبه بمحبة مجتمعه ، فيذوب فى خدمته ، ويضحى بمجهوده له .

ولو أتيح لك أن ترجع إلى ذلك العصر لتبحث عن واحد من أولئك الناس الذين اختارهم الله لصحبة نبيه لما وجدته فى غير بعض الأحوال السابقة . . .

إنك لن تجده بين المقاهى يتسكع ليقتل الوقت . . .

ولن تجده فى الحانات يعب مما حرمه الله . . .

ولن تجده يطوف على المحال المشبوهة كما تطوف الكلاب على مواطن الجيف . . .

ولن تجده يتردد بين دور القضاء والمحاماة يبتكر فيها الأساليب التى يغتصب بها حقوق الناس .

ولن تجده يتخذ كل الوسائل فى المعاملات لتروج تجارته ، وتنمو أرباحه ، وتتكدس عنده الأموال ، وهو فى ذلك لا يسأل عن الحرام والحلال . . .

ولن تجده يسعى بين إدارات الشركات يحتال عليها ليبتز منها الأموال التى تختلسها تلك الشركات من الثروة الطبيعية للأمة ، ولن تجده يصارع البنك والبورصة ويكد فكره طول النهار وزلفاً من الليل فى تدبير المقالب ليزيد إلى المال الحرام الذى يملكه مالا جديداً ، فإذا رجع إلى بيته رجع مكدوداً ميت الروح ، فأوى إلى المضجع ونام فيه نوماً ثقيلا طويلا ، ولا يستيقظ منه إلا بعد أن يرتفع الضحى ليبدأ الاستعداد للعمل من جديد ، وهو فى كل ذلك لا يذكر ربا ولا يؤنس أهلا ، ولا يؤدى لهم واجباً . . .

ولن تجد فى المجتمع الذى كونه رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحاكم الذى يتعالى على الناس ، ويحتجب دونهم ، ويحسب أن له ميزة على أفراد

الأمة ، ويظن أن هذا المنصب الذى أعطى له بأمانة الله يخوله حق التصرف فى أموال الناس وأموال الدولة بغير حق .

ولن تجد فى ذلك المجتمع هذا الموظف الذى تراه غارقاً إلى أذنيه فى كرسى هزاز ، يقرأ جريدة سيارة ، أو ينتفخ لاستقبال المتزلفين ، أو يحادث زملاءه فى العمل ، ومصالح الأمة ضائعة ، ومشاكلهم متشابكة ، والتقارير المرفوعة إليه تثقل الرفوف وتنوء بها الخزائن . . .

إنك لن تجد فى ذلك المجتمع هذه الصور ، وأشباه هذه الصور .

إنك لا تجد الغنى الذى يبطره الغنى ، ولا الفقير الذى يذله الفقر ، ولا تجد الحاكم الذى يشرف بالمنصف ، ولا رجل الشعب الذى ينحط لأنه لا يحتل كرسياً فى جهاز الدولة ؛ إنهم أفراد متساوون فيما بينهم ، « تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » لا يرفع بعضهم عن بعض إلا عمل خير يتمنى كل واحد أن يكون السابق إليه ، ولا ينحط بعضهم عن بعض إلا بتقصير فى أمر الله ، أو أمر الأمة يصدر من أحدهم ، فيحمد الله باقيهم أن حفظه الله منه .

إن أعلى وظيفة فى الدولة لا تميز صاحبها عن بقية الناس ، ولا تعطيه أى حق لم يكن لغيره من أفراد الأمة ، ولا يرتفع بها عن أدنى رجل من المسلمين ، ولذلك فالمسلم عندما يتولى منصباً لا يزدهيه هذا المنصب ، وعندما يقال لا تؤسفه الإقالة ؛ بل لقد كانت المناصب زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن الخلافة الرشيدة قياماً بمهام عارضة ، يندب إليها أى فرد من المسلمين ، فإذا احتاجت الأمة إلى تجهيز جيش أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أى واحد من أصحابه بقيادة هذا الجيش ، حتى إذا تمت المهمة ورجع الجيش

منها أصبح القائد فرداً عادياً كسائر الناس ، فإذا احتاجت الأمة إلى تجهيز آخر، أشار صلى الله عليه وسلم إلى فرد آخر بتولى القيادة ، وأصبح القائد الأول جندياً عادياً ، يندفع إلى الميدان لحماية الرسالة العظمى دون أن يشعر أنه أهين بعزل ، أو يشعر الثانى أنه أكرم بالتولية ، وهكذا فى بقية الأعمال ، فعندما تحتاج الأمة إلى عامل ، أو قاض ، أو معلم ، او إمام ، أو غير ذلك ، يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى واحد أو جماعة من أصحابه ليقوموا بذلك ، وهو حين يسند إلى واحد منهم بعض تلك الأمور لا يوليهم فخراً ليس لبقية الأمة ، ولا يعطيهم عن عملهم ذلك أجراً مادياً ليس لإخوانهم مثله . ولذلك فهم لا يشعرون أنهم اختيروا أو فضلوا عن غيرهم من المسلمين ، إنها مهام الأمة يجب أن يقوم بها أى فرد من أفرادها ، ولا يراعى فى ذلك إلا الاستعدادات الفطرية ، والكفاءات العلمية والعملية ، ولكنهم مع ذلك متساوون ، لاتعاظم ولا أبهة ، ولا ترف ولا استغلال .

وليس موقف المرأة المسلمة فى ذلك الحين بعيداً عن موقف الرجل فى الميدان الذى هيئت لها طبيعتها الأنثوية ، فهى تقف ، دائما حيث يطلب منها واجب المسلمة أن تقف ، لا تطغى بها عرامة القوة فتدفع الرجل عن مقامه لتقوم فيه ، ولا يقعد بها الضعف إلى الاستسلام والإهمال والجهل ...

تتساوى مع الرجل فى الحقوق والواجبات والأعمال ، التى ساوى فيها بينهما الدين القويم ، والطبع الكريم ، وتنفرد بالحقوق والواجبات والأعمال ، التى هى من خصائص الأنثى ، وتبتعد عن الحقوق والواجات والأعمال التى هى من خصائص الرجال . . .

تربط بين أفراد الأسرة بنبل العاطفة ، وتغمرهم بالحنان ، وتملأ أرجاء

البيت بالمحبة ، وتعمر مساجد الله بالتقوى ، وتغترف العلم من منابعه الصافية باستقامة الخلق .

وقد ترافق الرجل فى مواقفه العنيفة لتخفف عنه الألم ، وتداوى منه الجراح ، وتبعث فى نفسه الحماس ، وتمده بروح الجلد والقوة والكفاح ، وقد تساعده فى عمله اليومى إذا كان ذلك لا يرهق أعصابها ، ولا يذيل حجابها ، ولا ينافى طبيعتها ، ولا يمتص منها عناصر المحبة والعطف والحنان . . .

أما هذه المواقف التى تصبح فيها المرأة مشاكسة ، تنازع الرجل كتفاً إلى كتف ، لتأخذ منه موقفه ، وتقوم بعمله ، فليست موجودة فى ذلك المجتمع النظيف . . .

إنك لن تجد فيه المرأة التى تسلم أبناءها كل يوم إلى خادمة ، لأنها حين تقوم من النوم تستقبل المشط والمرآة وما معهما من وسائل الزينة ، فتقضى بينهما وقتاً غير قصير ، حتى إذا أكملت زينتها اختطفت محفظتها الأنيقة ، ثم سارت تتهادى حتى تصل إلى مقر العمل ، فى تصريف شئون الدولة أو شئون الشركة . فإذا انقضى الوقت مرت على المطعم أو رجعت إلى ما هيأته لها الخادمة ، فتناولته على عجل ، ثم استلقت على الفراش لتريح الجسم المكدود ، وما تفتأ تشعر بالراحة حتى تعود إلى المرآة والمشط وأداة الزينة ، تخرج بعدها تتسكع فى الشوارع ، وتعرض فتنتها على أنظار الجائعين ، حتى إذا كاد المساء أن ينتهى أوت إلى دار من دور اللهو باسم التسلية ، وكثيراً ما تكون هذه التسلية حفلة للرقص ، تعرض فيها خصرها الطيع على سواعد المعجبين ، فإذا انقضى الليل أو كاد ، رجعت إلى البيت مكدودة قد نضبت فيها منابع الحنان ، وحب الأسرة ولم يجد منها الزوج والأبناء غير هيكل من عظم ، قد امتصت الشوارع منه

خصائص الأنوثة من الجمال والحب والحنان ، فلم يبق فيها معنى للزوجة ولا روح للأم .

هذه الصور وأشباهها لن تجدها فى ذلك المجتمع النظيف ، إن للمرأة رسالة فى الحياة ، وللرجل رسالة ، وكما لا يحق للرجل أن يزاحم المرأة على رسالتها ، كذلك لا يحق للمرأة أن تزاحم الرجل على رسالته ، إنه قد يطلب من أحدهما أن يساعد الآخر فى ظروف خاصة تستدعيها طبيعة الحياة ، أما أن يأخذ أحدهما أعمال الثانى ، ويجلس فى مكانه ، فذلك مخالف للفطرة التى فطر الله الناس عليها ولعل من أعاجيب الحياة الحاضرة التى انطلقت فيها الشياطين تجوس خلال الديار أن تجد أفراد أسرة يشتغلون جميعاً ذكورا وإناثاً فى دوائر الحكومة ، أو الشركات ، أو المصانع ، بينما تجد أفراد أسرة أخرى يجتمعون على البطالة ، ذلك أن الفتاة المسترجلة فى الأسرة الأولى ، قد سبقت الشاب فجلست مكانه ، وحرمت الأسرة الثانية من حقها فى العمل باسم حقوق المرأة فى العصر الحاضر . . .

لقد كان المجتمع المسلم يسوده التضامن والتعاون والتساند ، ويتساوى أفراده فى الحقوق والواجبات حسب الطبيعة البشرية التى خلقهم الله عليها ، وتتكافأ الفرص بين جميعهم ، فلا استغلال ولا أثرة ، ولا عدوان .

ومع أن ينابيع الثروة فى ذلك الحين ، كانت أضأل منها فى العصور التالية جميعاً ، فقد عاش ذلك المجتمع المسلم لا يشعر بحرمان ، ولم تنشأ فيه غريزة الاكتناز ، ومحبة الترفه والبطالة والإثراء من أقرب سبيل ، إلا بعد ما انقضت الخلافة الرشيدة . وإنه لعجب حقاً أن تجد المجتمع المسلم فى عهد الصديق أو عهد الفاروق رضى الله عنهما ، يسوده الرضا والطمأنينة والسعادة .

فلما نشأت فكرة الاكتناز ، وبدأ أصحاب السلطة يميلون إلى الدعة والاستغلال والتشبه بالدول غير المسلمة ، بدأ التذمر والسخط ، وعدم الرضا ، ثم النقد والاندفاع والثورة ، ثم بدأ التقلقل الاجتماعى والتغلغل السياسى ، رغم فيضان الأموال ، واتساع موارد الثروة بين الناس ، ثم انحرفت الموازين الدينية ، والمقاييس الأخلاقية عن الاتجاه الإسلامى ، فأصبحت أحكام الشريعة وسائل للحساب لا للسلوك ، وأسبابا للعقاب لا للحق ، وركائز للانتقام لا للعدل ، فلا يهتم ولاة الأمر بمخالفة الناس لدين الله ، إلا إذا أرادوا الانتقام من شخص لأنه لا يريد أن يجرى معهم فى الفلك الذى هم فيه يسبحون ، ثم ازدادوا خطوة أخرى فى الابتعاد عن دين الله وأحكام شريعته ، فلم يعودوا يأبهون إلى الحلال والحرام من المال ، فكما أباح بعض الأفراد لأنفسهم كل الطرق لجمع المال ، كذلك أباحوها للدول ، ولم يعد يهمهم أن تجمع ميزانية الدول من الضرائب والمكوس ؛ وأن يدخل فيها ما يأتى عن طريق الربا والبغاء ، وبيع الخمور ، ومصادرة الأموال التى لا يبيح الشرع مصادرتها ؛ ومن غير ذلك من الأموال التى لا تجد بابا فى ميزانية الاقتصاد الإسلامى .
وماذا يضير الدول الإسلامية لو أنها طهرت أرضها من الخمر ومن الربا ومن البغاء ، ومن مصادرة الأموال بغير حق ، وما إلى ذلك مما يبعد عن شريعة الله .

فهل تخشى من غضب السكارى ؛ أم من غضب الفاسقين ؛ أم حنق المرابين !

لقد فتنت بعض الدول الإسلامية اليوم بأنظمة الغرب أو أنظمة الشرق ، وجرى بعضها وراء هؤلاء ، وبعضها وراء أولئك ، وأجروا على الشعوب

الإسلامية عدداً من التجارب أخفق أغلبها ، فلماذا لا نجرى تجربة جديدة ؛ فنعود إلى أنظمة الإسلام فى السياسة والحكم والاقتصاد .

لماذا لا نعود إلى هذا المنهج القويم الذى وضعه عالم الغيب والشهادة ؟ ..

هل نخشى أن نوصف بالرجعية ؟ وماذا يهم ما دمنا نستطيع أن نضفى على مجتمعنا السعادة والاطمئنان .

لقد حاولت جهد المستطاع أن أضع بين يديك صورة مصغرة من المجتمع الإسلامى النظيف فى الصدر الأول من تاريخ هذه الأمة العظيمة المجيدة ، ويسرنى لو أن القارىء الكريم قارن الصور التى رآها المجتمع الإباضى فى عصوره المختلفة إلى صور ذلك المجتمع الإسلامى الأول ، وأنا على يقين أنه سوف يجدهما صورة واحدة لمجتمع واحد ، وإن اختلفت بهما العصور . .

# شكر وتقدير

إننى وأنا أختم هذا الكتاب ، أحمده سبحانه وتعالى على ما أولانى من نعمة ، ويسر لى من خدمة ، وسهل لى من أسباب ، وفتح لى من أبواب ..

وأصلى وأسلم على سيد المرسلين وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وأتجه بشكرى وتقديرى إلى الإخوة الذين أمدونى بالمساعدة ، وأخلصوا لى النصيحة ، وكشفوا لى عن العقبات ، ومهدوا بين يدى السبل لإنجاز هذا العمل ، الذى أرجو أن ينفع الله به قلوباً تحب الخير ، وضمائر تستهدف الحق ، ونفوساً تحن إلى الهداية والتوفيق ..

والله من وراء القصد ، وهو الهادى إلى سواء السبيل ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

# مراجع الكتاب


| الكتاب | المؤلف |
|---|---|
| السير | أبو العباس الشماخى |
| الأزهار الرياضية | سليمان باشا البارونى |
| الجواهر | أبو القاسم البرادى |
| سلم العامة والمبتدئين | عبد الله يحيى البارونى |
| طلعة الشمس | عبد الله السالمى |
| الملل والنحل | الشهرستانى |
| فجر الاسلام | أحمد أمين |
| جهاد الأبطال | الطاهر الزاوى |
| الفتح العربى فى ليبيا | الطاهر الزاوى |
| الدليل والبرهان | أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم |
| شامل الأصل والفرع | « قطب الأئمة » محمد يوسف طفيش |
| الدعاية الى سبيل المؤمنين | أبو اسحاق طفيش |
| التفكير الفلسفى فى الاسلام | عبد الحليم محمود |
| فى موكب الدعوة | محمد الغزالى |
| الرد على العقبى | « قطب الأئمة » محمد يوسف طفيش |
| شرح عقيدة التوحيد | « قطب الأئمة » محمد يوسف طفيش |
| عقيدة التوحيد وشروحها | أبو حفص عمرو بن جميع |
| السير | أبو الربيع سليمان / يخلف المزاتى |
| المعلقات | جمع وترتيب قطب الأئمة |
| القول المتين فى الرد على المخالفين | قاسم سعيد الشماخى |
| اللمعة المرضية | عبد الله بن حميد الدين السالمى |
| ازهاق الباطل | « قطب الأئمة » محمد يوسف طفيش |

# فهرس الأعلام

## (أ)


ابراهيم بن الأغلب : ٦ ، ١٨٠
ابن اللحيانى : ١٦٥
ابن مكى : ١١٠
ابن مقطير الجناونى : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٥
أبو إسحاق الإشارنى : ٢١١
أبو إسحاق ابراهيم طفيش : ١٢٥، ١٢٨، ١٣٤ ، ٢٦٢
أبو بكر الفسوفى : ١٨٥
أبو بكر بن يحى : ١٤٩
أبو حازم نوح بن حازم المرماونى : ٦٧ ، ١١٨ ، ١٩٣ ، ١٩٨
أبو حامد الغزالى : ١٠٧
أبو الحسن الأبدلانى : ٣٣ ـ ٣٥ ، ١٩٣
أبو الحسن أيوب بن العباس : ٤٠ ، ١٨٥
أبو الحسن جناو بن فتى المديونى : ٥٣، ٥٥
أبو حفص عمرو بن عيسى : ١٨٩
أبو الخطاب عبد الأعلى ١٤ ، ١٦ ، ٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١ ، ٢٩٧
أبو الخطاب وسيل بن سنتين : ١٤٩
أبو خليل الدركلى : ٦٦ ، ٧٣ ـ ٧٥ ، ١٨٥
أبو الخير توزين الزواغى : ١٤٩ـ١٥٦، ٢٠٤
أبو داود الدرفى : ٢١٢
أبو داود القبلى : ١٤ ، ٥٩
أبو ذر أبان بن وسيم : ٧٣ ، ٧٧ ، ١٨٥ ، ٢٣٢
أبو ذر صدوق الفرسطائى : ٦٧
أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتى : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ١٧٢ ، ١٧٦
أبو الربيع سليمان بن يخلف : ١٤٧، ١٩٣
أبو الزاجر اسماعيل بن درار : ١٦ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٥٩ ، ٦٥
أبو زكرياء الأرجانى : ١٩٩ ، ٢٠٠
أبو زكرياء التندميرتى : ١٨٨
أبو زكرياء التوكيتى : ٤٢ ، ٤٥ـ٤٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩
أبو زكرياء يحى بن أيوب : ١٣٢
أبو زكرياء يحى بن جرناز ١٧١ ، ٢٦٢
أبو زكرياء يحى بن الخير الجناونى : ٦٧ ، ٩٣ ـ ٩٥
أبو زكرياء يحى بن زكرياء : ٦٧ ، ١١٨
أبو زكرياء يحى بن سفيان : ٨٧
أبو زكرياء يحى بن العز : ٧٠
أبو زكرياء يحى بن عيسى : ١٣٢
أبو زكرياء يحى بن يونس : ٢٣٧
أبو زيد المزغورتى : ١٠٤، ١٠٧، ١١٥
أبو ساكن عامر الشماخى : ١١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٩ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٩٨ ، ٢٢٠
أبو سليمان الايزى : ١٩٣
أبو سليمان داود بن إبراهيم : ٧٧
أبو سهل البشر بن محمد : ٥٤ ، ٦٦ ، ١٧٢

أبو الشعثاء المنتونى : ٢٠٩ ، ٢١٠
أبو الضياء الطرميسى : ١١٨
أبو طاهر اسماعيل بن موسى : ٦٩ ، ٧٠، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧ ــ ١١١ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٥
أبو عاصم السدراتى : ١٤
أبو عامر التصرارى : ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
أبو العباس الشماخى : ١٧، ١١٧، ١٢١، ١٢٣ ، ١٢٥ ــ ١٢٨
أبو عبد الله محمد بن بكر : ١٤٦، ١٤٧ ، ١٧٨
أبو عبد الله بن جلداسن : ٢٠٣ ، ٢٠٤
أبو عبد الله محمد بن جنون : ٨٦ ، ٨٧
أبو عبد الله التفجانى : ١١٨
أبو عبيدة عبد الحميد : ٣٠ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٣
أبو عبيدة مسلم : ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ٥٧ ، ٨٢
أبو عثمان سعيد بن عيسى البارونى : ١٣١
أبو عثمان المزاتى : ٢٣٦ ، ٢٣٧
أبو عزيز : ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٩٨
أبو عفيف صالح بن نوح : ١٢٧
أبو على الفساطوى : ١٤٩، ١٥٠، ٢٠٤
أبو عمران موسى : ٢٦٢
أبو عمرو النميلى : ٢٦٢
أبو غالى أبو عزيز بن ابراهيم : ٦٩
أبو الفداء الملوشائى : ٩٧ ــ ١٠١ ، ١٠٨ ، ١٣٣
أبو القاسم البرادى : ١١٨ ، ١٢٧
أبو القاسم البغطورى : ٦٦ ، ٧٧ــ٧٩ ، ١٨٥
أبو الليث الجناونى : ٢٠٣ ، ٢٥٧
أبو محمد التغرمينى : ٢١٣ ، ٢١٤
أبو محمد خصيب بن ابراهيم : ٦٤ ، ٦٦ ، ٨٢ ، ٨٥ ــ ٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠
أبو محمد بن الخير : ١٩٣
أبو محمد عبد الله الشماخى : ٦٧
أبو محمد عبيدة بن أفلح : ٢٠٣
أبو محمد عبيدة بن زارور : ٢١٣ ، ٢١٤
أبو محمد الكباوى : ٦٦
أبو مرداس مهاصر السدراتى : ٣٤ ، ٣٨ ــ ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٢١٥
أبو معبد الجناونى : ٢٣١
أبو معروف جواد بن ويار : ٦٧، ١٧٩، ١٨٣ ، ١٨٥
أبو منصور الياس : ١٨٨
أبو المنيب محمد بن يانس : ١٦، ١٧ــ٢٥، ٦٤ ، ٧٣ ، ١٨٥
أبو مهاصر موسى بن جعفر : ٤٧ــ٥٠ ، ١٩٣
أبو موسى عيسى الطرميسى : ١١، ٦٧ ، ٧٠ ، ١٠٣ ــ ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٢٠
أبو موسى عيسى بن السمح : ١٤٩
أبو ميمون : ٥٨ ، ٢٣٠ ، ٢٦١
أبو النجاة يونس الملوشائى : ٦٣ ، ١٧٦
أبو نصر التصمصى : ١٩٠
أبو نصر زار التفستى : ٥٣ ، ٥٤ ، ١،
أبو نصر فتح بن نوح : ١٩٠
أبو هارون الجلالمى : ٦٤، ٦٦، ٨١ ، ٨٢
أبو هارون الملوشائى : ٦٣ ، ١٧٩ ، ٢١٨
أبو يحى التارديتى : ١٩٧

أبو يحى توفيق الجناونى : ٦٧
أبو يحى زكرياء بن إبراهيم : ٦٧ ، ٩٧
أبو يحى زكرياء بن عبد الرحمن : ٢٢٠
أبو يحى الدرفى : ٦٦ ، ٩١
أبو يحى سليمان بن ماطوس : ٦٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٨٣
أبو يحى الفرسطائى : ٦٣، ٦٦، ٨١ـ٨٣، ٨٥
أبو يحى وجدليش : ١٠٣
أبو اليقظان الحاج ابراهيم بن عيسى : ١٣١ ، ١٣٣
أبو يعقوب التفرميني : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٢١٣
أبو يعقوب يونس بن مصباح : ١١٨
أبو يوسف حجاج بن وفتين : ٢٣١
أبو يوسف وجدليش بن فى : ٦٧ ، ٨٩ ـ ٩٢ ، ٢٠٣
أبو يوسف يعقوب بن أحمد : ٦٧، ١٢١، ١٢٣ ، ١٢٧
أبو وسيم الطمزينى : ١٩٠
أبو ويسجمين التغرويتى : ١٧٣
أحمد بن بصير اللالوتى : ١٧١
أحمد بن عبد الله البارونى : ١٣٢
أحمد النايب : ٢٩٩
ادريس الفزانى : ٥٣
أفلح بن العباس : ١٨٥
أم الخطاب : ٢١٠
أم الربيع الوريورية ٢٤٩
أم زيد ٢٤٨
أم الزين اللالوتية : ١٧٦
أم سحنون اللالوتية : ١٧٢
أم جلدين : ٢١٤ ، ٢١٥
أم زعرور : ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٣٩
أم ماطوس : ٨٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠
أمة الواحد : ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦
أم يحى : ٨٥ ، ١٩٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، ٢٦٤

## (ب)

بهلولة : ٢٣٢
البيدمورى : ١٢١ ، ١٢٧

## (ت)

تابركانت : ٢٥٢
تالولا : ٥٠
التيجانى : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩
تكفا : ٢٣٨
توزين : ٢٣٨

## (ج)

جابر بن سدرمام : ٢٦٢
الجيطالى = أبو طاهر اسماعيل بن موسى

## (خ)

خالد الزناتى : ٢٨٩
خلف بن السمح : ٣٤ ، ٢٣١
خيار التمنكرتى : ١٨٥

## (د)

داهيا : ٢٠٥
داود بن هارون : ٦٧

## (ز)

الزاوى : ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١

زرزت : ٤٣ ، ٤٤
زورغ : ١٩٣ ، ١٩٤
زينب اللالوتية : ١٧٢ ، ٢٣٥

(س)

سارة : ٥٠
سعد بن أبي يونس : ٦٥ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٣٣١
سعيد بن صالح بن زيد : ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٧ ـ ١٧٠
سعيد بن قاسم الشماخي : ١٣١
سليمان باشا الباروني : ١١٣ ، ١٣٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧
سليمان الجادوى : ١٣٢
سليمان بن موسى الشماخي : ١١٨
سيد قطب : ١٥٣

( ش )

شاكرة الزعرورية : ٢٣٩
شيبة الدجى : ١٨٥

( ض )

ضياء الدين التميني : ١٢٦

( ط )

طاهر بن يوسف : ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

( ع )

عاصم السدراتى : ٥٩ ، ١٧٣
العباس بن أيوب : ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٢
عبد الخالق الفزانى : ٥٢
عبد الرحمن بن رستم : ١٤ ، ٥٩ ، ١٨٦
عبد الرحيم الزوارى : ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٢
عبد السلام بن صالح : ٢٢٠
عبد القهار بن خلف : ٥٣ ، ٥٥
عبد الله البارونى : ٦٧ ، ٧٠ ، ١١٦ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ٢٢٠
عبد الله الشماخى : ١٢١ ، ١٢٢
عبد الله بن مانوج : ٢٦٢
عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم : ١٧ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٦٥ ، ١٩٩ ، ٢١١ ، ٢١٢
عربى العزابى : ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٠
عقبة بن نافع : ٢٩٤
على بقوش : ١٦٠
عمرو بن العاص ١٨١
عمرو بن عيسى التندميرتى : ١٣٢ ، ١٣٣
عمروس المساكنى : ٤٩ ، ٥٣ ، ١٩٣ ، ٢٤٢
عمرو بن يمكتن : ٥٧ ، ٦١ ، ٦٥
عيسى بن محمد : ٢٠٩

( ف )

فرج النفوسى : ١٨٦ ، ١٨٧

( ق )

قطب الأئمة : ١٣١
قاسم بن سعيد الشماخى : ٢٢٠

( ك )

كباب بن مصلح : ٢٦٢

( م )

مارن : ٩٠ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ١٥٠ ، ٢٥١
محمد بن الأشعث : ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
محمد بن بركين : ٢٠٤

محمد بن بصير : ١٧١
محمد بن الشيخ : ١١٨
محمد بن عبد الله العمانى : ١٢٣
محمد بن عيسى أزبارة : ١٢٦
مزور بن عمران : ٤٦
مذرو : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
مهدى الويغوى : ٢٧ — ٣١ ، ١٨٦ ، ١٩٢ ، ١٩٣
موسى بن عامر الشماخى : ١١٨
الميورقى : ٦ ، ٢٠٥

(و)

والى العهد المرجسى : ١٨٥

(ى)

ياقوت الحموى : ٢٧١
يحيى بن عبد الله البارونى : ١٣٢
يخلف بن يزيد : ١٤٩
يزيد بن يخلف : ١٤٩
يونس بن محمد : ١٢٣

# فهرس البلدان


(أ)

أبديلان : ٤٣ ، ١٩٣ ، ١٩٤
لمبناين : ٩٤ ، ١٧٦ ، ١١٨
أبو رغوة: ١٧٧
أدبير : ١٧١
أدبيرن : ٢٤٨
أدرف : ٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢١٨
أدوناط : ٢٤٣
أرجاجن : ١٩٣ ، ١٩٤
أرجان : ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٨
لمشارن : ٢١١
أشبارى : ٨٩ ، ٢٠١
آفاطهان : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٥ ، ١٩٣
لمسراتن: ٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩
أمسين : ٥٨ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٢١ ، ١٩٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤٦
أندماد : ١٩٩
انير : ٥٨ ، ٩١ ، ١٠٧ ، ١٩٣

(ب)

البخانجة : ١١٣ ، ١١٤
البصرة : ١٣ ، ١٤ ، ١٥
بفطورة : ٧٧ ، ٧٨ ، ١٨٤
بقالة : ١٨٤
بقيقيلة : ٧٧
بنو زمور : ٢٠٧ ، ٢١١
بودير : ١٧٨

(ت)

تاردية : ١٩٧ ، ٢٠٩
تازمرايت : ١١٣
تاغرويت : ١٧٣
تاغمة : ١١٣ ، ٢٠٨
تالة : ١٩٣
تالات : ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٩
تاهرت : ١٧ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٦٥ ، ١٩٦ ، ٢٤٣
تبرست : ٤٢
تدنيت : ٢١٠
تصرار : ١٧٧ ، ٢٣٣
تعزمين : ٣٤ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٤٧
تغليس : ١٧١
تقربست : ١١٣
تسكوت : ١٧٣
تليل : ١٦٠
تمزدة : ١٩٩
تمصمص : ٨٥ ، ١٨٠ ، ٢١٨
تملوشايت : ٩٧ ، ١٧٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢١٨ ، ٢١٩
تمنكرت : ٧٧ ، ٧٩ ، ١٨٤
تموقط : ٨٩ ، ٩٣ ، ٢٠٢
تميجار : ٥٨ ، ١٩٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣
تندميرة : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
تندوزيغ : ٨٥ ، ٢٤٠
تنزعت : ١٨ ، ٢٣٦

تنومات : ١٧٧ ، ١٧٩
توكيت : ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٨
تونين : ١٧١
تيجى : ٦٥ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ٢٣١
تيغيت : ١٧٢

(ج)

جادو : ٣٤ ، ٦٣ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٣٥ ، ١٧٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٨
جار لمصرا : ٨٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٩
جبل نفوسة : فى أغلب الكتاب
جربة : ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٧٨
جريجن : ٧٧ ، ١٨٤
الجزيرة : ٢٤ ، ٧٣ ، ١٨٤
جليمت : ١٧٦
جمارى : ٩٠ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٥٠
جناون : ٥٧ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥٧
جيطال : ٥٨ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٩٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣

(ح)

الحرابة : ٢٧ ، ٧٧ ، ١٨٦
الحسيان : ١٧١
الحوامد : ١٧٣

( د )

دجى : ١٨٤ ، ٢٣٦
دركل : ٧٣ ، ١٨٤
ديسير : ١١٣

( ر )

الرحيبات : ٥٧ ، ١١٥
الرجبان : ٢٠٧ ، ٢١٢
رقرق : ١٩٨ ، ١٩٩
رقو : ١٧٥

( ز )

زحلة : ١٩٦
الزرقاء : ٩٠ ، ٢٥١
زعرارة : ١٨٤
الزنتان : ٢١٣
زوارة : ١٥٧ — ١٦٦ ، ١٧٠
زواغة : ١٤٩ — ١٥٦ ، ١٦٠
زويلة : ٢١١

(س)

سرت : ١٢٩ ، ٢١١
سركوكم : ١٧١
سنتوت : ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١
سيدى على : ١٥٩

( ش )

شروس : ٩٧ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ٢٠٩
الشقارنة : ١١٣
شكشوك : ٨٩

(ص)

صبراته : ١٤٩

(ط)

طرابلس : ١٠٩ ، ١٣٢ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ، ٢٠٨
طرميسة : ٦٩ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤
طمزين : ٦٥ ، ٨٥ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٣٩

( ظ )

الظهرة : ١١٣

( ع )

العراق : ١٥
عطرشو : ١٧٧
العنقر : ١٧٧

( غ )

غدامس : ٢٤
غف سوف : ١٨٤ ، ٢٣٦
غمراسن : ١٦٤

( ف )

فاغيس : ٣٤
فرسطاء : ٨١ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٧٨ ، ٢١٨
فزان : ٥١ — ٥٥ ، ٧٣ ، ٧٤، ٢١١
فساطو : ١٣٢ ، ١٩٣
فندة : ١٧٦

( ق )

قابس : ٧٣ ، ١١٠
القراديين : ١١٣
قصبة مادى : ١١٣
قصبة مانة : ١١٣
قصر الحاج : ٢٠٩
القصير : ٨٩ ، ٩٣ ، ١١٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣
قطرس : ١٩٣
قلو : ١٠٣
قنطرارة : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٢٣١

( ك )

كاباو : ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٧٥ ،١٧٦، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢١٨ ، ٢٣٩
كمزين : ١٧٨
كوطين : ١٥٨

( ل )

لالوت : ٨٥ ، ١١٦ ، ١٣٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٠٣ ، ١١٨
لبنان : ١٩٦

( م )

ماصر : ٩٠ ، ١٩٥
مانو : ١٨٠ ، ١٨٥ ، ٢٤٣
مرجس : ١٨٤
مرساون : ٥٨ ، ١١٦ ، ١٩٣ ، ٢٤٠
مزاته : ٢٣٦
مزغورة : ٦٩ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١١٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨
مزو : ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٣٢
المشوشيين : ١١٣
مطكوداسن : ٢١٢
المعانيين : ١١٣
مماسين : ١٧٦
ميتيون : ١١٥
ميرى : ٤٠ ، ٢١١ ، ٢١٢

( ن )

ندباس : ٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ١٩٩، ٢٣١
نمال : ١٧٨

( و )

وادى الآخرة : ٢٠٧ — ٢١١
وادى أريغ : ١٧٨
وادى أمسين : ١٩٣ — ١٩٤

وادى الرومية : ٢١٦

وادى الزرقاء : ١٩٥ — ٢٠٥ ، ٢٣١

وادى شروس : ٨١ — ٩١

وادى الشيخ : ١٧٧

وادى كراين : ٤٣ ، ١٧٥ — ١٨١

وادى لالوت : ١٧١ — ١٧٤

وادى ميزاب : ١٦٨ ، ١٧٨

وارجلان : ١٧٣

وازن : ١٧٤

ودان : ٢١١

وربورى : ١٧٨

وزدر : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩

ولول : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠

ونزيرف : ١٩٣ ، ٢١٨

ويفو : ٢٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢١٨

ويفات : ١٩٨ ، ١٩٩


## ( ى )


يفرن : ٦٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٥ ، ١٧٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠

يوجلين : ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٣

# فهرس الموضوعات


مقـدمة ... ... ... ... ... ٥
الـكفاح العلمى ... ... ... ... ٧
أبو الزاجر اسماعيل بن درار الغدامسى ١٣
أبو المنيب محمد بن يانس ... ... ١٧
مهدى النفوسى الويغوى ... ... ٢٧
أبو الحسن الابدلانى ... ... ٣٣
أبو مرداس مهاصر السدراتى ... ٣٧
أبو زكرياء التوكيتى ... ... ... ٤٥
أبو مهاصر الأفاطمانى ... ... ٤٧
الإباضية فى فزان ... ... ... ٥١
المدارس ... ... ... ... ... ٥٧
أبو خليل الدركلى ... ... ... ٧٣
أبو القاسم البغطورى ... ... ٧٧
أبو يحى الفرسطائى ... ... ... ٨١
أبو محمد التمصمصى .. ... ... ٨٥
أبو يوسف وجدليش ... ... ٨٩
أبو زكرياء يحى بن الخير الجناونى ٩٣
أبو نصر فتح بن نوح الملوشائى ... ٩٧
أبو موسى عيسى الطرميسى ... ١٠٣
أبو طاهر اسماعيل الجيطالى ... ١٠٧
أبو ساكن عامر الشماخى ... ١١٣
أبويوسف يعقوب بن أحمدبن موسى ١٢١
أبو العباس الشماخى ... ... ... ١٢٥
عبد الله بن يحى الباروتى ... ... ١٣١
نظم التربية والتعليم ... ... ... ١٣٧
زواغـة ... ... ... ... ... ١٤٩
زوارة ... ... ... ... ... ١٥٧
زوارة والتيجانى ... ... ... ١٦١
الشيخ سعيد بن صالح بن زيد ... ١٦٧
وادى لالوت ... ... ... ... ١٧١
وادى كراين ... ... ... ... ١٧٥
وادى شروس ... ... ... ... ١٨١
وادى أمسين ... ... ... ... ١٩٣
وادى الزرقاء ... ... ... ١٩٥
وادى الاخرة ... ... ... ... ٢٠٧
وادى الرومية ... ... ... ... ٢١٧
تآزر جهود الفرد والجماعة والدولة ٢٢٣
المرأه الإباضية فى ليبيا ... ... ٢٢٩
مقارفات ... ... ... ... ... ٢٥٧
الزاوى ينحرف عن الحق ... ... ٢٦٧
المجتمع المسلم ... ... ... ... ٣٠٣
شـكر وتقدير ... ... ... ... ٣١٢
مراجع الـكتاب ... ... ... ٣١٣
فهرس الأعلام ... ... ... ٣١٥
فهرس البلدان ... ... ... ... ٣٢١

# جدول الخطأ والصواب

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ٦٠ | ٤ | إنعامهم | إتعامهم |
| ٩٤ | ١٣ | يصبأ | يصبا |
| ١٠٤ | ١٤ | سياء | سيماء |
| ١١٣ | ٩ | أجدوها | أجودها |
| ١١٣ | ١٧ | النجاتجة | البخابخة |
| ١٣٣ | ٩ | الذين | الدين |
| ١٣٣ | ١٩ | عمرو اين عيسى | عمرو بن عيسى |
| ١٦٤ | ١٤ | غمداش | غمراسن |
| ١٦٦ | ٢٠ | قرق | قرن |
| ١٦٩ | ٦ | الذين | اللاذين |
| ١٧٢ | ٦ | يلفها | بلغها |
| ١٨٠ | ١٢ | سعيد | سعد |
| ١٨٠ | ١٣ | ضرب | خرب |
| ١٨٠ | ١٤ | بنيائها | بنيانها |
| ١٨١ | ١٣ | أخوة | إخوة |
| ١٨٤ | ٧ | التحصين | التحصن |
| ١٨٥ | ١١ | القفوفى | الفقسوفى |
| ١٨٥ | ٢١ | يامرنى | يأمرانى |
| ١٨٩ | ١٦ | فيقبلون | فيقلبون |
| ١٩٤ | ١ | الرجبيات | الرحيبات |

مطبعة الأستقلال الـكبرى
٨ ش نجيب الريحانى ت : ٤٧٤٨٦